

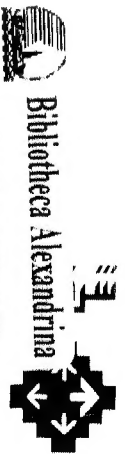
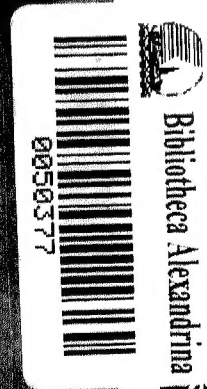
ترجمة : محمد عبد إبراهيم



توني موريسون الكاتبة الحائزة على جائزة نوبل ١٩٩٣



جاز
[رواية]



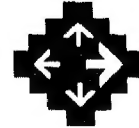
ولو غُ بالموتِ على حساب الحياة

سرد متوتر صاخب ، ملتزم ،
يعي الآخر ، بينما صوت الذات
يحكي الوجود .

المكان يتفاعل مع ساكنيه ،
ياخذ عنهم طبيعته ويحوم عليهم ،
طابعاً وجد أنهم بكل ما يبتعثه من
كوأمن الوجد والفقر والقهر
والعصيان ، كذا بساطة الوجود
واللذة .

« جاز » توني موريسون تحكي
٢٨ . في تراجيدية غنائية من صفاء
الشعر عن شخصيات سود لها
ماضٍ مفزع وغريب ، تستبطن
فيها من خصائص عالم المرأة ما
لا يتوفر إلا لامرأة ، وامرأة
مرهقة .

قال عنها أحد النقاد مرة :
« وهبني كوابيس ، فظلت
يقظان ، ابتسمُ بوهمٍ لنفسي في
متعة متوترة .. »



دار شرقيات للنشر والتوزيع

چاز

هذه ترجمة لرواية

JAZZ

تأليف

TONI MORISSON

جميع الحقوق محفوظة
١٩٩٥، دار شرقيات

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي
باب اللوق - القاهرة . ت: ٣٩٠٢٩١٣

الغلاف والإشراف الفني على الكتاب :
محيي الدين اللباد

توني موريسون

چار

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر والتوزيع

«أنا اسمُ الصوتِ

وصوت الاسم.

أنا إشارة الحرفِ

ودلالةُ القسمة»

(رعد، عقل صافٍ)

نجع حمادي*

(*) شذرة من نصوص غنوصية قبطية عُثر عليها في نجع حمادي بمصر عام ١٩٤٥. وهي برديات بالقبطية كانت مؤلفة في الأصل باليونانية، تتكون من ثلاثة عشر مجلداً (كودكس)، وتحتوي إلى جانب نصوص وتعليقات الجماعة الغنوصية من حوالي القرن الرابع الميلادي، عدداً من أعمال أدبية يونانية مفقودة مترجمة إلى القبطية. تعكس الغنوصية البعد عن البشر مع القرب من المثال الذي يجتاز حد الحياة، ويتطلب هذا نبذ المتع والتطلع إلى الحرية المطلقة مع الانسحاب من احتواء النجاسة التي تبدد وضوح الرؤية. وجدوا بهذه الخبيثة أيضاً كلمات للسيد المسيح في مستهلها «إن من يفهم المعنى العميق لهذه الأقوال لن يذوق الموت». (المترجم).

أعرف تلك المرأة. فقد اعتادت أن تعيش مع حشد طيور في طريق «لينوكس». أعرف زوجها، أيضاً. وقع بغرام فتاة في الثامنة عشرة، حيث جعله ذلك الغرام الخفي الجفول تعساً تماماً وسعيداً للغاية حتى أنه أطلق النار عليها فحسب ليصون هذا الشعور. عندما ذهب المرأة، التي اسمها «فيولت»، إلى الجنازة لترى الفتاة وتمزق وجهها الميت، طرحوها أرضاً ثم إلى خارج الكنيسة. هرولت، عندئذ، خلال ذاك الجليد، عائدة لشقتها، فأخذت الطيور من أقفاصها وأطلقتها عبر النوافذ كي تتجمد أو تطير، كان ضمنها البغاء الذي يردد «باحبك».

كانت الريح تُدري الجليد الذي هرولت فيه، فلا تترك به آثار أقدام، ولوقت ما، لم يعرف أحد بالضبط أين كانت تعيش في طريق «لينوكس». لكنهم، مثلي، عرفوا من تكون، من لا بد أنها تكون، لأنهم عرفوا أن زوجها «جوتريس» هو الذي أطلق النار على الفتاة. لم يتمكن أحد من أن يدينه، لأنه لا أحد رآه فعلياً يقوم بذلك، كما أن حالة الفتاة الميتة لم تكن تريد تبديد مالها على محامين عَجْزة أو شرطييين مستهزئين، حيث علمت بأن التكاليف لن تستنقذ شيئاً. إضافة إلى أنها اكتشفت بأن الرجل الذي قتل بنت أختها يكي طوال اليوم، وأن حياته و«فيولت» صارت جحيماً كسجن.

وبغض النظر عما سببته «فيولت» من حزن، فقد طُرح اسمها كشخص يترجي مساعدة في اجتماع يناير بنادي «سالم ويمن» (*)، ولكن خذلها التصويت، لأن الصلاة وحدها - لا النقود - هي ما تحتاجه الآن، كما أن لديها زوجاً يكفيها على التقريب (فقط لو يكف عن الشعور بالأسى على نفسه)، ولأنه يوجد في الشارع ١٣٤ من هوأولى بهذا، فقد خسر رجل وعائلته كل شيء هنالك في حريق. ومن ثم كان على النادي أن ينظم نفسه لنجدة العائلة التي احترقت، وترك «فيولت» تفهم الأمر على ما كان وكيف تصلحه.

كانت «فيولت» في الخمسين، ومهزولة لأبعد حد، رغم أنها - حين أوقفت الجنازة - كانت لاتزال بمظهر حسن. قد تظن بأن إلقاءها خارج الكنيسة سيكون نهاية الأمر - العار وكل

(*) سالم: مدينة أمريكية، والنادي نسائي، كما يتضح بالاسم. (المترجم)

شيء - لكنه لم يكن. «فيولت» بقوامها الوَسَط ومظهرها الحسن، وحتى بدون عجيزتها والشباب، كانت تفكر في أن تقسو على «جو» باتخاذ عشيق لها تجعله يزورها في ذات منزلها. كانت تحسب أن هذا سيخفف من دمه ويهبها بعض الشيع كذلك. كان يمكن للطريقة أن تفيد، فيما أفترض، ولكن أطفال المنتحرين يصعب إرضائهم، وبسرعة يصدقون أن لا أحد يحبهم، لأنهم في الحقيقة مغنيون.

على أي حال، فإن «جو» لم يعر «فيولت» ولا رفيقها أي انتباه. ولست أدري مالو كانت صرّفت العشيّق أو هو هجرها. فربما توصّل للشعور بأن هبات «فيولت» بائسة، في مقابل تعاطفه مع الرجل حطيم القلب بالغرفة المجاورة. لكنني أعرف بأن المأزق لم يدم لأسبوعين. وكانت خطة «فيولت» التالية - أن تقع في غرام زوجها مرة أخرى - تجلدها حتى استقرت على أساس سليم. غسيل مناديله وتقديم الطعام أمامه على المائدة، كان أقصى ما استطاعت فعله. طفا صمت مسمّم مثلما شبكة صيد كبيرة خلال الحجرات، وكان أن شقته «فيولت» وحدها صارخة باتهامات مضادة. وكان يرهقها الفتر بنهار «جو» ويكل من ليا ليهما القلقة. فقررت أن تحب - تنفهم، جيداً - الفتاة ذات الثمانية عشرة عاماً بوجهها القشدي الصغير، والذي حاولت تمزيقه، رغم أن محاولتها هذه لم تتمخض عن كثير.

في البداية، لم تعرف «فيولت» عن الفتاة غير اسمها، وعمرها، وأنها كانت ممن يعتنى بهن في صالون التجميل المرخص. وبذلك بدأت تجميع باقي المعلومات. ربما ظننت أن بإمكانها حل لغز الحب بهذه الطريقة. بالتوفيق ودعيني لأعرف.

استفهمت من كل واحدة، بادئة بـ «ملفون»، جارتها العلوية - وهي أول من وشى لها عن بذاءة «جو»، وعن الشقة التي استخدمها هو والفتاة كعش غرام. عرفت من «ملفون» عنوان الفتاة ومن أهلها. ومن عاملات صالون التجميل اكتشفت نوع أحمر الشفاه الذي كانت تستخدمه الفتاة، ونوع المشابك اللاتي كن يصفقن به شعرها (وقد ارتبت في أنها كانت تحتاج لفرد الشعر)، الفرقة الموسيقية التي كانت تميل إليها الفتاة أكثر (فرقة «إيوني كيز»*) لإصاحبها «سليم باتس»، وقد كانت بديعة باستثناء المطربة التي لا بد كانت امرأته، فقد كان يدعها تهين فرقته. وعندما أوضحوا لها كيف ترقص، كانت «فيولت» تؤدي نفس خطوات الرقص التي اعتادت عليها الفتاة الميتة. كلها بالتمام. وحين تملكك هذا النقر الإيقاعي الخفيف - وركبتها بهذا الشكل - اشبأ من كل واحد، بمن فيهم عشيقها السابق، ويمكنني أن أعرف السبب. كان ذلك كمن يشاهد حمامة شارع عجوزاً تنقر قشرة سندوتش سردين تركته القطط من خلفها. لكن «فيولت» لم تكن إلا مثابرة، ولم تكن توقفها نظرة غمز أو تعليق جارح. وترددت على مدرسة «ب. س. ٨٩» لتتكلم مع المدرسين الذين عرفوا الفتاة. وكذلك على مدرسة «ج. ه. س. ١٣٩» لأن الفتاة كانت تذهب إليها وقد بددت زمناً في فصول مهنية، فلم تكن هناك

(*) فرقة جاز (المترجم)

مدارس عالية في ذلك الحيّ يمكن لفتاة ملوّنة أن تواظب عليها. ولوقت طويل أزعجت «فيولت» خالة الفتاة، وهي سيدة تقوم بالتدريب في حيّ الملابس بين الحين والآخر، إلى أن انقادت لها الخالة وبدأت تتطلع لزيارات «فيولت» فتدردش معها عن الشباب وسوء السلوك. وأظهرت الخالة كل حاجات الفتاة الميتة لـ «فيولت»، وصار واضحاً لديها (كما هو لديّ) أن بنت أختها هذه كانت عنيدة مثلما هي مأكرة.

أحد الحاجات الخاصة التي أظهرتها الخالة، وجعلت «فيولت» في النهاية تحتفظ بها عدة أسابيع، كان صورة لوجه الفتاة. كانت غير مبتسمة، لكنها في عنفوانها وجريئة للغاية. وقد تحمّلت «فيولت» أن تضع هذه الصورة على رفّ المدفأة بالصالة، وكانا ينظران إليها -هي و«جو»- في اندهال.

بدا ذلك كأسرة استثنائية منعزلة، بعد الطيور التي رحلت، فكان اثناهما يمسحان خديهما طول النهار، ولكن مع قدوم الربيع إلى المدينة، رأت «فيولت» فتاة أخرى بأربع خصلات متموجة تنساب على جانبي وجهها، تهلّ قادمة إلى المبنى تحمّل لحماً للطهي في ورقة جزّار واسطوانة «أو كيه» تحت ذراعها. وقد استضافتها «فيولت» لتفحص الاسطوانة، وبذلك ابتدأت ذلك الثلاثي الفاضح في طريق «لينوكس». ماصار مختلفاً في النهاية هو من أطلق النار على من.



إنني لمجنونة بهذه المدينة.

ضوء النهار منجرف مثل موسى ليقسم المباني لنصفين. بالنصف الأعلى أرى وجوهاً متطلّعة، وليس من السهل أن أحكي عن كنه هؤلاء الناس، وعن طبيعة المعمار فيه، بالنصف الأسفل أرى ظلاً يستحلّ مكان أي شيء بدون مبالاة: آلات كلارنت وفعل حبّ، قبضات وأصوات نسوة منتحبات. إن مدينة كهذي تجعلني أحلم طويلاً وأرثي لحاجات أَلَمْ بها. إشراق الفولاذ المهترّ على الظلّ بالأسفل هو ما يفعل هذا. عندها أشرف على حزام العشب الأخضر بطول حدّ النهر، على أبراج الكنيسة، وعلى صالات الشقق بلون القشدة والنحاس الأحمر، فأشعر بالقوة. أنا وحيدة، نعم، ولكنني على أهبة الاستعداد ولا أقبل التدمير - مثلما المدينة في ١٩٢٦ عندما انتهت كل الحروب فلن تقوم واحدة أخرى. الناس سعداء في الظلّ هناك بخصوص هذا. أخيراً، أخيراً، كل شيء للأمام. يقول النابهون بذلك، وينصت الناس لهم قارئين ما يكتبونه ويوافقون عليه: هنا يهلّ الجديد! فاحذر. ينقضي الهراء الحزين. الهراء الأسى. الأشياء التي لا يمكن امرؤ من دفعها. تشعبت الطرق عند كل الناس. انس ذلك. انتهت الحكاية، بالنسبة لكم كلكم، وكل شيء للأمام أخيراً. يجلس الناس معاً في الصالات والمكاتب يفكّرون بمقاصد المستقبل، بالمشروعات والكباري والقطارات المقطّقة سريعاً تحت الأرض.

شركة «أ. و. ب.» تستخدم موظفاً ملوناً. نساء ذوات أرجل ضخمة وألسنة قرفلية كالقطة تدحرج عملات في أنابيب خضراء لوقت الحاجة، بعدها يضحكن ويشبكن أذرعهن مع الأخريات. الناس العاديون يحلقون على اللصوص إلى الأزقة من أجل علقه ساخنة لهم، ولو كان أحدهم غيباً وسرق بطريق خاطئ يكون العقاب هذه المرة من جهة اللصوص أنفسهم. المشاغبون حديثو السن يستلمون المعجائز، باذلين أقصى جهد ليظلوا مرغوباً فيهم، ولأنهم يعاملون كمحطٍ للإثارة، فهم يراعون ملابسهم، ويصنعون من المهانة مستقبلاً. لا أحد يرغب في دخول قسم الاستقبال بمستشفى «هارلم»، ولو كانت المناوبة لطبيب زنجي فإن الكبرياء يصيرع الألم. ورغم أن شعر الممرضات الملونات من الدفعة الأولى في «بليغيه» قد اعتبر غير ملائم لقبعة الممرضات الرسمية، فهناك خمس وثلاثون منهن الآن يعملن بإخلاص وتفوق في مهنتهن.

لا أحد يقول بأن الدنيا جميلة هنا؛ ولا هي سهلة كذلك. الأمر هنا حاسم. فلو انتبهت إلى خطوط الشوارع -الممهدة جميعاً- فإن المدينة لا تؤذيكَ.

مامن عضلات لديّ، ولذا يمكن في الحقيقة التوقع أن أدافع عن نفسي. لكنني أعلم بالتأكيد كيف أخذ حذري. في الغالب، لا أحد يعرف تماماً ما يريد أن يعرفه عني. ثانياً، فأنا أراقب كل شيء وكل واحد، أحاول أن أعدّد خطتهم واستنتاجاتهم طويلاً قبل أن يفعلوها. لك أن تفهم ما يعنيه هذا، وتضطلع للقيام به في مدينة كبيرة: يزعمون بي كل أنواع الجهل والإجرام. ولا تزال هذه حياتي الوحيدة. تعجني طريقة المدينة وهي تجعل الناس يظنون بأنهم يفعلون ما يهونون ويفلتون به. أراهم عبر المكان كله: البيض الأثرياء، والبسطاء كذلك، يتجمعون في قصور فارغة بعيد تزيينها نسوة سود لتبدو أكثر بذخاً، وكل منهما يستريح لرؤية الآخر على ما هو عليه. رأيت عيون اليهود السود، تطفح بالشفقة على أي امرئ عداهم، يهتمون بمحال الطعام الرخيصة وكواحل النسوة الساقطات، بينما ينثر النسيم أزهار البرقوق البيضاء على خوذات رجال «اليونيا». طفا رجل ملون نازلاً من السماء ينفخ في آلة ساكسوفون، وتحتة، في المساحة ما بين عمارتين، تتكلم فتاة جدياً مع رجل بقبة من القش. يلمس شفتها ليزيل ذرة شيء هناك. فتهدأ فجأة. فيميل ذقنها لأعلى. يقفان هناك. ترتخي قبضتها على شنتتها بينما رقبتها تؤدي انحناءً لطيفاً. يضع الرجل يده على الحائط الحجري مافوق رأسها. يتحرك فكّه على هذه الطريقة، وحين يلتفت رأسه أرى لسانه الذهبي... تنسل الشمس إلى الزقاق خلفهما. وتتكوّن صورة جميلة في طريقها للغروب.

افعل ماتهورى في المدينة. في أطرافها وخباياها لا يهتم ما تفعله. فما يحدث في مساكنهم وساحاتهم وشوارعهم الجانبية هو أي شيء يعتبر به القوي ويعجب الضعيف. كل ما ينبغي عليك أن تفعله هو مراعاة الهدف - الطريقة التي يمهد بها إليك، كونك منتبهاً وتهتم على أي درب تمضي، وربما ماتريده في الغد.

عشتُ زماناً طويلاً، قد يكون مديداً، في رأيي. يقول الناس لا بدّ من خروجي أكثر.

خلط. أوافق أن أختبئ في أماكن أحياناً، لكنك لو تركت - على مثل حالي - مهملاً، بينما شريكك رابض من أجل موعد مع آخر، أو يعد بإعطائك اهتمامه الكلي بعد العشاء، ويروح في النوم مجرد أن تبدأ في الحديث - حسناً، هذا يجعلك غير مضيافٍ لو لم تحذر، وذلك آخر ما أتمناه.

فالضيافة هي الذهب في هذه المدينة؛ عليك أن تقدر بمهارة كم تكون بشوشاً ودفاعياً في نفس الوقت. لو لم تعرف كيف تحب وكيف تهجر، فسينتهي بك الأمر إلى فوضى، أو يتحكم فيك بشيء من الخارج، مثل تلكم الحالة المستعصية بأواخر الشتاء. في النهاية، يجري الشر في الشوارع، خلال الأوقات السارة والمال الوفير، ولا شيء في أمان - حتى الموتى. بدليل تهجم «فيولت» الصريح على مراسم الجنازة في ذلك الحدث القريب. ثلاثة أيام في بداية ١٩٢٦. كان جمهرة من الخلق يترشون ناظرين في العلامات (الطقس، الأيام، أحلامهم الخاصة)، وخمنوا أن ذلك إيذان بكل أنواع الدمار. تلك الفضيحة كانت كأنها رسالة بعثت لتحذير الطيبين وتعنيف الخونة. لست أدري من أشد طموحاً - القائلين بالنصيب أم «فيولت» - لكنه من الصعب أن نمشي الذين يؤمنون بالخرافة لتليل توقعات أكثر.

كانت «أرمستس» في السابعة ذلك الشتاء، حين اخترقت «فيولت» الجنازة، ولا زال المحاربون القدامى يرتدون بزاتهم العسكرية على الطريق السابع، لأن أي شيء كانوا يدفعون ثمنه غالباً لم يثبت سعره، وربما انتهى ما كانوا يفتخرون به عام ١٩١٩. بعد ثماني سنوات، اليوم السابق لفعلة «فيولت» الشنعاء، جاء الجليد هامداً لحظة كان يسقط على «لكسنجتون» وطريق «بارك» أيضاً، فكنا ننظر الحافلات التي تجر بالجياد كي تدكه، عند توزيعها الفحم للأفران في السرايب المجددة. بتلكم المباني العالية ذات الشقق الخمسة أو البيوت الخشبية الضيقة والتي يطرق فيها الناس على بعضهم البعض ليروا إن كانوا محتاجين لشيء أو لينالوا آخر. قطعة صابون؟ قليلاً من الجاز؟ بعض دجاجة أو لحم خنزير لإحياء طعم الحساء من جديد؟ من يستعد زوجها للذهاب كي يرى إن كان ثمة محل مفتوحاً؟ وهل لديه وقت لإضافة زيت التربين بالآجل ثم ترده الزوجات؟

التنفس مؤذ في طقس بارد مثل هذا، ولكن مهما تكون المشاكل حين يحيط الشتاء بالمدينة، فهم يتحملون بعضهم البعض، لأن الأمر يستحق أن تكون آمناً على طريق «لبنوكس» من الجنيت وكل ما يعتقدون فيه؛ وحيث تتغطى الأرصفة بالجليد أولاً، أو هي أوسع من طرق المدن الرئيسية بمكان مولدهم، يمكن للناس العاديين أن يقفوا على الحطة، يركبون الترام، ويعطون للمحصل نيكال السنوات الخمسة، للوصول إلى المكان الذي يرغبون فيه، رغم أنه

لا يسعدك الذهاب إلى كثير من الأماكن، لأن ماتريده موجود فعلاً حيث تكون: الكنيسة، المتجر، الحزب، النساء، الرجال، صناديق البريد (لكن لا مدارس عالية)، معرض الأثاث، باعة الصحف الجوالون، البارات غير المرخصة (لكن لابنوك)، صالونات التجميل، صالونات الحلاقة، الملاهي الرخيصة، عربات الثلج، جامعو الأسماك، صالات البليارد، أسواق الطعام المفتوحة، ماكينة الوزن، وكل ناد، منظمة، جماعة، جمعيات إخوانية، اتحاد، جمعية، نقابة صناع، جمعية راهبات، أو جمعية وهمية. عربات الجرّ، طبعاً، البالية، وهناك مدقات تغزو بها جماعة جماعة أخرى تتصل بمقاطعة ثانية، ظناً منهم أن شيئاً فضولياً أو مثيراً يكمن هناك. أفعال خطف، مدوية، وجبانة. أين يمكنك أن تفرق فليئة وتقرب الكاس بارداً حتى فمك. أين يمكنك أن تمش على خطر أو تكونه؛ أين يمكنك أن تقاتل حتى السقوط مبتسماً للسكين حين تفلت وحين لا تفلت. يجعلك هذا تنتشي بمجرد أن تراه. ومن العجيب أن تعرف أنه في ظهر أحد المباني توجد قائمة يعرف بها زوج من الذي سيصيد محلاً مفتوحاً، كما توجد هناك الملاءات التي يستحيل أن تنشر في المطابخ التي جلدتها الثلج الساقط، وكأنها ستائر مسرحيات مدرسة الأحد الحبشية.

ليس الشباب شباباً هنا، وليس ثمة شيء ندعوه منتصف العمر. إن ستين عاماً، أو حتى أربعين، تتساوى في الإحساس بالانزعاج من العمر. حين يبلغون ذاك العمر أو يصيرون عجائز، يجلسون حول بعضهم البعض ناظرين على ما يدور هناك، حتى لو كان ترام السنوات الخمسة يوم السبت. وإلا يجدون أنفسهم ينحشرون في أمور الناس الذين لا يقدرّون على تذكر أسمائهم وليس لهم أن ينحشروا في أمورهم. يسمعون أنفسهم يتكلمون فحسب، ويسعدهم مراقبة وجوه من يسمعونهم وهي مكروبة، عرفت استثناءات قليلة. بعض كبار السن لا يصفعون الأطفال المشاكسين؛ ويدخرون قوتهم لشيء هام يحتاجونها فيه. مثل تودّد أخير لامرأة ممتلىء بالتبسم وبيع الهدايا. أو رعاية صديق قديم لا يقدر على مجابهة الحياة بدونهم. وقد يصل الأمر بهم أن يتأكدوا من أن الشخص الذي شاركهم حياتهم الطويلة، مع صحبة مبهجة الليلة؛ لديه ما يحتاجه ليلته من الضروريات.

ولكن هناك في «لينوكس» بشقة «جوتريس» و«فيولت»، فإن الحجرات تشبه أقفاص طيرها الفارغة، والملفوفة بالقماش. وقد صار وجه الفتاة الميتة شيئاً ضرورياً لأجل لياليهما. يتناوب كل منهما في إلقاء أغطية الفراش عنه، النهوض عن المرتبة الرخوة، ثم بأطراف أقدامه على مشمع الأرضية الباردة وإلى الصالة للتحديق فيما يبدو أنه الوجود الحي الوحيد في البيت؛ صورة فتاة جريئة، غير مبتسمة، تبرز من رف المدفأة. لو كان الساري على أطرافه «جوتريس»، منقاداً بعزلته من جانب زوجته، يبرز إليه الوجه دونما أمل أو أسى، أو اتهام أيقظه جوعاً من نومه لرفقتها. ليس من إصبع يتهم. ولا تنقلب شفتاها بالحكم عليه. وجهها هادئ، كريم وحبيب. ولو كان الساري على أطرافه «فيولت»، تختلف الصورة تماماً. فيبدو وجه الفتاة جشعاً، متعجرفاً،

وكسولاً جداً. كالقشدة التي بأعلى سطل الحليب. وجه فتاة قشدي لا يؤدّي عملاً مقابل شيء؛ فتاة تُلْقَط الحاجات من فوق مرآة الأخريات ولا تَحْرَج عند اكتشاف ذلك. وجه متسللة إلى حوض الغسيل لنشل الشوكة التي كنت تضعها جنب طبقها. وجه مستغلل - ما يراه هو ذاته الخاصة. أنت هناك، يقول، لأنني أنظر إليك.

مرتان أو ثلاث في أثناء الليل، وبينما يتناوبان إلقاء نظرة على الصورة، ينطق أحدهما باسمها. «دوركا؟ دوركا» فتصير الحجرات المظلمة أشدّ إظلاماً. والصالة تحتاج لإضرام كبريت من أجل رؤية الوجه. خلفاً حجرة الطعام، حجرتان للنوم، المطبخ - كلها تقع بوسط المبنى، ولذلك لا تطلّ شبابيك الشقة على القمر أو النور من مصباح شارع. أفضل نور في الحمام، لأنه بارز عن المطبخ ويمكنه اصطيد أشعة الظهيرة. كان «جو» و«فيولت» قد ربّتا أثائهما بطريفة لا تذكر أحياناً بحجرات «مورن هوم ميكر»، ولكنها تناسب عادات الجسد، والطريقة التي يمشي بها شخص من غرفة لأخرى دونما ارتطام بأي شيء، وما يريد أن يفعله حين يجلس. تعرف كيف أن بعض الناس تضع كرسيّاً أو منضدة في ركن ليبدو لطيفاً لكن لا أحد في العالم يقوم برحلة إليه، فيترك وحيداً هناك؟ لم تفعل «فيولت» ذلك في بيتها. كل شيء موضوع حيثما يتمنى أي واحد أن يجده، أو يستعمله، أو يحتاج إليه. ولذلك لا توجد في حجرة طعامها المنضدة المعروفة بكراسيها الجنازيرة. لديها مقاعد كبيرة غائرة ومنضدة لورق اللعب جوار النافذة عليها كتلة حجر كريم، وشجرة تنين، ونباتات طبية حتى يمكنهم لعب الورق أو «التونك» ما بينهم. والمطبخ رحب بحيث يسع أربعة يأكلون، أو تأخذ زبونة راحتها الكاملة بأثناء ما تقوم «فيولت» بفرد شعرها. الغرفة الأمامية، والصالة، ليست ضائعة أيضاً، فيمكنها انتظار حفل زفاف يليق بها. فيها أقفاص الطيور ومرايا تعكس للطيور صورتها فيها، لكن الآن، بالطبع، لا توجد طيور هنالك، فقد أطلقت «فيولت» سراحهم في نفس اليوم الذي ذهبت فيه بالسكّين إلى جنازة «دوركا». توجد الآن فحسب، الأقفاص فارغة، وتومض المرايا العزلاء عاكسة فيها. بالنسبة للباقى، فهو كنية، وبضع مقاعد خشبية محفورة جنبها مناوئد صغيرة حيث يمكنك أن تضع فنان قهوتك أو وعاء الأيس كريم أمامك، أو لو كنت تريد قراءة صحيفة، يتم ذلك سهلاً بدون أن تتسخ الطيات. رف المدفأة عليه، في العادة، قواقع وأحجار ملوّنة جميلة، لكن ذلك كله قد راح الآن، فوحدها صورة «دوركا منفريد» تحتل المكان في إطارها المفضّض وتوظفهما طوال الليل.

بعض الليالي المضنية تجعلهما ينمان متأخرين، فيكون على «فيولت» أن تعجل في تحضير الوجبة قبل استعدادها لحلاقة الرؤوس. لديها براعة في القص، لكن دونما تدريب تم الإشراف عليه، ولذلك لا تملك رخصة للحلاقة، وهي تتقاضى خمسة وعشرين سنتاً أو خمسين، حسب ما تقتضيه الأحوال، لكن منذ حادثتها في جنازة «دوركا»، تعللت كثير من زبائنها المنتظمت ببعض الأسباب، وكن يقمن بقص شعرهن لأنفسهن أو يجعلن بنتاً لهن تحمّي المكاي. لم يكن «جوتريس» و«فيولت» بحاجة لكيس نقود تلك الحلاقات، ولكن بسبب أن «جو» كان يغيب عن أيام عمله الآن، فكان على «فيولت» أن تحمل أدواتها أكثر وأكثر إلى

شقق قاتلة بالحرّ لنسوة يتيقظن عند الظهيرة، تُصَبّ «الجن» المسكر في شايفهنّ، غير آبهة لما تؤديه. كن هؤلاء النسوة يحتجن واحدة على الدوام لقصّ شعرهنّ، وأحياناً ما تظلم الشفقة أعينهن المشرقة ويعطينها بقشيشاً دولاراً كاملاً. «تحتاجين لتغذية نفسك قليلاً» تقول لها إحداهن «ألا تبغين في أن تكوني أسمى من مكواتك للفتّ الشعر؟».

«اخرسي» تقول «فيولت».

«إني أقصد هذا» تقول المرأة، لانزال ناعسة، مريحة خدّها على راحتها اليسرى، بينما تمسك أذنها باليمنى.

«إن الرجال ينحلونك حتى تصيري قطعة غضروفٍ رقيقة، لو سمحت لهم»
«نساء» تردّ «فيولت». «النساء يضعفنني. مامن رجلٍ أضعفني مقابل شيء. هن هؤلاء الفتيات الصغيرات الجائعات يتصرّفن كنساء. لا يسعدن الأولاد من نفس سنهنّ، لا، فيردن شخصاً كبيراً يمكن أن يكون لهنّ أباً. يدرن بالزوج، والجوارب الكاشفة، وملابسهن لأعلى إلى ماعرفين...»

«حاسبي أذني - فتاة! - لسوف تكونينها؟»

«أسفة. أنا أسفة. حقيقي، حقيقي أسفة» وتكفّ «فيولت» حتى تتمخّط وتمحو الدموع بظهر يدها. «أوه، الشيطانة» تومئ المرأة، منتهزة فرصة السكون لتشعل سيجارة. «أريد منك الآن أن تسترسلني في حكاية تلك القصة الكريهة القديمة، كيف عبث فتاة صغيرة بك، وكيف أنه -هو- لم يلام لأنه -هو- كان يسير في الشارع مهتماً بشئونه - هو، حين اعتلت هذه الفرج الصغيرة ظهره وجرتّه إلى سريرها. خذي نفسك. فقد تحتاجينه على فراش موتك». «أحتاج نفسي الآن». تختبر «فيولت» المشط الساخن. فيلسع الصحيفة طابعاً إصبعاً بنيةً طويلة.

«هل رحل؟ هل هو معها؟»

«لا. لانزال سوياً. هي ماتت»

«ماتت؟ إذن مالك؟»

«يفكر فيها طول الوقت. لاشي في باله سواها. لايعمل. لايمكن أن ينام. مآسٍ طوال

النهار وكلّ الليل...»

«آه» تقول المرأة. تطرق النار من سيجارتها، فيذوي الطرف وتضع العقب بحذرٍ في الطفاية. تنحني ثانية في الكرسيّ، تضغط حافة أذنها بإصبعين. «عندك مشكلة» تقول، مثابّة. «مشكلة عويصة. لانستطيعين أن تنافسي الموتى لأجل الحبّ. تخسرين كل مرة».

توافقها «فيولت» على ذلك؛ ليس فقط إنّها خسرت «جو» مع الفتاة الميتة، بل ترتاب في أنّها قد تكون أحبّها كذلك. عندما لا تحاول أن تخزي «جو» يعجبها شعر الفتاة الميتة؛ عندما لاتنسب «جو» بكلمات لعينة من نوع جديد، تتجاوز بهمسٍ مع الجثة في رأسها؛ عندما لاتقلق بخصوص فقدانه الشهية أو أرقه، تتساءل عن لون عيني «دوركا». خالتها قالت «بني»، وعاملات التجميل قلن «أسود»، لكن «فيولت» لم ترى أبداً فتاة لها بشرة فاتحة بعينين سوادهما فاحم.

شيء وحيد، بالتأكيد، كان ينقصها، تسوية أطراف شعرها. في الصورة وما تذكره «فيولت» من التابوت، فقد كان ينقص الفتاة تسوية أطراف شعرها. شعر بهذا الطول لابد أن يكون هشاً جداً. ومجرد تشذيب ولو ربع بوصة كان يفعل الأعاجيب، «دوركا». «دوركا».

ترك «فيولت» بيت المرأة النعسانة. الثلج نصف الذائب عند الإفريز يتجمد ثانية، ورغم أن أمامها سبع كتل من الثلج، فهي تمتن للزبونة التي لا تحيى لمطبخها بميعاد قص قبل الثالثة، فيتوفر لديها وقت قليل لشغل البيت. بعض أعمال تحتاج للإيجاز حيث من المحال ألا تجد شيئاً لتنجزه. لارتتيب في الطلبات، قائمة من المهمات. ربما ترنح يديها في الهواء، أو ترتعش لو لم تتمكن من وضع يدها في شيء من العمل اليومي كمثل الانحناء على هذا الذي تؤديه. تشعل الفرن لكي تدفئ المطبخ. وبينما كانت ترش ياقة قميص أبيض كان عقلها على رجل السرير، حيث القائم المخلخل بعيداً عن دعامة، مفروجا تماماً بحيث يصعب تثبيته ثانية. حين تحيى الزبونة، وترغى شعرها الرمادي النحيل، تتمتع العجوز بين ثنايا أسرارها «على مهلك»، فتعيد «فيولت» وضع الرباط الذي يمسك بباب الفرن إلى مفصلته، وتكرر دعوى بقاء ثلاثة أيام على بداية الشهر حيث يأتي جامع الإيجار. تفكر في أنها تنوق لراحة، ذات ظهيرة مبهجة، تذهب فجأة للسینما، أو مجرد جلوسها مع أقفاص الطير تنصت للأطفال وهم يلعبون في الثلج.

نزوة الراحة هذه، جذابة إليها، ولكني لا أظن بأنها ستحبها. كلهن على هذا، هؤلاء النسوة. يترقبن راحة البال، المساحة التي لا تحتاج لامتلاء من أي نوع فضلاً عن الانجراف خاصة أفكارهن. لكنهن لن يحببنها. فهن مشغولات ويفكرن بطرق تجعلهن أكثر انشغالا، لأن مساحة الفراغ هذه الضاغطة ربما تصرعهن. لاحقول من زهر ربيع أرج سوف تدفق من تلكم الفجوة، ولا الصباحات تخلو من ذباب وحر عندما النور يكون حياً. لا. لا على الإطلاق. فهن يملأن بالهن وأيديهن بصابون وتصلح ومواجهات متورطة، لأن ما يترقبهن، في لحظة تراخ فجأة، هو نزو الهياج. منصهرات. حركة بطيئة وكثيفة القوام. مشغولات البال ومستقلات عما في طريقه يختار أن ينظمر. أو، كذلك، في دق الزمان، وتحت صدورهن من الجنين، ينساب حزن ولا يدرين من أين. جارة ترد ملف الخيط الذي استلفته، وليس الخيط فقط، بل الإبرة الطويلة أيضاً، وكلاً منهما تقف على حلق الباب ريثما تكرر المستلفة للمقرضة حواراً مرحاً كان لها مع امرأة الطابق الأسفل؛ مرح هو الحوار فتضحكان - إحداهما عالياً بينما تمسك بجبهتها، والأخرى بطريقة خشنه حتى لتؤدي معدتها. والمقرضة تسك الباب أخيراً، لاتزال مبتسمة، وتلمس طية صدر سترتها وإلى عينيها لتمسح آثار الضحك تماماً، ثم ترتمي على الكنبه فتهلل الدموع سريعاً جداً حتى أنها تحتاج اليدين معاً لتصطادها.

على هذا المنوال، كانت «فيولت» ترش الياقات والأساور. ثم ترغى بكل عزمها الثلاث أو الأربع أوقيات من شعر تلك العجوز الرمادي، كان طرياً وشيقاً كشعر الوليد.

ليس من نوع شعر وليد جدتها، فقد غسلته بالصابون ولعبت به وتذكرته لمدة أربعين عاماً. شعر الوليد الصغير الذي اتخذ اسمه منها. ربما ذلك السبب في أن «فيولت» كانت كواف - نائج كل تلك السنين من الإنصات لجدتها المنقذة، «ترويليه»، وهي تقص حكايا «بلتيمو» سنواتها مع مس «فيرالويز» في ذلك المنزل الحجري البديع على شارع «إديسون»، ولا شيء تفعل سوى تربية وعبادة الولد الأشقر بفانلته المطرزة بالخيط الأزرق، والذي هرب منهما (*) حارماً إياهما من شعره المحبوب الذي كانا يرعياه.

كان القوم مهتاجين حينما اخترقت «فيولت» الجنازة، لكنني لا أصدق أنهم كانوا مستغربين. فطويلاً، من وقت طويل قبل هذا، حتى قبل أن وضع «جو» عينيه على الفتاة، ذا يوم، جلست «فيولت» وسط الشارع. لم تزل بها قدم أو دفعها واحد: جلست فقط بعد دقيقتين جاء لها رجلان وامرأة، لكنها لم تتبين السبب أو ما قالوه. جرب شخص أن يعطيها ما: لتشرب، فرمت به بعيداً. ركع شرطي أمامها فتدحرجت على جنبها، وغطت عينها. كان يمكن أن يأخذها إلى المخفر، لكن حشداً كبيراً كان يتدمر «إنها متعبة، أو. دعها لتتراخ». حملوها إلى أقرب درج. يبطء أفاق، نفقت ملابسها، ووصلت لموعدها متأخرة ساعة، فأسعدت فقط البغايا المثنيات، اللواتي لا يستعجلن شيئاً سوى الجِماع.

لم يحدث ذلك - جلوس الشارع - مرة أخرى بقدر مانما لعلمي، فقد حاولت أن تسرق الوليد بهدوء، رغم أنه لا طريقة لإثبات ذلك. وما هو معروف هكذا: نساء «دمفري» - الابنة - كانتا متغيبتين عند وصول «فيولت». إما أنهما قد خلطتا اليوم، أو قررتا الذهاب لصالو التجميل المرخص - فقط لمجرد الشامبو، محتمل، حيث تشطف أغوار الشعر في حوض حمام. توصلت عاملات الصالون لهذا بما يلي: عليك أن تضطجعي للخلخلة بدلاً من الانحناء أماماً، ولم يكن ضرورياً أن تضغطي على عينيك بفوطة لطرد الماء المصبين لأنه يصرف لأسفل من رأسك إلى الحوض. ولذلك، حتى لو لم تكن عاملة الصالون المرخص لها حاذقة مثل «فيولت» فإن الزبونة المنتظمة تنسل إلى المحل فقط من أجل متعة شامبو مريح.

إن حلاقة رأسين في مكان واحد تكون من حسن الحظ، وقد كانت «فيولت» لهذا السبب تتطلع لميعاد الحادية عشرة. حين لم يرد أحد على الجرس، انتظرت، وظننت أن ربما قد عطلتها السوق. وبعد وقت ما، جربت الجرس ثانية، ثم انحنيت على الدرايزين الإسميت لتس امرأة تغادر المبنى إن كانت تعرف أين نساء «دمفري». هزت المرأة رأسها لكن رجعت لتساعد «فيولت» في النظر على النوافذ والاستخبار عنهما.

«ترفعان الستائر عند العودة» قالت «وتسدلانهما حينما ترحلان. ما ينبغي هو العكس». ربما ترغبان في النظر للشارع عند العودة» قالت «فيولت». «النظر لماذا؟» سألت المرأة. غاضبة على الفور. «لنور النهار» قالت «فيولت». «تجعلان بعضاً من نور النهار يدخل هناك». «بل تحتاجان للعودة إلى بلدتهما «مفيس» لو كان نور النهار هو ماتريدانه».

(*) من أمه البيضاء «فيرالويز» وخادمتها السوداء «ترويليه»، بحثاً عن أبيه الأسود. (المترجم).

«مفيس؟ كنت أظن بأنهما مولودتان هنا» .
 «ذلك ما يجعلناك تعتقدينه . لكنهما ليستا من هنا . ولاحتي من «مفيس» . من
 «كوتاون» . مكان لم يسمع به أحد» .
 «سأكون أنا هذا الأحد» قالت «فيولت» . مندهشة للغاية ، لأن نساء «دمفري» سيدتان
 جليلتان ، تمتدنتان ، أبوهما كان يملك متجرأ في الشارع ١٣٦ ، وهما بنفسيهما كان لهما
 وظائف لطيفة بالتعامل مع الأوراق : واحدة تقطع تذاكر في «لافايت» ؛ والأخرى تعمل بمكتب
 محاسبة . «لم تكونا تحبان ذلك يعرف» استمرت المرأة . «لم ؟» سألت «فيولت» .
 «ذل ، ذاك السبب . يأتي من التعامل مع المال طول النهار . أتلاحظين ؟ كيف أن الذين
 يتعاملون في المال لكسب القوت يصبحون مروعين ؟ لأنه يخص غيرك لا لك ؟» مصمصة
 بشفتيها عند النظر على التوافذ المسدلة «نور النهار خطوتي» .
 «طيب ، فأنا أقص شعرهما كل ثلاثاء آخر واليوم ثلاثاء ، صحيح ؟»
 «طول النهار» .
 «غريبة ، أين تكونان إذن ؟» . زلقت المرأة يداً تحت جونلتها لتشد أعلى جوربها «خرجتا .
 لمكان تبدوان فيه كأنهما من غير كوتاون» . «وأنت من أين ؟» تأثرت «فيولت» من قدرة المرأة على
 إحكام جوربها بيد واحدة .
 «كوتاون . عرفتُ كلاً منهما في طريق الرجوع . وحين الوصول هنا ، تصرفت كل العائلة
 كأنها لم ترني من قبل . ربما سبب هذا التعامل مع المال بدلاً من المقشّة التي اعتدت عليها قبل
 فقدانها هذه الوظيفة التي لا تحسب . يايوسع» . تنهدت بثقل . «اتركي رسالة ، لم لا ؟ لاتعتمدني
 عليّ أن أعرفهما بأنك جئت هنا . فنحن لاتحادث معهما إلا في الضرورة» . زوّرت معطفها ، ثم
 لوحّت بيدها تعني افعلكي مايدالك حين قالت «فيولت» بأنها ستنتظر قليلاً .
 جلست «فيولت» على السلالم العريضة معشّة حقيبة مكاويها والزيت والشامبو في
 المساحة خلف ريلتي ساقها . حين كان الوليد بين ذراعيها ، شدّت بطانيته لأعلى حول خديه
 تتقى تهديد ريح باردة من أجل الجيب العسلي ، بوجهه القشدة . تحديقته الملتبس بعين كبيرة
 يجعلها تبسم . فمهّدت راحة لنفسها في معدتها بنوع من الوثب ، كمثل نور فياض يسافر
 بأوردتها .
 ظنّت أن «جو» سيحبّ هذا . يحبه . برح بها الخيال نحو حجرة نومهما وما يمكن
 استخدامه فيها كمهد حتى تحصل على آخر حقيقي . وهناك بالفعل صابون ملطّف في شنطة
 عينة «جو» ، فيمكنها أن تحمّمه بالمطبخ حالاً . ولد ؟ هل ولد ؟ رفعت «فيولت» رأسها إلى
 السماء ، ثم ضحكت بانفعال مخزون عند عودتها لتتظر . كانت ضحكة -سائبة وصاخبة-
 أكّدت السرقة عند البعض ، وكذبها لدى آخرين . هل أن لصّة - غادرة تسرق وليداً تسترعي
 الانتباه لنفسها على هذا النحو في زاوية لاتبعد مائة ياردة عن عربة الأطفال الشريرة التي خطفته
 منها ؟ هل أن امرأة بريئة القلب تقوم بجولة مع وليد تطلب أن يشاهدها بينما أختها الأكبر
 تجري عائدة إلى البيت ، وتضحك هكذا ؟

كانت الأخت تصرخ أمام بيتها، فتسحب الجيران والمارة نحوها أثناء ما كانت تمسح النظر في المفارق - جيئة وذهابا - نائحة «فيلي! راح فيلي!». وضعت يدها على مقود عربة الوليد، ولم تعزم على الجري في أي طريق تخط عليه نظرتها، كما يتفق؛ لو كانت تركت عربته خالية إلا من الاسطوانة التي أسقطتها فيها - الاسطوانة التي اندفعت إلى المنزل من أجلها، والموضوعة الآن على المحدة التي يفترض بأن يكون عليها أخوها الوليد - فلربما اختفت العربة أيضاً.

«هي من؟» سألها واحد «من أخذته؟»
«امرأة! رحت دقيقة واحدة. ولا حتى دقيقة! طلبت منها... قلت... وهي قالت ماشي...!»

«تركت وليداً حياً مع غريبة لتذهبي لإحضار اسطوانة؟» فجلب الاشتمزاز في صوت الرجل دموعاً إلى عيني الفتاة «ياسلام لو ماما تقطعك». آراء وقرارات، طفرت من بين الحشد كإضرام كبريت.

«أنت عندك إحساس بعوضة.»

«من رباك على السوء؟»

«استدعوا الشرطة.»

«لماذا؟»

«يمكن تشوف على الأقل.»

«بصوا من أجل ماذا تركت ذاك الوليد.»

«ماذا؟»

«ترمبون بلوز» (★).

«الرحمة»

«ستعرف الحزن على حق أكثر من أي آلة ترمبون حين ترجع أمها للبيت.»

هاجت زمرة الناس القليلة أكثر وأكثر، على الأخت الغبية، الأخت غير المسئولة، وعلى الشرطة، وعلى الاسطوانة الموضوعة في مكان الوليد، وأوشكوا على نسيان الخاطفة حين قال رجل عند منحني الطريق «هي هذه؟» وأشار إلى «فيولت» في الزاوية، فكان أن استدار الجميع حيث كانت تشير إصبعه، دغدغتهم لذة اكتشافها حيث كانت على الفور، ترمي برأسها للوراء وتضحك في صخب. كان يرقد برهان براءتها في حقيبة أدوات الحلاقة، والتي ظلت على السلم حيث كانت «فيولت» تنتظر.

«هل كنت أترك شنطتي، بما أنال رزقي منه، لو أنني كنت أسرق وليدكم؟ تظنون بأنني مجنونة؟ وكانت عينا «فيولت» تومضان بالشرر وتدخنان بالغضب، تحدق مباشرة في الأخت. «في الحقيقة، كنت أخذ كل شيء. العربة أيضاً، لو كنت أفعل هذا.»

(★) اسطوانة زنجية بالة الترمبون، لحنها حزين. (المترجم)

بدا ذلك حقيقياً ومحتجلاً بالنسبة لمعظم الحشد، خصوصاً لأولئك الذين خطأوا الأخت. تركت المرأة حقيبتها وكانت تمشي الوليد ريشماً تجري أخته الأكبر - من السخف أن تعهد بالطفل لأي كان - عائدة لمنزلها لجلب اسطوانة تعزفها لصديق. وما أدراك ما الذي دار برأس فتاة مغفلة تماماً وهي تراقب وليداً ينام؟

وبدا للأقلية بأن ذلك لا يُحتمل ومشكوك فيه. لماذا إذن سارت لبعيد، لو كانت فقط تلاعب الوليد وتهزهزه؟ لماذا لم تنتقل أمام البيت كما المعتاد؟ ولماذا ضحكها كان هكذا؟ مانوعة؟ لو أنها تضحك على هذه الشاكلة دوماً، فهي لن تنسى حقيبتها فقط، بل الدنيا بحالها. عوقبت الأخت، وأخذت الوليد وعربته واسطوانة الترمبون، عائدة للبيت.

كانت «فيولت» ظافرة وغاضبة، انتزعت حقيبتها، قائلة «آخر مرة أؤدي لأي واحد خدمة من هذه العمارة. راقبوا صغاركم الملاعين!». وظلت تفكر على هذا النحو فيما بعد، وتذكر الحادثة كانتهاك لشخصها. ورحل عن بالها المهد المؤقت والصابون الملطف. لكن ذكرى النور، على أي حال، الذي وثب خلال أوردتها، لاتزال تعودها بين حين وآخر، وفي مرة، ذات نهار معتم، كانت زوايا معينة بالحجرة تقاوم نور اللبنة، فبدت حبات الفاصوليا الحمراء بالوعاء وكأنها ستأخذ دهرأ حتى تنطري، عندما تصورت البهاء الذي كان يمكن أن تحمله في ذراعها. وانزعجت بحاجتها لأماكن معتم كقاع بئر.

لم يكن «جو» يعرف أبداً نوبات جنون «فيولت» العمومية. وقد عبر «ستوك» و«چيستنان» (*) - وآخرون - بكلمة عن هذه الحادثات مع بعضهم، لكنهم لم يقدروا على الإذعان بحكاية شيء أكثر من «كيف حال «فيولت»؟ على مايرام، هكذا؟». وعلى العموم، فإن انهياراتها الخاصة، كانت معروفة لديه.

أسميها انهيارات لأنها كانت كذلك. ليست ثغرات أو لحظات ضعف، بل صدوع مظلمة في نهار العالم المنير. فهي تصحو صباحاً وترى بوضوح تام خيوط مشاهد صغيرة تنكشف أمامها. بل خيط شيء خاص يتم أداؤه: أشياء الطعام، أشياء العمل، الزيونات والمعارف متقابلين، وأماكن ستدخلها. لكنها لاترى نفسها تؤدي هذه الأشياء. تراها وهي منجزة. نور العالم يقبض ويحتم كل مشهد، ومن المفترض بأن نجد الأساس الصلب عند المنحنى حيث يثبت النور. في الحقيقة، لا أساس هناك على الإطلاق، بل أزقة، تعوق من يخطو عبرها طول الوقت. لكن نور العالم غير تام كذلك. عند التمحيص، تظهر الشقوق، والصدوع بأسفلت واه، وأماكن مريضة خلف ماهو أي شيء. أي شيء على الإطلاق. وعندما لا تتنبه «فيولت» أحياناً تنزل باتجاه هذه الصدوع، كهذه المرة، فبدلاً من أن تضع كعبها اليسرى أماماً خطت للخلف، وانثنت ساقاها لتجلس في الشارع.

(*) أصدقاء مقربون لـ «جو» في نفس السكن. (المترجم).

لم تكن على هذه الطريقة. كانت فتاة مفعمة بالحياة، وذات عزم، وامرأة شابة مجتهدة، بلسان نهّاز للإشاعة كعاملات صالون التجميل. أرادت أن تنال هدفها، وقد نالت. اختارت «جو» ورفضت أن تعود لموطنها ذات يوم حين رأيته يتشكل منتظراً في بواكير النور. واصلت في طريقها معه، فخرجت من حيّ «تندرلوان» إلى شقة أرحب بأعالي المدينة كان المالك قد وعدبها عائلة أخرى ترددت عليه. كانت تكتسب زبائنهما بالذهاب مباشرة إليهن وتصف خدماتها «يمكن لي أن أقصّ شعركن أحسن وأرخص، وأفعل هذا في أي وقت وأي مكان ترغبين فيه» وكانت تجادل الجزارين وباعة لحم الخنزير من البدء حتى النهاية «ضع نهاية تلك القطعة الصغيرة. أنت تزن لي بقايا؛ هل أبتاع الورق». وقد زلت «فيولت» في صدع أو اثنين، من زمان طويل قبل وقوف «جو» في الصيدلية المتجربا راقب فتاة تشتري النعناع. كانت «فيولت» تحسّ بشيء مافي فيها. فعلمت الكلمات ببعضها فقط وهي تردّ على تعليق عاديّ بدرجة ما.

«لا أظنّ اليوم الثامن كان بهذا الشهر» قالت هي، بينما كانت تحسب توافقات الرقم العادية «لا أحد يقصد أن يلتقي صدفة، ولذلك أعلّق الثمانية على كل شيء».

«لامهرب أمامنا للعب» يقول «جو». «انضمي لكومبو(*)» وظلي فيها.

«لا. إن يوم ثمانية هو المهم، أعرف هذا. كان ذلك يظهر عبر المكان كله في أغسطس، بطول الصيف، في الحقيقة. والآن، تجهّز للخروج من الاختيار».

«علي هواك». وتفحص «جو» عينة من مستحضرات كليوباترا.

«خذ بالك أن ذلك يتضاعف صفرأ أو اثنين أو ثلاثة، فقط لو وقفت هذه البنت الجميلة بجوارك؟» وتطلعت إلى «جو» ترتقب ردأ.

«ماذا؟» يعبس. «قلت ماذا؟»

«أوه» تعامى عنه «فيولت» بسرعة. «لا شيء. أقصد... لا شيء».

«بنت جميلة؟»

«لا شيء، جو. لا شيء».

تقصد أن لا شيء تفعله نحو ذلك، لكنه كان شيئاً ما. شيئاً هيناً، لكنه مزعج. مثلما سألتها مس «هاي وود» ذات مرة، متى يمكنها أن تقصّ شعر حفيدتها، وردت «فيولت»: «الثانية بالضبط لو كانت عربة الموتى في الخارج».

لم يكن الخلاص بنفسها من تلكم الانهيارات صعباً للغاية، فما من أحد كان يضبط عليها. هل كنّ يضغطن عليها؟ ربما. ربما، فلكل واحدة لسان خائن يتوق لأن يكون على سجيته. تصمت «فيولت». تتكلم أقلّ، وأقلّ، حتى أن «أه» أو «الرحمة» تحمل تقريباً كل دورها في الحوار. أقلّ عفوية من فم شكس، كانت اليد التي أمكنها أن تعثر على سكين قد ضاع منذ

(*) فرقة جاز صغيرة، أو فرقة رقص. (المترجم)

أسابيع في قفص البيغاء، ولا تزال «فيولت» كما هي، الصموت. وكانت سكنتاتها عبر الزمن تضايق زوجها، تلغز له، وفي النهاية تكتبه. لقد تزوج من امرأة تتحدث أساساً مع طيورها. أحد هؤلاء يعيد ترديد «باحبك»



أو اعتادت ذلك. عندما رمت «فيولت» بالطيور بعيداً، جعلها ذلك دون رفقة الكناريات واعتراف البيغاء، بل أعوزها أيضاً روتين تغطية أقفاصها، وكانت هذه العادة قد أصبحت أحد الأشياء الضرورية عند الليل. الأشياء التي تساعدك عبر الطريق إلى النوم. عمل قاصم للظهر قد يؤدي لذلك، أو شراب مسكر. وبالتأكيد فهو هناك، ذلك الجسد - الودود إن لم يكن الأليف - راقد بجوارك. شخص ماتكون لمسته إعادة طمأنة، لا إهانة أو إزعاج. تنفسه الثقيل غير ساخط ولا مشمئز، بل يسرُّه وكأنه لحيوان بيتي مدلل. والطقوس تساعدك كذلك: سك الباب، ترتيب الأشياء، تنظيف الأسنان، تصفيف الشعر، بل كل ذلك كان تمهيداً لأشياء ضرورية حقاً. إن معظم الناس تريد أن ترتطم بالنوم. فكن كمن يدق عليه بقبضة من تعب كي تتجنب ليلة صمت مزعج. أقفاص الطير فارغة فهي ليست بحاجة لأن تكون ملفوفة بقماش. فتيات غير باسمات جريشات تحملن من رف المدفأة.

بالنسبة لـ «فيولت»، التي ما عرفت الفتاة قط، فقد كانت صورتها وشخصيتها التي اخترعها تنبني على تحقيقات دقيقة، ذكرى الفتاة علة هذا البيت - في كل مكان وبلا مكان. لا شيء هناك لدى «فيولت» كي تهزمه أو تصدمه، وعندما يتوجب عليها ذلك، أن تقاتله فحسب وإلى حد ما، فليس إلا قشة أو أثراً لصورة.

لكنه وبالنسبة لـ «جو» فالأمر مختلف. لأن هذه الفتاة كانت حاجته الضرورية الليلي ثلاثة أشهر. فهو يسترجع ذكرياته عنها؛ كيف أن تفكيره فيها - بينما يرقد في الفراش جنب «فيولت» - هو الطريقة التي يدلف بها للنوم. يعهد إلى موتها، ويتأسف على ذلك للغاية، لكنه يتأثر أكثر من فشل ذاكرته في تمثيل الهيام. ويعلم أن ذلك سوف يشحب باستمرار، من حيث بدأ بتلك الظهيرة التي اصطاد فيها «دوركا». بعد أن قالت أنها تريد جزيرة «كوني» وأن تؤجّر حفلات والمزيد من المكسيك. حتى ذلك الحين كان يتشبث بنوعية جلدها السكري، بالشجيرة الوحشية العالية التي تكونها مخدات السرير لشعرها، بأظافرها المعضوض، بطريقة وقوفها التي تفتطّر القلب، بأقدامها المسحوبة. حتى ذلك الحين، كان ينصت لكلامها، للأشياء الفظيعة التي حكّتها، وقد شعر بأنه خسر جرس صوتها وما كان يحدث لأجفانها حين كانا يفعلان الحب.

يرقد الآن في الفراش مسترجعاً كل تفصيلة من ظاهرة أكتوبر تلك حين قابلها لأول مرة، من البدء حتى النهاية، مرات ومرات. ليس لمجرد طعمها اللذيذ، بل لأنه يجرب أن يحجرها في باله، يطبعها هناك ضد بلى قادم. ولن تكون هي أو عشقها شاحبين أو أجريين مثلما حاله مع «فيولت». لأن «جو»، وهو يحاول تذكر الطريق الذي ولّى حين كان هو و «فيولت» شباباً، حين تزوجا، وقرر الرحيل عن مقاطعة «فسبر» والانتقال شمالاً إلى المدينة؛ لا شيء يأتي على باله حينذاك. يعيد بالطبع استدعاء التواريخ والأحداث والمشروعات والحيوية، وحتى المشاهد. لكنه يحاول اصطياح ما كان يشعر به في ذلك الوقت العصيب.

لقد جاهد طويلاً تلك الخسارة، وظن بأنه قد راض نفسه على ذلك، ووفقاً لحقيقة أن السنّ المعجوز لا يمكنه من تذكر الأشياء على النحو الذي كان يشعر به حينذاك. فيمكنك أن تقول «كنت خائفاً حتى الموت» لكنك لا تقدر على أن تستعيد الخوف. ويمكن أن تتمثل في الذاكرة مشهد نشوة، قتل، حنان، لكنه ينقضي مع كل شيء إلا ما تقوله فيه من لغة. ظن بأنه وفق لذلك، لكنه كان مخطئاً. حين نادى على «شيل» ليسلمها طلبية كليبواترا، دخل غرفة ملأى بنساء صاحكات، صاحبات - وهناك كانت هي، واقفة عند الباب، تمسكه لتفتح له - نفس الفتاة التي أذهلته في الصيدلية المتجر، الفتاة التي تبتاع النعناع ذات الجلد المدمر الذي أثاره فاحترقت عيناه. وعلى حين فجأة، هناك، بمدخل «أليس منفريد»، كانت تقف، أصابع قدميها مسحوبة، شعرها معقوص، غير باسمه، لكنها ترهب به للدخول طبعاً. طبعاً. وبطريقة أخرى لم يكن لديه الجلد أو الجراءة في أن يهمس لها عند الباب حينما غادر.

امتاز فجأة بعدوانية شبة لم يكن معتاداً عليها أو كان بحاجة إليها من قبل. أزيز الرغبة التي صعدت بهمسته طويلاً خلال الباب الذي سكته، بدأ يمشطه. في البداية كبحة، متلذذاً بمعرفة أنها هناك، ثم سرحه لكي ينشعب فيعجه على مهل. لم يحن للفتاة أو كان تائقاً إليها، رغم تفكيره فيها، وقرر. حين قرر وضع اسمه على شجرة الجوز التي نام فيها مع «فكتوري»، كانت قطعة الأرض تحتها، وحين أدار وجهته للمدينة، صمم على «دوركا». بالنظر إلى زواجه من «فيولت» - لم يكن قد اختار ذلك، لكنه كان ممتناً له في الحقيقة، فهو لم يكن بحاجة إليه؛ لكن «فيولت» فعلته من أجله، ساعدته في مطاردة طير «السمنة المغرد» بالمقاطعة، وصاحبهما صمت معتق لذلك.

تقابلا في مقاطعة «فسبر»، بولاية فرجينيا، تحت شجرة جوز. كانت تعمل في الحقول كأبي شخص آخر. وأمام زمان مسروق، لبثت تحيا مع عائلة على بعد عشرين ميلاً منها. كانا يشتركان في معرفة الناس، بل ربما تشك في قرابة ما بينهما. كانا في صحبة دائماً لأنها وضعا معاً، وكل ما قرراه بنفسيهما هو متى وأين يتقابلان ليلاً.

رحل «جو» و «فيولت» في عام ١٩٠٦، عن تيريل، وهي محطة سكة حديد عبر مقاطعة «فسبر»، وصعدا إلى قسم الملونين بقطار «سوزن سكاي». حين أرعد القطار مقترباً من المياه

الحديقة بالمدينة، ظناً أن ذلك كحالتهم: كانا متوترين لوصولهما هناك أخيراً، بل ومرتابين مما يدور على الجانب الآخر. شغوفين، خائفين قليلاً، لم يأخذهما النوم طوال أربع عشرة ساعة في سفر أقل نعومة من مهد هزاز. العتمة السريعة في العربات حين انطلقت عبر النفق جعلتهما يتساءلان مالو كان حائط هناك سيرتطمان فيه أو كأن منجرفاً يتعلق على لاشيء. عند هذه الفكرة ارتجف القطار بهما لكنه استمر ولايد أنه ارتطم هناك أماماً لأن الارتجاف صار رقصاً تحت أقدامهما. وقف «جو» وانقبضت أصابعه على الحقائق المعلقة فوق رأسه. شعر بالرقص أخفّ بتلك الطريقة، فأخير «فيولت» بأن تفعل نفس الشيء.

كانا معلقين هناك، زوجان ريفيان شابان، ضاحكان يُنقران على وقع القطار، عندها جاء الناظر، كان سعيداً لكنه غير مبتسم، لأنه لم يكن في حاجة للابتسام في هذه العربة المملوءة بالملونين.

«الإفطار في عربة الطعام. الإفطار في عربة الطعام. صباح الخير. إفطار كامل في عربة الطعام». أمسك بطاينة العربة ومن تحتها تسحب زجاجة جالون الحليب، وضعها في يد امرأة شابة معها وليد نائم على ركبته. «إفطار كامل».

لم يكن على سجيته تماماً، هذا الناظر. أراد من العربة كلها أن تصطف إلى ديوان الطعام، الآن ويقدر ما يمكن. على الفور، الآن، لأنهم كانوا يخرجون من «ديلاوار» ويتعد الطريق عن «ميريلاند» فلم تكن هناك ستائر خضر في لون السم لتفصل الملونين الذين يأكلون على بواقي الطاعمين. لم يشعر الطباخون بالتزام تقديم حصص إضافية على الأطباق أمام الستارة؛ ثلاث شرائح ليمون في الشاي المثليج، قطعتان من كعكة جوز الهند ترتبان لتبدوا كواحدة، وكبي يخرج الترياق من سم الستائر، يضيفون قليلاً من الطعام في الطبق - والآن، يدورون حول المدينة، وليست هناك ستائر خضر؛ كل العربة مملوءة بالملونين وكل من جاء أولاً يخدم أولاً كقاعدة. لو فقط أمكنهم ذلك. لو فقط أمكنهم رفع صناديقهم الصغيرة وسلالهم من تحت المقعد، يغلقون أكياسهم الورقية، المرة، ويردون شرائح الخنزير المقددة إلى القماش التي كانت ملفوفة فيها، ويحتشدون رتلاً طويلاً خلال العربات الخمس رأساً إلى عربة الطعام، حيث أنه على الأقل كان مشمّع المائدة أبيض مثل الملاءات التي جففوها على شجيرات العرعر؛ وحيث كانت فوط المائدة مطوية بتجميع صلبة كالتي قاموا بكيها لعشاء الأحد؛ وحيث كانت صلصة اللحم ظريفة كالتي يعملونها، فلم تتخذ الشرائح مكانها جنب شرائح الخنزير المقددة في القماش. حدث ذلك مرة. امرأة بحذاء جيد مع فتاتين صغيرتين، رجل من نوع الواعظ بساعة مسلسلة وقبعة مطوية الحواف، ربما يقفون ليعدلوا ملابسهم ويشقوا طريقهم عبر العربات تجاه الموائد، ييص كالزبد بشوك وسكاكين فضية ثقيلة. يشرفون وينتظرون جوار رجل أسود لم يكن في حاجة لجلد كرامته بابتسامة.

إن «جو» و «فيولت» لم يفكرا في ذلك - دفعا حق الوجبة التي لم تفتحها وقد تطلب

هذا منهما الجلوس ساكنين، أما الأسوأ، فكان أن فصلتهما المائدة. ليس الآن. لن يدخلنا إلى آخر المدينة وهما يرقصان على طول الطريق. عظام وركها احتكت بفخذة بينا كانا يقفان في المشى غير قادرين على كَف الضحك. لم يكونا هناك بعد وعلى التو كانت المدينة تتحدث معهما. كانا يرقصان. وكمثل مليون من الآخرين، فإن الصدور تخفق، وتنظم الدقات بالقطار خطوهما، حدقا من النوافذ لأول لمحة من المدينة التي تراقصت معهما، مبرهنة على مقدار حبها لهما. وكمثل مليون آخرين، لم يكونا قادرين على الانتظار حتى يصلا إلى هناك ويردا لها الحب.

أبطأ البعض بشأن ذلك، وقد سافروا من «جورجيا» إلى «ألبانيا»، إلى المدينة، عائدين إلى «جورجيا»، خارجين إلى «سان دييجو»، وأخيراً، يهزون رؤوسهم، مسلمين أنفسهم للمدينة. علم آخرون يقيناً بأنها كانت لهم، هذه المدينة وليس غيرها. أتوا إليها في نزوة لأنها كانت هناك، ولم لا؟ لقد أتوا بعد طول تخطيط، خطابات عدة أرسلت واستلمت، للتأكد والمعرفة كيف وكم تكلف وأين. أتوا في زيارة ونسوا أن يعودوا إلى قطن طويل أو قصير. يتعلقون بها لوهلة، يشرف أو بدون، طردهم بالفصل أو بدون، أخرجتهم بإنذار أو بدون، ثم لا يتمكنون من تصور أنفسهم في أي مكان غيرها. أتى آخرون لأن قريباً أو زميلاً مقيماً قال، يارجل، من الأفضل أن ترى هذا المكان قبل أن تموت؛ أو، لدينا غرفة هنا، فاحزم حقائبك ولا تحضر حذاء كعبه عال.

كيفما أتوا، متى ولماذا، فإن لحظة ارتطام جلد نعالهم بالرصيف - تعني أنه لعودة. حتى لو كانت الغرفة التي استأجروها أصغر من حظيرة لعجلة وأظلم من مرحاض الصباح، فهم يقيمون ناظرين على رقمهم، يسمعون أنفسهم ما بين جمهور، يشعرون بأنهم يسرون في الشارع ما بين مئات آخرين على نفس ما يفعلون. ومتى يتحدثون، بغض النظر عن اللكنة، فهم يتعاملون مع اللغة كأنها لعبة عويصة، وطبعة، قد صممت ليلعبوها. جزء من سبب عشقهم لها هو ذلك الشبح الذي تركوه من خلفها. الأعمدة الفقارية المترهلة لمحاربي الكتيبة ٢٧ والتي ضللها القائد لأنهم حاربوا كمخبولين. عيون الآلاف، كانت مشدودة باحتقار من جلبهم السيد «آرمور»، السيد «سويفت»، والسيد «مونتجمري ويرد» لإشعال الإضرابات والطرده لمن فعل ذلك. الأحذية البالية لمفرغي مراكب «جلفستون» الذين لا يدفع لهم أبداً السيد «مالوري» كممثل ما للبيض، خمسين سنتاً في الساعة. النخل المتمايل، التنفس الخشن، الأطفال الهادئون لأولئك الفارين من «سبرنجفيلد أوهايو»، «سبرنجفيلد إنديانا»، «جرينسبرج إنديانا»، «ولمنجتون ديلاوار»، «نيو أورليانز لويزيانا»، ما بعد هجوم البيض الذي أرغى على مدار الدروب والأفنية بسكناهم.

موجة السود الفارين من التوقيف والعنف كانت اندلعت في عقود ١٨٧٠، ١٨٨٠، ١٨٩٠، ولكنها صارت كنهج خامد ١٩٠٦ حين انضم إليها «جو» و«فيولت». كانا من الريف، مثل الآخرين، لكن أتى لساكنتي الريف أن ينسوا على الفور. حين يقعون في غرام مدينة، يكون هذا للأبد. أو أنه مثل الأبد. رغم أنه لم يمر زمان لم يعشقوها فيه. لحظة وصولهم في محطة

القطار أو نزولهم من مركب ويلمحون الشوارع الفسيحة والمصاييح الضائعة تنيرها، يعلمون بأنهم قد ولدوا من أجلها. هناك، في المدينة، مامن جديد كثير مثلهم هم: بأنفسهم الأشد صلابة، والأكثر مغامرة. وفي البداية، بمجرد وصولهم، وبعد عشرين عاماً، عندما يكبرون مع المدينة، فهم يجوبون للغاية ذلك الجزء الذي صار في أنفسهم حتى كاد أن ينسيهم حبه للآخرين - لو عرفوا هذا مرة، فلأنه حق. لا أقصد أنهم يكرهونهم، لا، مجرد أن مابدأوا يحبونه هو الطريقة التي يسير بها شخص في المدينة؛ طريقة طالبة بمدرسة في سيرها بالشارع فهي لا تتوقف عند الإشارة بل تنظر أماماً وخلفاً ثم تخطو على خطوط العبور؛ كيف يقيم الناس في مبان مرتفعة بمدخل صغيرة، وما تبدو عليه امرأة في سيرها وسط حشد، وكم أن جانب وجهها صادم في مقابل خلفية النهر الشرقي. الراحة في روتين المطبخ حين تعرف بأن زيت اللبنة أو الفتيلة هو حول الزاوية وليس على بعد سبعة أميال؛ والتعجب من دفع النافذة لفتحها وتظل لساعات كالمنومة مغناطيسياً تنظر على البشر في الشارع.

قليل من ذلك يؤدي إلى الحب، بل يضخ الرغبة. المرأة التي تنحني كلاً بمفردها إلى سور في طريق ريفي، تخرط دم رجل ربما لا تتوقع أن تلفت عينه حتى في المدينة. لكنها لوتضرب في خطوها مسرعة ويعنف على شارع المدينة الكبير بكعبيها، مطوحة بشنطتها؛ أو جالسة عند منحني مع بيرة مثلجة في يدها، تدلى حذاءها من طرف أصابع قدمها، يفعل الرجل بجلستها، بالجلد الطري على الحجر، ثقل البنيان ضاغط على الحذاء المتدلي اللطيف، مقبوضاً عليه. ولربما يظن بأنها هي المرأة التي يترعّبها، وليس ذلك الاتحاد بالحجر المنحني، وبهذاء مطوحي عالي الكعب يتحرك جيئة وذهاباً بنور الشمس. سيعرف الخديعة فعلاً، خدعة الأشكال والنور والحركة، لكن ذلك غير مهم على الإطلاق، لأن الخديعة جزء منه كذلك. على أية حال، سيحس برئتيه تندفعان أعلى وأسفل. لاهواء هنالك في المدينة بل عبير، وكل صباح يتسارع مندفعاً إليه كغاز ضاحك ينير عينيه، وكلامه، وتوقعاته. في لآزمان على الإطلاق ينسى الجداول المحصبة الصغيرة، وشجر التفاح العتيق الذي يلقي بأغصانه على الأرض وما عليك إلا أن تمدّ إليه يدك أو تنحني لقطف الثمار. ينسى شمساً اعتادت أن تنزلق لأعلى بمثل صفار بيضة ريفية جيدة، الأحمر البرتقالي الكثيف في قعر السماء، لن يفوته ذلك، لا يرفع بصره ليرى ما يحدث فيه أو في النجوم التي ماعدت تتعلّق بالنور من الارتجاف، كمصاييح شارع ضائعة.

نوع من الفتنة، مستمر وخارج عن السيطرة، يستولي على الأطفال، والفتيات الصغار، والرجال من كل صنيف، والأمهات، والعرائس، والنسوة السكّيات، ولو أنهم اتخذوا طريقهم للوصول إلى المدينة، يحسّون بذواتهم أكثر مما كانوا يظنون على الدوام بأنهم بشر. لا شيء بإمكانه خلعهم بعيداً عنها؛ فالمدينة هي ما يريدون منها أن تكون عليه: معدومة القيمة، دافئة، جبانة، وملأى بغرباء لطيفين. لا عجب إذن أن ينسوا الجداول المحصبة، وحين لا يعيرون السماء بالأحسبونها مجرد معلومة دقيقة عن الزمن أو النهار أو الليل.

لكني رأيت المدينة بسمائها التي لا تعقل. الحمالون ونظار ديوان الطعام لا يفكرون في مغادرة المدينة على الأكثر ويواصلون تحت السماوات الريفية بامتدادها الكبير التي يرونها من نوافذ القطارات. لكن لاشيء غالب على ما يمكن أن تهبه المدينة من سماء الليل. يمكنها أن تفرغ نفسها من سطحها، لتبدو أكثر شبهاً بالمحيط من ذاته، تنزل عميقاً، بدون نجوم. تطبق على أعالي المياني، قريباً، وأقرب من الكاب الذي ترتديه، سماء مدينة كهذه تضغط وتنسبط، وتضغط وتنسبط، تجعلني أفكر في حب غير شرعي لكنه حر يتخلق من العشاق قبل أن ينكشف. أنظر عليها، سماء هذا الليل التي تدوي في مدينة مبهرة، ومن الممكن لي أن أجنب الحلم بما أعلم أنه في المحيط، والخلجان، والروافد التي تغذي: طائرات بمقعدين، مقدمها في الرغام، الطيار والمسافر يجذفان في مدارس سمكات القنبر العابرة؛ مال منقوع وملح في أكياس من القماش، تلوح أطرافها بشرائطها المعدنية التي صنعت لتحكم عليه إلى الأبد. يهبطان هناك، أزهار صفر تأكل خنافس الماء والبيض الطافي إلى بعيد عن متناول الزعانف الضاربة؛ مع أطفال أخطأوا في حق الآباء الذين تخيروهم؛ وألواح رخام «الكارارا» المنتزعة من مبان غير عصرية. زجاجات هناك أيضاً، صنعت من زجاج بديع يمكنه أن يضارع النجوم التي لا أتمكن من رؤيتها فوقها لأن سماء المدينة قد حجبتها. رغم ذلك، لو أنها أرادت، فبإمكانها أن تريني بنجوماً قطعها من أبواب بنات راقصات بخيوطها اللامعة، أو تنعكس في عيون عشاق ماكرين وسعداء تحت ضغط سماء عميقة، يمكن جسها.

لكن هذا ليس كل ما يمكن أن تؤديه سماء المدينة، فبإمكانها أن تروح في الأرجوان وتظل بقلبها البرتقالي الذي يلمع أبواب الناس في الشوارع وكأنها أزياء صالة رقص. رأيت النساء يقبلن قمصانهن في نشأ مغلي أو يخطن ألبستهن بينما تفرد فتاة شعر أختها عند الموقد، وبأثناء ذلك تجرف السماء - بديعة للغاية - نوافذهن. مثلها نوافذ العشاق، بالهم خالٍ، وخلسة يحكون لبعضهم البعض عن أشياءهم.

بعد عشرين عاماً من رقصة القطار لـ «جو» و«فيولت» في الطريق إلى المدينة، كانا لا يزالان زوجين، لكنها لا يحدثان بعضهما إلا نادراً، دع جانباً الضحك سوياً أو التصرف وكأن الأرض صالة رقص. اقتنع أنه بمفرده يتذكر الأيام الخوالي، ويرغب بعودتها، وأعياء بما هي تشبهه لا بما كان يحسه هو، لقد زوج نفسه في مكان آخر. استأجر غرفة من جارة يعرف بالضبط ثمن كتمان سرها. ست ساعات أسبوعياً هي ما كان يؤجره. وقت أن تنتقل سماء المدينة من الأزرق الثلجي الشاحب إلى الأرجوان بقلب من ذهب. والوقت كافٍ، حتى تغطس الشمس، كي يحكي لحبه الجديد أشياء لم يحكيها قط لزوجته.

أشياء مهمة مثل كم تفوح رائحة الهيسكوس (*) على ضفة نهر في الغسق؛ وكم يرى ركبته بمشقة وهما تبرزان من فتحتي بنطلونه في ذلك النور، وأن ما يدعوه للتفكير إمكان أن يرى يدها حتى لو قررت أن تختبئ بين الشجيرات، ويتأكد، لمرة واحدة وإلى الأبد، أنها في

(*) الهيسكوس: نبات من الفصيلة الخبازية، يستخدم للزينة. (المترجم)

الواقع كانت أمه (★)؟ ورغم أن تصديقي ذلك أخجله، فقد جعله هذا أسعد ولد في «فرجينيا». وأنها تقرر، فذلك حق، أن تربه ذلك، وأن تنصت ولمرة إلى ما كان يقوله لها ثم تلبيه، تقول نعم بطريقة ما، حتى لو كانت لا، فلا بد أنه يفهم. وكيف كان يعزم على اغتنام تلك الفرصة من كونه خزياناً وممتناً بذات الوقت، لأن التصديق بذلك يعني كليهما. يدها، أصابعها المقحمة خلال الأزهار، تلمسه، ربما تدعه يلمسها. ولن يغتصب ذلك، وينتزعها ويجرها للخارج من وراء الشجيرات. ربما أن ذلك ما تخافه، لكنه لن يفعله، وقد أخبرها به. مجرد إشارة، قال فقط أرني يدك، قال، ولسوف أعرف، ألا تعرفين بأنني لابد أن أعرف؟ لم يكن ضرورياً حينها أن تقول أي شيء، بل إنه لا أحد قد سمعها ذات يوم تقول أي شيء؛ ليس من الضروري وجود الكلمات؛ إنه لم يحتج للكلمات أو حتى يريد أن يعرف بأن الكلمات يمكنها أن تكذب، يمكنها أن تحمي دمك وتختفي. ما كان ضرورياً لها أن تقول كلمة «أم». ولا شيء كذلك. كل ما عليها أن تفعله هو أن تهبه الإشارة، تدفع يدها من خلال الأوراق، الأوراق البيض، سيكون كافياً أن تقول بأنها عرفته لأنه الوحيد، الابن الذي كان لها منذ أربعة عشر عاماً مضت، وهربت منه، ولكن ليس إلى بعيد تماماً. مجرد أنها بعيدة لدرجة تكفي أن تضايق أي واحد لأنها لم ترحل فعلاً، وقرية لدرجة تكفي أن تخيف أي واحد لأنها تزحف حول المكان وتختفي وتلمس وتضحك كفتاة صغيرة منبطحة وتضحك ما بين القصب.

ربما فعلت ذلك. ربما أن أصابعها تحركت على مثل ذلك، خلل الشجيرة، لا ما بين الغصينات، لكنه النور كان شحيحاً فلم يتمكن أن يرى ركبتيه بارزتين من فتحتي بنطلونه، ربما افتقد الإشارة التي كانت تأكيداً للعار والمتعة، على الأقل، وليس أنه كان راحلاً في باطن الخواء منذ ذاك الحين، حتى خريف ١٩٢٥ حين كان له شخص يحكي معه. شخص يدعى «دوركا» بكعبين يهزهزان عظام خديها في السير، والتي عرفت أفضل ممن كانوا في سنه ما الذي كان يعنيه باطن الخواء. شغلته له، مثلما هو شغلها لها، نظراً للخواء بها أيضاً.

ربما كان خواؤها أسوأ منذ أن عرفت أمها، صفتها على وجهها من وقاحة ردها الذي لم تتمكن من تذكره. لكنها تذكرته، وحكت له عنه، وعن الصفعة عبر وجهها، عن الدوي والوخز الذي كان بها وكم أنها التهمت. كم التهمت، حككت له. عن كل الصفعات التي تلقتها، تلك الصفعة كانت الوحيدة التي تذكرتها على نحو أفضل لأنها كانت الأخيرة. كانت تنحني على نافذة منزل أقرب صديقاتها، فالصرخات لم تكن شيئاً مما تحلم به. كانت الصرخات خارج رأسها، عبر الشارع. كأنها عدو. كل امرئ يعدو. طلباً لماء؟ دلاء؟ عربة الإطفاء الملمعة المتزنة في مكان آخر من البلدة؟ لم يكن هناك مدخل للمنزل حيث عرائسها التي من مشابك الغسيل ترقد في صف. في صندوق سيجار. لكنها حاولت بأي طريقة الوصول إليها، عارية القدمين في الفستان الذي كانت تنام فيه، جرت لتلحق بها، وصرخت لأنها أن صندوق العرائس، صندوق العرائس هناك أعلى المرأة، ألا يمكن الوصول إليها؟ ماما؟

(★) الكلام هنا عن ذكرى امرأة وحشية تدعى «وايلد» يأتي ذكرها لاحقاً. (المترجم)

بكّت مرة أخرى و«جو» يحضنها بشدة. تعبر السماء النواذ، ولو رأياها، فإن شمع الكريون يلون جبهما. وبعد صمت لطيف، يرفع شنطة عينته - كليوباترا - عن الكرسي ويمزّقها قبل فتحها، يعرض بالغطاء حتى لا تتمكّن من رؤية ما يخفيه تحته من برطمانات وعلب العطور الفاغمة، الهدية التي جلبها إليها. كانت حلقة مفتاح صغيرة ربطت نهارهما في ذات الوقت الذي غيّرت فيه سماء المدينة قلبها البرتقالي إلى الأسود لتخفي نجومها أطول وقت ممكن قبل أن تطلقها واحدة بعد واحدة بعد واحدة، كالهبات .

في ذلك الوقت كانت تضغط على جلده، تنظّف أظافره وتطليها بطلاء شفاف. بكّت قليلاً عند الكلام عن «إيست سانت لويس»، لكنها ابتهجت بما فعلته في أظافر أصابعه. كانت تودّ معرفة أن الأيدي التي ترفعها وتديرها تحت البطانية قد طلتها بنفسها. ملّست عليها بـ «كريم» من برطمان كان في شنطة عينته. شُبّت على عجيزتها، أخذت وجهه في يديها، وقبّلت جفني عيني الملوّنتين. واحدة لي، تقول، وواحدة لك. واحدة لي وواحدة لك. أعطني هذا، أعطك ذاك. أعطني هذا، أعط هذا.

يحاولان ألا يطلع صوتهما بالصراخ، لكن لا يقدران. أحياناً ما كان يغطي فمها براحه يده حتى لا يسمعها أي عابر بالصالة، ولو استطاع، لو فكّر في ذلك بالوقت المناسب، لكان عضّ الخدّة حتى يوقف من هديره. لو يقدر. أحياناً كان يظن بأنه أوقفه، لأن زاوية الخدّة لا تزال في فمه تماماً، حين يسمع نفسه يتنفس في شهيق وزفير، شهيق وزفير، بنهاية ذيل صرخة أمكنها أن تجيء فحسب من حلقة المهرق.

تضحك على ذلك، تضحك وتضحك قبل أن تباعد برجليها على ظهره وتدكّه بقبضاتها. وحين تصبر منهكة وهو نصف نائم، تتكىء عليه، شفتاها وراء أذنه، وتدبّر خططاً. تهمس، المكسيك. أريدك أن تأخذني إلى المكسيك. يتدّمّر، بصوت عال. لا، لا، تقول، هذا صحيح. كيف عرفت؟ يطالبها. سمعت الناس يقولون، يقول الناس بأن الموائد هناك مستديرة يغطيها قماش أبيض وأباجورات ياحبيبي الصغير. وهي لا تفتح إلا قبل موعد نومك، يقول مبتسماً. هذا وقت نومي، تقول، ناس المكسيك ينامون بالنهار، خذني. فهم هناك حتى بوقت الكنيسة صباح الأحد، ولا بيض يمكنهم الدخول، والأولاد الذين يلعبون يقومون أحياناً ليرقصوا معك. أه أوه، يقول هو. ما أه أوه هذه، تسأله. أنا فقط أودّ أن أرقص معك وبعدها أروح لأجلس على المائدة المستديرة بالللمبة فوقها. يمكن للناس أن يرونا، يقول، إن تكلم الللمبات الصغار التي تتكلمين عنها كبيرة لدرجة أنها توضح من هناك. أنت دائماً تقول هذا، تقهقه هي، مثل آخر مرة حين لم يكن أحد ينظر علينا، قد كانوا كلهم يقضون وقتاً طيباً، والمكسيك أفضل مكان حيث لا أحد يريد أن يرى ما يدور تحت مفرش المائدة، أليس كذلك؟ صحيح؟ ولو لم ترد الرقص، فيمكننا الجلوس هناك فقط إلى المائدة، ناظرين بثبات على نور الللمبة، ونصغي إلى الموسيقى، ونراقب الخلق. لا أحد يريد أن يرى ما يدور تحت مفرش المائدة. «جو»، «جو»،

خُذْنِي، قُلْ بَأْنُكَ سَتَأْخُذْنِي. كَيْفِ سَتُخْرِجُنِي مِنَ الْبَيْتِ؟ يَسْأَلُهَا. سَوْفَ أَتُحَسِّبُ لِلْأَمْرِ، وَتَدْنِدُنْ، كَمَا عَلَى الدَّوَامِ، نَعَمْ قَلْهَا فَقَطْ. حَسَنًا، يَقُولُ، حَسَنًا، لَا نَفْعَ مِنْ قَطْفِ تَفَاحَةٍ لَوْ لَمْ تَكُنْ تَرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ مَا طَعَمَهَا. كَيْفَ كَانَ طَعَمَهَا، يَا «جُو»؟ تَسْأَلُهُ. فَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ.

البَابُ مَسْكُوكٌ، وَلَنْ تَعُودَ «مَلْفُون» مِنْ مَكَاتِبِ الشَّارِعِ ٤٠ حَتَّى مَا بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَتَسْتَشِيرُهُمَا فِكْرَةً: مَاذَا لَوْ يَتِمَكَّنَانِ مِنْ قَضَاءِ اللَّيْلِ سَوِيًّا. لَوْ تَقُومُ «أَلَيْسَ مُنْفَرِدٌ» أَوْ «فِيُولْت» بِرَحْلَةٍ، نَفَرَضُ، فَإِنَّهُ سَيُؤَجِّلُ الْهَدِيَّةَ الَّتِي سَوْفَ يَهْبِئُهَا لِهَا إِلَى مَا بَعْدَ ذُرُورَةِ الظَّلَامِ بِاللَّيْلِ، يَشْمَانُ رَائِحَةَ الْأَكْسِيدُولِ وَالشَّمْعِ الْمُنْصَهَرِ، لَقَدْ عَادَتْ «مَلْفُون» مِنْ مِكَاتِبِهَا. وَعَلَيْهِ، كَانَا خَطَطًا لِرَحْلَةِ الْمَكْسِيكِ. تَمَسَّ «دُورْكََا» الْبَابَ خَارِجَةً وَتَنْزِلُ السَّلَامَ قَبْلَ أَنْ تَنْهِيَ «فِيُولْت» حَلَاقَةَ رُؤُوسِ الْمَسَاءِ وَتَرْجِعَ فِي حَوَالِي السَّابِعَةِ لِتَجِدَ «جُو» قَدْ غَيَّرَ فِعْلًا الْمَاءَ لِلطَّبِيرِ وَغَطَّى أَقْفَاصَهَا. فِي تِلْكَ اللَّيَالِي لَمْ يَكُنْ «جُو» يَهْتَمُّ بِأَنْ يَرْقِدَ يَقْطَانًا إِلَى جَنْبِ زَوْجَتِهِ الصَّامِتَةِ لِأَنَّ أَفْكَارَهُ كَانَتْ مَعَ إِلَهِ الطَّبِيبِ الْفَتَى الْبَنْتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَتَعَمَّ عَلَى حَيَاتِهِ كُلِّهَا وَتَجْعَلُهُ يَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يُولَدْ قَطْ.

كَانَتْ «مَلْفُون» تَعِيشُ بِمُفْرَدِهَا مَعَ الصُّحُفِ وَحِكَايَا النَّاسِ الْآخِرِينَ الْمَطْبُوعَةِ فِي كُتُبِ صَغِيرَةٍ. عِنْدَهَا لَمْ تَكُنْ تَجْعَلُ مَكْتَبَهَا يَبْرُقُ، فَقَدْ كَانَتْ تَزَاجِرُ الْحِكَايَا الْمَطْبُوعَةَ وَمُلَاحَظَاتِهَا الذَّكِيَّةَ لِلنَّاسِ حَوْلَهَا. كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَتَجَنَّبُ رُكُوبَ التَّرَوَلِيِّ وَقَدْ أَزْدَحَامُ الْمُرُورِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مَسَاءً، تَتَفَحَّصُ نَفَايَاتِ الْبَيْضِ ذَوَى النَفُودِ، نَازِرَةً عَلَى صُورِ النِّسَاءِ وَأَطْفَالِهِنَّ فَوْقَ الْمَقَاعِدِ. تَتَسَمَّعُ لِحَوَارَاتِ الْأُرُوقَةِ، وَضِحْكَاتِ الْحَمَامِ الَّتِي تَتَّقُبُ الْمَكَانَ كَأَنَّهَا أَبْخَرَةٌ زَجَاجَةٌ نَشَادِرُهَا. كَانَتْ تَتَفَحَّصُ زَجَاجَاتِهِمْ وَتَعِيدُ وَضْعَ الْقِنِينَاتِ الْمُنْدَسَةِ تَحْتَ الْوَسَائِدِ وَخَلْفَ الْكُتُبِ الَّتِي طُبِعَتْ كَلِمَاتُهَا عَلَى عُمُودَيْنِ. عَرِفَتْ مِنْ يَهِيمٍ بِالْعَدَلِ جَنْبَ هَيَامِهِ بِمَلَابِسِ النِّسَاءِ التَّحْتِيَّةِ، مَنْ يَحِبُّ زَوْجَتَهُ وَمَنْ يَر_افِقُ وَاحِدَةً. مِنْ حَارِبٍ جَنْبَ وَلَدِهِ بَيْنَمَا لَمْ يَكُنْ يَكْتَلُمُ وَالِدَهُ. لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَغْطُونُ أَفْوَاهَهُمْ عِنْدَ كَلَامِهِمْ فِي التَّلِفُونِ حَتَّى يَطْلُبُوا مِنْهَا أَنْ تَمْشِيَ أَثْنَاءَ مَا كَانَتْ تَهْبِطُ السَّلْمَ مَبْطُئَةً إِلَى الصَّالَةِ، وَإِلَى مَكَاتِبِهِمْ، وَلَا كَانُوا يَخْفَضُونَ أَصْوَاتَهُمْ لِتَصِيرَ هَمْسَاتٍ سَرِيَّةٍ عِنْدَ تَأْخِرِهِمْ فِي الْعَمَلِ يُؤَدُّونَ مَا كَانُوا يَسْمُونَهُ الْعَمَلَ «الْحَقِيقِي».

لَكِنْ «مَلْفُون» لَمْ تَكُنْ تَهْتَمُّ بِذَلِكَ؛ كَانَتْ تَلْحَظُ ذَلِكَ بِبَسَاطَةٍ. وَكَانَ اِهْتِمَامُهَا مُنْصَبًّا فَحَسَبَ عَلَى جِيرَانِهَا.

قَبْلَ أَنْ يُغَيَّرَ «سُوَيْتِنْس» اسْمُهُ مِنْ «وَلِيمِ يَنْجَر» إِلَى «لَيْتِلْ سِيزَر»، كَانَ قَدْ نَهَبَ صَنْدُوقَ بَرِيدِ الشَّارِعِ ١٣٠. نَظَرَتْ «مَلْفُون» عَلَى بَطَاقَاتِ الْبَرِيدِ، وَحَوَالِ النَّقْدِ، وَغَيْرِهَا، وَلَمْ تَتَخِيلْ كُلَّ ذَلِكَ. لَقَدْ رَبَّتَهُ مِنْذُ أَنْ كَانَ فِي السَّابِعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَيُّ وَاحِدٍ مَتَمَنِّيًا أَنْ يَصِيرَ ابْنُ أَخِيهَا هَذَا حَسَنَ السَّيْرِ وَالسَّلُوكِ. فِي النَّهَارِ، عَمُومًا. لَكِنْ بَعْضُ الْأَشْيَاءِ كَانَ يَدْخُلُهَا فِي أَثْنَاءِ فِتْرَةِ عَمَلِ

«ملفون» بمكتبها من السادسة وحتى الثانية والنصف ظهراً. كان يمكن ألا تعرف؛ لكن آخرين أخبروها بعد رحليه إلى «شيكاجو»، أو أنها كانت «سان دييجو»، أو ربما مدينة تنتهي بحرف الواو.

أحد الأشياء التي عرفتھا فسرت أين راحت شنطة بقالتها - الكيس المملح ذو العشرين رطلاً الذي كانت تحمله إلى السوق، المغسول والمطوي بشكل لطيف في شبيكتها. حين وجدته، وراء الدفاية في حجرة «سويتنس»، كان مليئاً بخطابات غير مرسله. عندما تفحصتها، كان دافعها الأول محاولة وضع الاختام وإعادة طي محتوياتها وردّها بسرعة إلى صندوق بريد. عموماً، انتهت بقراءة كل الخطابات حتى تلكم اللاتي لم يمزقها «سويتنس» بفتحها وهو متضايق. لولا لذة التعرف على التوقعات، لكانت القراءة بدت فاترة وغير شيقة.

عزيزتي «هيلين مور»: أسئلة عن صحة «هيلين»؛ ردود عن صحة المرسل. الطقس. مخادعات. وعود. مع حبي، بعدها اسم الموقع. ورغم أن «هيلين» قد تسلمت خطابات عدة - لها أقارب وأصحاب كثيرون جداً حتى أنها لم تتذكرهم جميعاً - فقد كانوا يعرفون أنفسهم أو أنفسهم بإطالة، وبحروف مائلة، أختك المخلصة، السيدة كذا كذا؛ أو أبوك المحب في نيويورك، ل. هندرسون ودوارد.

بعض من هؤلاء تطلب من «ملفون» أن تفعل له شيئاً. طالبة بمدرسة عالية أرسلت طلب التحاق بسيط إلى مدرسة حقوق بالمراسلة مع المطلوب، لكنه يفتقد الآن إيصالاً بدولار. لم يكن مع «ملفون» دولاراً مذكراً لرسم التحاق «ليلي سبنسر»، بل إنها قلقت بالفعل من كون الفتاة لن تصير محامية ولربما تنتهي إلى وظيفة بمريلة. ولذا أضافت رسالة بذات يدها، قائلة «أنا لا أملك دولاراً حقيقة هذه اللحظة، لكن بمجرد أن أعرف بتسلمكم هذا الطلب وموافقتكم لا بد أن آتي، وأجلبه عندئذ لو أخبرتموني بأني لم أضعه وتحتاجونه فعلاً».

جاءت لحظة حزن حين قرأت الخطاب المرسل إلى «بناما» من «ونسام كلارك» تشتكي أوه، فكّرت «ملفون»، هل تخلم بشجرات كبار في «بربادوس»؟ أكبر من اللاتي في الحديقة العامة؟ لا بد أن ذلك سيكون دغلاً.

قالت «ونسام» بأن «ترحم على صديقك العزيز الذي مات في الحريق الكبير وصل من أجله وأجللك، كيف أتى كل هؤلاء الخلق الملونين ليموتوا حيث فعل البيض هراء كثيراً. أخصن بأنك تظن هي ليست مسألة الكبار. أرسل أي حاجة أخرى تحصل عليها إلى «ويندهام رود» حيث أنني أنا والصغار سيكون لنا مظروفان للدفع من الآن. «سوني» يقول بأن لديه حذاء لامعا من مال يخصه هو ولذا لا يريدك أن تقلق سوى بالبقاء ما بين الأحياء. زوجتك العاشقة «ونسام كلارك».

لم تكن «ملفون» تعرف لا «ونسام» ولا أي آخرين في ثلاثمائة مسكن بطريق «إدجيكومب»، رغم أن أحد هذه المساكن يمتلئ بهنود الغرب الأثرياء الذين يحتفظون بالكثير لأنفسهم، وتهلّ من نوافذهم رائحة التوابل التي لا تتعرف أياً منها. المشكلة الآن تبليغ رسالة «ونسام» عن رحيلها، رغم خطابي الدفع المرسلين من قبل، إلى «بناما» قبل أن يذهب أي مال آخر إلى «إدجيكومب» حيث يمكن للعملة أن تأخذه، ومن يدري، لو أنها كانت كارهة كما أخبرت بذلك «ونسام» (تكتب لبن الصغار خلصة وتجلد ذا الأعوام الخمسة لإساءته استعمال مكواة الحديد الثقيلة الساخنة) ربما تحتفظ بالمال لنفسها. أعادت «ملفون» إغلاق الخطاب بحذر وفكرت في إضافة طابع بريد من ذوي البنس ليساعد في الوصول إلى «بناما» أسرع.

كان هناك خطاب آخر عرقت منه وتساءلت عن كنه المرأة التي تكتب مثل هذي الكلمات، تركت جانباً ما كانت تفعله ووعدها بالمزيد. كانت الكاتبة تحيا في نفس المسكن مع حبيبها. لم تعرف «ملفون» ما الذي يجعلها تتلف طابعاً بثلاثة بنسات فضلاً عن لذة معرفة أن الحكومة عليها توصيل هذا الهياج من أجل خاطرها. كانت «ملفون» ترشج عرقاً وتتنفس بخفة، حين أجبرت نفسها على قراءة الخطاب مرات عديدة. كانت المسألة إما أن ترسله إلى السيد «م. ساج» (ذلك ما كان يدعى اسمه على المظروف؛ وفي ورق الكتابة يدعى «دادي») الذي تلقى خطاباً من المخلصة لك على الدوام «هوت ستيم». كان قد مرّ شهر على كتابته، ربما «ستيم» تتعجب من أنها قد ذهبت لبعيد فيه. أو أن «دادي ساج» و«ستيم» قد أتما فعل المزيد من تلکم الأشياء الوضيعة الدنيئة خلال هذه الفترة؟ وفي النهاية قررت أن ترسله مع ورقة من لدنّها تتعلق - بالاحتراس الواجب، ولفتت انتباه «دادي» إلى قصاصة من مجلة (أوبورتونتي). وبينما كانت تجهز النصيحة دونما توقيع اسم، طرق «جوتريس» بابها.

«كيف حالك، ملفون؟»

«بخير. وأنت؟»

«يمكن أدخل؟ لديّ عرض لك». وابتسم بسمته الريفية البسيطة.

«ليس عندي ولا نيكل، يا جو».

«لا» رفع يده وسار أمامها نحو غرفة المعيشة. «أنا لا أبيع. ترين؟ ولا حتى معي شطّتي».

«أوه، حسناً، إذن». تبعته «ملفون» حتى الكنبّة. «أقعد».

«لكن لو كان» قال «مارأيك؟ لو كان النيكل معك، أقصد».

«تلك الصابونة الأرجوانية نوع لطيف».

«التي أخذتها»

«لقد ذابت في ومضة عين»، قالت «ملفون».

«الصابونة الممتازة ممتازة. ليس مقصوداً أن تدوم».

«لا أقصد».

«لدي اثنتان باقيتان. سأجلبهما لك هدية».

«ما الذي يحدث؟ أنت لا تباع بل تهب مجاناً فلأني سبب؟» نظرت «ملفون» إلى المنبه

على رفّ المدفأة، تتخيل كم من الوقت مرّ عليها وهي تكلم «جو»، لأن عليها أن ترسل خطاباتها قبل الخروج للعمل.

«يمكن أن تقولي خدمة».

«أو ربما لا أقول؟»

«ستفعلينها. هي خدمة لي، ولكن بمبلغ بسيط إليك». ضحكت «ملفون». «هاتها،

ياجو. وأظن هو شيء لا تعلم به فيولت، هه؟»

«فعلاً. هي. هذا هو. إن فيو. لا أودّ إزعاجها بهذا، تعرفين؟»

«لا. أخبرني».

«حسناً. أودّ تأجير مكانك».

«ماذا؟»

«مجرد ظهيرة أو اثنتين، بين الحين والآخر. حين تكونين في العمل. لكنني سأدفع الشهر كاملاً».

«ما الذي تقصده، «جو»؟ أنت تعرف أنني أشتغل بالليل». ربما كان هذا الاسم خدعة

والعنوان خدعة، وأن «جو» هو «دادي» الذي يتسلم البريد من مكان آخر ويعلم «ستيم» بأنه اسمه

«لن يكون هذا كل يوم، ياملفون».

«لن يكون هذا في أي يوم. لا أعتقد بأنني راغبة فيما تقترحه».

«بدولارين وكل شهر».

«أظن أنني في حاجة لمالك أو صابونتك الذائبة؟»

«لا، لا، ياملفون. انظري. دعيني أوضح. إن نسوة كثيرات مثلك يتفهمن مشاكل

الرجال مع زوجاتهم».

«مانوع المشكل؟»

«حسناً. فيولت. أنت تعرفين كم هي غريبة منذ أن تغيرت».

«إن فيولت كانت غريبة من قبل ذلك. غريبة من ١٩٢٠ على ما أذكر».

«بب، حسناً. لكن الآن-»

«جو، أنت تريد أن تؤجّر حجرة سويتنس لتحضّر امرأة أخرى هنا بينما أكون في الخارج

لجهد أن فيولت لم يعد بها نفع لديك. مانوع المرأة التي تظنني أكونها؟ حسناً. ليس هناك ودّ

مفقود بيني وبين فيولت، لكنني سألزم جانبها، لا جانبك، أيها الكلب العجوز».

«اسمعي هنا، ياملفون-»

«هي من؟»

«لا أحد. أعني، لا أعرف بعد. فكّرت فقط-»

«لو صادف حظك إحدى الحمقاوات لا بدّ أن تجد مكاناً؟ ذلك ما فكّرت فيه؟»

«إلى حد ما. وربما لا أستخدمه قط. لكنني أريده في حالة ما إن. سأدفع المبلغ لو

استخدمته أو لم».

«إن خمسين سنتاً في منازل معينة يمكنها أن تؤجّر المرأة، والأرضية، والحوائط،
والسرير. أما دولاران فيجعلانك تجلب امرأة بمحل بيع دراجات لو تريد».

«أو، لا، ياملقون. لا. تفهميني خطأ تماماً. لا أبني أي واحدة من الشارع. يا إلهي».

«لا؟ من تفكر فيها غير مومس تخرج متسكعة معك؟»

«ملقون، أمل فقط في سيدة رفيقة. شخص ما أتكلّم معه».

«من وراء ظهر» فيولت؟ لماذا سألتني أنا، كامرأة، طلباً لفراش ساخن. ربما كان الأوفق
أن تسأل رجلاً بذيئاً مثلك من أجل هذا».

«لقد فكرت في هذا، لكنني لا أعرف رجلاً يعيش بمفرده، كما أن هذا ليس بذاعة.
تعالني، عزيزتي. هل تدفعيني للشارع. إن ما أطلبه أفضل، أليس كذلك؟ بين الحين والآخر
سأتي بسيدة محترمة».

«محترمة؟»

«نعم صحيح، محترمة. ربما تكون وحيدة أيضاً، أو لها أطفال، أو-».

«أو زوج بشاكوش».

«لا أحد هكذا».

«ولو كشفت ذلك فيولت، ماذا يفترض بأن أقول؟»

«لن تكتشف».

«افرض أنني حكيت لها».

«لن تفعلني. لماذا تفعلين هذا؟ أنا لا أزال آخذ حذري منها. لا أحد يريد الأذية. وأنت
تحصلين ربحي دولار أيضاً من شخص يراعي مكانك أثناء خروجك، وفي حالة عودة سويتنس أو
أي شخص يأتي هنا باحثاً عنه، فلا تبالي بما سأخترعه، عذرك معك كامرأة».

«فيولت لا بد تقتلني».

«لا شيء تفعلينه من أجل ذلك. لن تعرفني متى آتي ولن تري أي شيء. كل شيء
كالاعتاد بعد خروجك، عدا أن هناك شيئاً صغيراً تريدني ثابتاً مني أودّيه. لن تري هناك إلا بعض
الفكة على المنضدة، وهذا يعني أنني خرجت لسبب لا تعرفين عنه أي شيء، ترين؟»

«أه هو».

«جربيني، ياملقون. أسبوع واحد. لا، اثنان. لو غيرت رأيك في أي وقت، أي وقت،
اتركني فقط فلوسي على المنضدة، وسأعلم بأنك تريدني أن أكف، وتأكدي بأنك ستجدين
مفتاح بابك لدى العودة موضوعاً في مكانه».

«أه هو».

«هو منزلك. تقولين لي ماتريدن أن أفعله، ما الذي تريدني ثابتاً، وتقولين لي ما الذي لا
تحبينه. لكن صدّقيني، عزيزتي، لن تعرفني متى أو ما أنني جئت أو رحت. إلا، ربما، أن حنفيك
لن تنقُط بعد ذلك».

«أه هو».

«شيء وحيد تعرفينه أني كل سبت، يبدأ من الآن، تحصيلين رُبعمي دولار موضوعين
بورعاء السكر عندك».

«ربما يكون سعراً عالياً لأجل مجادنة قليلة».

«ستندهشين مما تدّخرينه لو أعجبتكِ، فقط لو لم تشربي، أو تدخني، أو تقامري، أو
تزكّكي».

«ربما هو واجب عليك».

«لا أرغب في أي شيء خسيس، ولست أودّ التردّد على الملاهي أو نحو ذلك. أريد فقط
صُحبة نسائية لطيفة».

«تبدو واثقاً من أنك ستلاقي هذا».

ابتسم «جو». «لو لم أجده، لاضير. لاضير على الإطلاق».

«لا رسائل».

«ماذا؟»

«لأوراق صغيرة للتوصيل. لخطابات. لا أسلم أي رسائل».

«قطعا لا. لأريد رسالاً. نتكلم هنا أو لا كلام على الإطلاق».

«افرض قد نشأ شيء، وتريد أنت أو هي أن توقفاه؟»

«لا تقلقي من شأن ذلك».

«افرض أنها مرضت ولم تتمكن من الحضور، وتحتاج أن تعلمك».

«أنتظر، ثم أرحل».

«افرض أن أحد الأولاد مرض ولم يعثر أي واحد على الماما بسبب خلوتها معك في

مكان ما؟»

«من قال بأن لها أولاداً؟»

«ألن تعاشر أي امرأة، يا جو، لولها أولاد صغار؟»

«أبدأ».

«أهذا طلب مبالغ فيه مني».

«لا عليك أن تفكّري في شيء من هذا. لن يكون لك دُخْل فيه. هل رأيتني مرةً أعبث
مع واحدة؟ لقد عشت في هذا المبني مدةً أطول منك. هل سمعت مرةً كلمةً ضدي من أي
امرأة؟ فأنا أبيع مستحضرات التجميل في كل البلدة، هل سمعت مرةً حكايةً عني أطارد امرأة؟
لا. لم تسمعي بذلك قط، لأن ذلك لم يحدث أبداً. أحاول الآن أن أخفّف عن حياتي قليلاً
بسيطة طيبة، كأني رجل مهذب، وهذا كل شيء. أخبريني أي خطأ في هذا؟»

«فبالتة هي الخطأ في هذا».

«إن فيولت تُعنى ببيغاتها أكثر مني. باقي الوقت، تطبخ لحم خنزير لا يمكن أن آكله، أو تمسّط شعراً لا أتحمل رائحته. ربما تلك هي الطريقة التي يسير عليها من تزوجوا منذ زمان مثلنا. لكن المهديء. لا أستطيع أخذ مهديء. هي لا تتكلم إلا بمشقة، وغير مسموح لي الاقتراب منها. أي رجل آخر كان يدور على حاله، يخطو خارج البيت كل ليلة، تعرفين ذلك. ولست كذلك. ليس أنا».

لم يكن طبعاً كذلك، لكنه فعلها على أي حال. تسلل، وتأمّر، وخطا خارج البيت كل ليلة طلبتها الفتاة. ذهب إلى المكسيك، ملهى «سوك» وملاه تتغير أسماؤها كل أسبوع - ولم يكن بمفرده. أصبح من رجال الخميس، ورجال الخميس شعبانون. يمكن أن أحكي عن نظرتهم حباً محرماً يوشك أن يكون، أو بالفعل كائن، شعبانون. إن نهايات الأسبوع والأيام الأخرى هي مجرد احتمالات، لكن الخميس هو اليوم الذي يعول عليه. اعتدت على الظن بذلك، لأن العمال الأهليين يأخذون الخميس إجازة، ويمكنهم الرقاد بالفراش للصباح كما هو معلوم عن نهايات الأسبوع، لأنهم إما أن يناموا في المنازل التي يخدمون فيها، أو ينهضوا مبكرين للوصول، فليس من وقت لديهم للإفطار أو أي نوع من اللعب. لكنني لاحظت صحة ذلك أيضاً على الرجال المتزوجين بغير الخادومات أو عاملات اليومية، زوجاتهم نادلات بار أو طبابخ مطاعم بإجازة أحد واثنتين، أو مدرسات، أو مطربات مقاه، أو كاتبات آلة في مكاتب، أو نسوة أكشاك بالسوق، كلهم يتطلعون لإجازة السبت. إن المدينة تراعي وترتب نفسها لنهاية الأسبوع: اليوم السابق ليوم قبض الأجر، واليوم التالي للقبض، نشاط ما قبل الراحة، الحُلّ مغلق وردهة المدرسة هادئة؛ قناطر أعمدة البنوك مقفلة، والمكاتب مسكوكة في العتمة.

إذن لماذا يبدو على الرجال يوم الخميس بأنهم شعبانون؟ ربما كان ذلك إيقاع الأسبوع المصطنع - ربما شيء هناك زائف بخصوص دورة الأيام السبعة لا يدي الإنسان اهتماماً إليه، الثلاثيات مفضلة، أو الثنائيات، أو الرباعيات، أو أي شيء إلا دورة السبعة التي ينبغي تخطيطها في الأجساد البشرية، وبعدها استراحة الخميس. لا تقاوم. التوقعات غير المكبوحة مع الحاجات اللدنة لنهاية الأسبوع، تصبح باطلة يوم الخميس. يتطلع الناس إلى نهايات الأسبوع لأجل الارتباطات، المراجعات، والانفصالات، رغم أن كثيراً من تلكم الأنشطة يصاحبها رضوض وربما بقعة دم، لأن الهياج يدور بأعلاه يوم الجمعة أو السبت.

ولو لم يكن الشبع صافياً وعميقاً، لأجل التوازن في اللذة والراحة، فلا يمكن للخميس أن ينهزم - كما هو واضح من تعبير القدرة على وجوه الرجال وهزلتهم الغازية في الشارع. يبدو أنهم ينجزون نوعاً من الاكتمال في ذلك اليوم يجعلهم صامدين على أقدامهم بدرجة كافية، لكي يبدو ماجدين حتى لو لم يكونوا هكذا. يطلبون منتصف الرصيف؛ ويصفرون بهدوء في أبواب غير مضاءة.

لايدوم ذلك طبعاً، وفيما بعد أربع وعشرين ساعة يرجعون خائفين ويستعيدون لأنفسهم أي عجز في المتناول. ولذا فإن نهايات الأسبوع، مقدّر لها أن تخب، فهي حادة النغمة، ونكدة، ومرشوشة بالرضوض ونقط الدم. الأشياء المؤسفة، التعليقات الجلفة والشرسة، الكلمات التي تصير مراجل نشطة في القلب - لاشيء من ذلك يحدث يوم الخميس. وأنا أفترض بأن الرجل الذي نسميه بها سيكره هذا، ولكن الحقيقة، أن نهاره يوم عشق في المدينة مع صحبة رجال شيعانين. يجعلون النساء يتسمن. وتستعيد الألحان المهموسة ما بين الأسنان الكاملة، تلتقط فيما بعد وتكرّر عند مواقد المطبخ. أمام المرأة، قرب الباب، واحدة منهن سوف تدير رأسها جانباً، وتتمايل، مفتونة بخطّ خصرها وشكل عجيزتها.

عالياً، في ذلك الجزء من المدينة هناك - والذي أتوا من أجله - تكون النغمة الصحيحة المهموسة في مدخل، أو الصاعدة من دورات وأخاديد اسطوانة، التي يمكنها أن تغيّر الطقس. من الجليد إلى الحرارة إلى الرطوبة.



في مثل ذلك اليوم من يوليو، من تسع سنين مضت تقريباً، كان الرجال البديعون مبتدرين. وقفت «أليس منفريد»، في طقس صيفي معتاد، رطب ومشرق، ثلاث ساعات بالطريق الخامس، تندهب للوجوه السود في البرد وتنصت للطبول التي تحكي ما لا تقدر عليه النساء الماجدات والرجال الزاحفون. إن ما يمكن قوله كان مطبوعاً على راية رددت بضغ وعود عن «إعلان الاستقلال»، وكانت الراية تلوّح على رأس حاملها. لكن ما كان مقصوداً عبّر عنه الطبول. كان ذلك في يوليو ١٩١٧ حين كانت الوجوه البديعة هادئة وفي البرد؛ تتحرك بطيئاً للمكان الطبول التي شيدت من أجلهم.

أثناء الزحف، بدال «أليس» - بين ما انقضى النهار، والليل أيضاً - أنها لم تزل تقف هناك، يد الفتاة الصغيرة في يدها، تحدّق في كل وجه مبتدّر قد عبر. الطبول والوجوه المتجمدة تؤذيها، لكن الأذى كان أفضل من الخوف، وكانت «أليس» تخاف من زمانٍ طويل - بداية الخوف كان في «أليونا»، ثم «سبرنجفيلد»، ف «مازاشوتس»، فالطريق الحادي عشر، فالطريق الثالث، فطريق «بارك». وأخيراً، بدأت تستشعر الأمان في أي مكان جنوب الشارع ١١٠، بينما كان الطريق الخامس بالنسبة لها هو أكثر شيء مخيف. ذلك، لأن الرجال البيض يميلون من سياراتهم بأوراق الدولار الملفوفة وهي تلوّح من راحات أيديهم. وهناك كان يلمسها بائعو المخلات، يلمسونها هي فقط كما لو أنها جزء من البضائع التي يلاطفون في ابتياعها؛ مثل ذلك النسيج المطلوب لو سمحت لك الإدارة في أن تجربي بلوزة (ولكن لا للقبعة) في متجر. تلك كانت هي، امرأة في الخمسين، بموارد مستقلة، اسمها بدون لقب. حيث يقول النسوة المتحدثات بالانجليزية «لا تجلسي هناك، يا عزيزتي، فأنت لاتدرين ماذا يخبرن» أما اللواتي لا يعرفن الانجليزية وليس بمقدورهن تملك زوج من جوارب الحرير فيتزحزن بعيداً عنها لوجلسن قربهن في التروولي.

والآن، من منحني إلى آخر، في الطريق الخامس، جاء مدّ من وجوه سوداء مبتدرة، صامته، وعيونهم مطفاة، لأن ما كانوا يقصدون قوله ولا تسعفهم أنفسهم عليه تقوله الطبول نيابة عنهم، وما يرونه بعيونهم ومن خلال عيون الآخرين تكون قد وصفته الطبول إلى حدّ الكمال. لقد أذاها الأذى، لكن الخوف زال أخيراً. وكان الطريق الخامس عندئذ هو محطّ الأنظار، ولهذا

كانت تخفي منه الفتاة اليتيمة حديثاً والتي صارت تحت مسؤوليتها. من حينها وهي تخفي شعر الفتاة بعقصات تنشي لأسفل، خشية أن يراه الرجال البيض منسلاً على كتفها فيدفعون بأصابعهم المطوية على الدولار نحوها. علمتها الصمم والعمى - كم يكون ذلك نافعاً وضرورياً لها في صحة الرجال البيض المتحدثين بالإنجليزية وبغيرها، كما هو نافع في وجود أطفالهم. علمتها أن تسير باحتذاء حوائط المباني، وتختفي في المداخل، وتدور إلى الأركان وقت ازدحام المرور - كيف تفعل أي شيء، وتنتقل لأي مكان حتى تتجنب ولداً أبيض لا يزيد عمره عن الحادية عشرة. أكثر من ذلك، أمكنها التأثير على ملابسها، وحينما كانت تكبر الفتاة، فلا بد من وضع بنود خاصة مدروسة في الحسبان. الأحذية ذات الكعب العالي بأشرطة رشيقة على بوزها، القبعات المغوية المحبوكة على الرأس بحواف أنيقة تؤطر الوجه، الماكياج من أي نوع - كل ذلك كان مجزياً في بيت «أليس منفريد». خصوصاً المعاطف المقورة لأسفل على الظهر وبدون أزرار، لكنها معشقة، كروب حمام أو فوطة حول البدن، تجبر النسوة اللواتي يرتدينها على الظهور وكأنهن يخطين خارجات من البانيو وجاهزات للسريير على الفور.

وبشكل خاص، كانت هذه المعاطف والنسوة اللواتي يرتدينها تعجب «أليس» كثيراً. فقد كانت تخطط بطانات هذه المعاطف، حين تحس بالحنين للعمل، وكان عليها أن تتطلع مرتين من فوق كتفها عليها، وذلك عندما كانت تتجول في الطريق السابع بمحلات «جاي نورثسترز» و«ستي بيلز»، فقد كانت بديعة. لكن «أليس» كانت تنطوي على هذه المتعة الحسود المضطربة، ولم تدع الفتاة ترى كيف أنها تعجبها ملابس تلك الجاهزات للسريير في الشارع. أخبرت أخوات «ميللر»، اللواتي كن يلاحظن الأطفال الصغار بأثناء النهار بديلاً عن أمهاتهم العاملات خارج المنازل، كيف كانت مشاعرها. لم يكن بحاجة لاقتناع، فقد كن يتطلعن إلى «يوم الحساب» لمدة اثنتي عشرة عاماً، ويتوقعن الراحة الجميلة في أي لحظة من الآن. كان لديهن قوائم لكل مطعم أو ناد يبيع الكحول، ولم يكن يبلغن عن مالكيها والزبائن إلى الشرطة حتى تكتشف مثل هذه الأشياء، ففي «راكيت سكود»، كان ذلك لا يثير الضيق فحسب، بل يزيد عن المحتمل.

عندما كانت «أليس منفريد» تجلب الفتاة الصغيرة من عند «أخوات ميللر»، في تلك الأمسيات التي تلي أيام طلبية التطريز، كانت تجلس النسوة الثلاث في المطبخ للهمهمة والندب على أكواب «البوسطم» عند بدايات أغنية «الموت الوشيك»: «*» كانت ركبن لا مكاحلن فقط هي التي تملأ المنظر، روج الشفة الأحمر كنار الجحيم؛ أعواد الكبريت المحترقة تحك بأجفانهن؛ أظافر الأصابع المسحوبة بطلاء دموي - فلا تستطيعين تمييز العواهر عن الأمهات. والرجال، كما تعرفين، فإن ما يفكرون به لا يقال لأي امرأة عابرة قربهم ولا يمكن تكراره أمام الأطفال. لا يعرفون بالتأكيد، لأنهم يتشككون في أن الرقص شيء أكثر من كربه، حيث تصير الموسيقى أسوأ وأسوأ في كل آن عابر ينتظره الرب ليجعل ذاته معروفة للخلق. الأغاني التي كانوا معتادين

(*) أغنية زنجية مشهورة في تلك الفترة. (المترجم)

أن تهلّ على رؤوسهم وتملأ القلب تهبط، تهبط لأماكن تحت الوشاح والأحزمة المربوطة. أسفل وأسفل، حتى تصير الموسيقى كحقيقة مجرّدة، فعليك أن تغلّقي نوافذك وتعماني من عرق الصيف فقط، حين يسند الرجال أنفسهم بأكمام قمصانهم على حلق النوافذ، أو يتحلّقون أعالي الأسطح، وفي الأزقة، وعلى المنحنيات، وفي شقق الأقارب، يعزفون الهراء الحقيقي، أغنية «الموت الوشيك». حينها تغني امرأة بوليد على كتفها والمقلاة في يدها تعال على وسادتي حيث اعتاد حبيبي أن يكون... من زمان، من زمان، من زمان. ويمكنك سماع ذلك في أي مكان. حتى لو كنت تعيش، مثل «أليس منفريد» و«أخوات ميللر»، في «كليفتون بليس»، حيث كل مائة ياردة هناك شجرة مورقة بارتفاع ستين قدماً، شارع هادئ بما لا يقلّ عن خمس عربات يركنّ على الناصية، ولا يزال بإمكانك سماعها، وليس من بأس في أن يسمعا الأطفال الذين تحت رعايتهن - يكوّمون رؤوسهم ويرنّحون عجيزاتهم المضحكة كالصرر.

فكرت «أليس» بأن الموسيقى الحقيقية (كان الوضع في «ألينوا» أسوأ منه عن هنا) لها فعلٌ ما في النسوة السود الصامتات ورجالهن الزاحفين على الطريق الخامس للإعلان عن غضبهم على الموتى المئتين في «إيست سانت لويس»، اثنان منهم كانا أختها وزوج أختها، الذين قتلوا في الشغب. ولذا أتلّف كثير من البيض الصحف التي لم تطبع رقم القتلى. قال البعض بأن المشاغبين ماهم إلا محاربين ساخطين قاتلوا في كل الوحدات الملونة، وقد رفضوا خدمات «يو إم سي إيه»، (*هناك وهنا، وعادوا للعنف مع البيض بحدة أكثر مما كانوا عندما تطوّعوا، وعلى غير عادة المعارك التي حاربوا فيها بأوروبا، كان هذا قتال أمريكيّ دونما رحمة وإجمالاً بدون شرف. وقال آخرون بأن البيض كانوا خائفين من موجة زنوج الجنوب التي تجتاح المدن، باحثين عن عمل وأماكن للمعيشة. ظن البعض ذلك، وقالوا كم كان متقناً تنظيم العمال، (كانوا مثل تفاح معطوب في براميل بدون غطاء، بدون المادة المسكرة، ولاحتى مراقبة رشيدة) لكن لا أحد منهم سيمكنه الخروج من البرميل. على أية حال، ظنت «أليس» بأنها عرفت الحقيقة أكثر من الآخرين. فزوج أختها لم يكن محارباً، وكان يعيش في «إيست سانت لويس» من قبل الحرب. ولم يكن محتاجاً لوظيفة رجل أبيض - فقد كان يملك صالة مراهنات. والحق يقال، لم يكن حتى بالشغب، ولا عنده سلاح، ولم يواجه أي واحد في الشارع. لقد اجتذب من ترام ودقّ حتى الموت، أما أخت «أليس» التي جاءتها الأنباء فقد عادت للبيت تحاول أن تنسى لون أحشائه، بعد ذلك أشعلوا في بيتها فاحترقت كالهشيم بشعلته. وكانت طفلتها الوحيدة، بنت صغيرة باسم «دوركا»، تنام عبر الطريق مع أعزّ صواحبها، ولم تسمع عربة الإطفاء وهي تلعلع بالرنين هادرة على الشارع، فهي لم تأت أصلاً حين استدعيت. لكنه لا بد وأن رأّت الشعل، ضروري، لأن الشارع بأجمعه كان يصرخ. لم تقل شيئاً. لم تفه بأي شيء عن ذلك. لقد مشت وراء جنازتين خلال خمسة أيام، ولم تقل كلمة.

فَكَرَّت «أليس»، لا. لم تكن الحرب ولا المحاربين الساخطين، لم تكن قطعان وقطعان من الملوثين في أرتالٍ إلى الاستيداع وتمتلىء الشوارع بهم. لقد كانت الموسيقى. الموسيقى القذرة، التي تتخافت حين تغنيها النساء ويعزفها الرجال وكلاً قد رقص عليها، متقاربين بدون خزي أو متباعدين ووحشيين. كانت «أليس» مقتنعة وكذا «أخوات ميللر»، أثناء ماكنٍ ينفخن بأكواب «البوسطم» في المطبخ. وهذا يجعلك تؤذين أشياء مشوشة حمقاء. كان مجرد سماع هذه الموسيقى يعتبر خرقاً للقانون.

لم يكن أيّاً من ذلك في زحف الطريق الخامس. فقط الطبول والشرطة الملوثون يؤزعون نشرات تفسيرية للبيض في قبعات قشّ والذين كانوا يؤدون معرفة ماقد عرفته الوجوه المبتردة فعلاً. التقطت «أليس» نشرة كانت تطير إلى الرصيف، قرأت الكلمات وترنحت بثقلها عند المنحنى. قرأت الكلمات ونظرت على «دوركا». نظرت على «دوركا» وقرأت الكلمات ثانية. ما قرأته بدا مجنوناً، وبعيداً عن المنطق؛ إن فجوة كبيرة قد اندفعت ما بين المطبوع والطفلة. نظرت ما بينهما بجهد لإيجاد صلة، شيء لتغلق به المسافة ما بين الطفلة الصامتة المحذقة والكلمات المجنونة المنزلة. ثم على حين غرة، وكحيل يلقي للنجاة، أقامت الطبول جسراً على المسافة، جمعتهم سوياً، وأوجدت الصلة ما بينهم: «أليس»، «دوركا»، أختها وزوج أختها، شرطة الملوثين والوجوه السود المبتردة، المراقبون على الرصيف والذين في أعلى النوافذ.

حملت «أليس» ذلك الجبل الموصل معها دوماً بعد ذلك اليوم في الطريق الخامس، ووجدت أنه أمان يوثق به ومشدود - في معظم الوقت. إلا عندما جلس الرجال على عتبات النوافذ يعزفون نفيهم، والنسوة يتعجبن «من زمان»، انقطع الجبل عندها، مزعجاً سكينتها، داعياً لها أن تراعي «لحمها» شيئاً تحرر حتى أنه بإمكانها أن تشم رائحة دمه، داعياً لها حياة الشيء تحت الوشاح وروج الشفة الحمراء. وقد عرفت من المواعظ واقتراحات الصحف أنها ليست موسيقى حقيقية - مجرد هراء الجماهير الملونة: تؤذي بالتأكيد، تترك بالطبع، لكنها لاهوائية ولاجادة.

فوق ذلك، أقسمت «أليس منفريد» بأنها سمعت غضباً متراكباً في الموسيقى؛ شيئاً معادياً ينكر نفسه كإغواء هادر ومزدهر. لكن ماكرهته فيها هو جشعها، توقها للسحق، للشقّ طويلاً؛ نوعاً من الجوع المهمل لمعركة، أو دبوساً من ياقوت أحمر لكرافتة - أيها ستؤديه. فهي تزيف السعادة، وتزييف الترحيب، لكنها لا تجعلها تحسّ بالكرم، هذا الملهم الرخيص، منقوع براميل، منزل متقوض، موسيقى. جعلتها تضع يدها في جيب مريلتها لتحفظها من التهشيم خلال لوح الزواج لأنها كانت تريد أن تخطف العالم في قبضتها لتعصر منه الحياة أداءً لأي شيء تفعله وتفعله وتفعله من أجلها ومن أجل أي شيء آخر قد عرفته أو سمعت به. أفضل لها أن تغلق النوافذ والمصاريع، وتعرق في حرّ الصيف بشقة «كليفتون بليس» الصامتة عن أن تغامر بنافذة محطمة أو عواء ربما لاتدري أين أو كيف توقفه.

لقد رأيتها، تعبر مقهى أو نافذة بدون ستارة حينما جرتها عبارة أو أخرى - «اضربني لكن لاتهجرني» - وراقبتها وهي تمدّ يداً لحبل الوصل الآمن الملقى إليها منذ ثمانية أعوام مضت في الطريق الخامس، وقد كوّرت يدها الأخرى كقبضة في جيب معطفها. لست أدري كيف فعلت هذا - توازن نفسها بإيماءتين من يدين مختلفتين. لكنها لم تكن وحدها في المحاولة، ولم تكن وحدها في الخسران. كان من المستحيل الإبقاء على طبول الطريق الخامس منفصلة عن نغمات أطواق الأحزمة المهترئة من وقع البيانوات والمنسوجة من حاكي «الفكترولا». مستحيل. بعض الليالي كانت رازحة، مامن سيارة تدور على مدى السمع؛ لاسكارى أو مواليد متقلبين سيكون طلباً لأمهاتهم، وتفتح «أليس» أي نافذة تريدها فلا تسمع أي شيء على الإطلاق.

تتعجب من هذه الليلة الرازحة بطولها، يمكنها أن تعود للنوم، لكن بمجرد أن تُدِير المخذة على جانبها الأشد ليونة، والأكثر رطوبة، فإن خطّ لحن يكون في رأسها، وهي لا تدري من أين ينبع بذاته صاخباً ومنسلاً. «حين كنت صغيرة، وفي ريعاني، كان يمكن أن أجلب الثور من ذيله». كانت الكلمات طماعة، منهورة، سائبة وحائقة، لكن من الصعب طردها لأنها في العمق، تقبض على الانسيال كراحة يد، هي الطبول التي تضع الطريق الخامس في الاعتبار.

بنت أختها، طبعاً، لم تدر بالمسألة. كانت «أليس» تُعيد ترتيبها، وتقومها، منذ ذلك الصيف في ١٩١٧. ورغم أن أقرب ذكرياتها كان الاستعراض الذي أخذتها خالتها إليه عند وصولها من «إيست سانت لويس»، كان نوعاً من الاستعراضات الجنائزية لأبيها وأُمها، فإن «دوركا» تتذكّره بطريقة مختلفة. بينما كانت خالتها تقلق كيف تجمل القلب جاهلاً بالعجيزة والرأس مسؤولة عن كليهما، كانت «دوركا» تضطجع على مفروش سرير مغزول، ناعمة وسعيدة تعرف أنه لا مكان تكون فيه لصيقة بشخص ما لا يلعق عصاه المنخورة، أو يمصمص بأنياه، أو يقرع طبوله، نافخاً بنفيره في حين أن امرأة عارفة كانت تغني أما من أجد سيقيني معك، جلبت المفتاح الصحيح حبيبي، لكن الثقب الخاطيء للمفتاح الذي جلبته لتدخله فيه أحضره، وضعه تماماً هنا أو هناك. كانت تقاوم حماية خالتها ويديها الكابحتين، فكّرت «دوركا» في الحياة تلك تحت الوشاح كممثل كل الحياة هناك. الطبول التي سمعتها في الاستعراض كانت الجزء الأول، أو الكلمة الأولى، لدعوة. بالنسبة لها لم تكن الطبول حبل عناقٍ كاملٍ لزمالة، لنظام، أو تسام. فقد كانت تتذكّرها كبداية، بدءٍ لشيء ما تودّ له أن يكتمل.

بينما كانت تعود إلى «إيست سانت لويس»، سقطت الشرفة الصغيرة، برقائقها الخشبية - مشتعلة وتدنخن - وانفجرت في الهواء. لا بد أن إحدى الرقائق هذه دخلت فيها الأبكم المملوط وسافرت في باطن حلقها لأنه دخن ولا زال يتوهج هناك. لم تدعها «دوركا» تخرج أبداً، ولم تطفئها قط. في البدء ظنت أنها لو تكلمت، فستغادرها، أو تخسرهما من خلال الفم. وحين أخذتها خالتها في قطار إلى المدينة، وكانت تسحق يدها بينما تشاهدان الاستعراض

الطويل، فقد كانت رقيقة الخشب المضيفة تغطس أبعد وأبعد حتى آوت بارتياح في مكان ما تحت سرتها. شاهدت الرجال السود غير الهيايين، وأكدت الطبول لها أن التوهج لن يغادرها أبداً، ذلك أنه سينتظر ويكون معها حيثما تود أن تكون ممسوسة به. وحين تدعه لينساب كي ينط في النار ثانية، فإن ما يحدث سيكون سريعاً. مثلما العرائس.

لا بد أنها راحت سريعاً. عرائسها الخشبية، على أي حال، التي كانت في صندوق سيجار خشبي. أولاً جونلة «روشيل» بنسجها الأحمر الورقي. ثم «يسست» كأنها عود كبريت، ثم حرير «برنادين» الأزرق، و«فان» القطني الأبيض من غير كمين. لا بد أن النار أتت تماماً على أرجلها، فحمتها بدايةً بلفحها الحار ومن ثم عيونها المستديرة، بالحواجب والجفون الدقيقة التي خططتها لها بعناية تامة، لا بد أنها شهدت بعضها البعض وهي تختفي. تجنبت «دوركا» التفكير في ذلك الكفن الضخم الراقد أمامها هناك، على بعد بضعة أقدام إلى يسارها، تجلس قربه خالته «أليس» برائحة كالدواء، بأن ركزت تفكيرها في «روشيل» و«يسست» و«فان»، اللاتي لم يكن لهن أي جنازة على الإطلاق. جعلها هذا جريئة. حتى عندما كانت بعمر التسع سنوات في المدرسة الابتدائية، كانت جريئة. على أي نحو كانت نحيفة وخصلاتها معقوفة، على أي نحو كان حذاؤها عالي الكعب رديء الصناعة قد غطى كاحليها في حين كانت أحذية البنات الأخريات خفيفة ومخفوفة الخواف كاشفة كواحلهن، على أي نحو كانت جواربها سوداء وسميكة، فلا شيء يمكن إخفاء الجراة المائسة من تحت جونلتها التي كانت بلون الحديد الزهر. ولا نظارتها أخفت ذلك، ولا البثور على جلدها والتي أتنها من الصابون البني الخشن والوجبات الدنيئة.

حينما كانت صغيرة، اتفقت «أليس منفريد» على الحياكة لمدة شهر أو اثنين، فكانت «أخوات ميللر» يراعينها بعد المدرسة، كان هناك أربعة أطفال آخرين في الغالب، وأحياناً واحد آخر. كان لعبهم هادئاً ومقصوراً على مساحة صغيرة بغرفة الطعام. الأخت «فرنسيس ميللر» كانت بذراعين - تعطيهم سندوتشات زبدة التفاح ليأكلوها، أما «نيولا» - والتي بذراع واحدة - فقد كانت تقرأ عليهم الترانيم. وكان هذا النظام الصارم يتلطف أحياناً حين تقيل «فرنسيس» عند مائدة المطبخ. وربما تتعب «نيولا» من حبسة الأبيات الرتيبة في صوتها، فتختار طفلاً لإشعال عود لسيجارتها. كانت تأخذ أقل من ثلاث نفثات، ويقلب شيء ما بملامحها شيئاً آخر بداخلها، فتحكي لمن هم في رعايتها قصصاً للوعيد. كانت حواديثها، عموماً، عن فضيلة السلوك القويم التي تنهار أمام رعشة الخطيئة فيرون لها.

والحقيقة أن رسالة تعاليمها قد فشلت، لأنه وبعد أسبوع من وضع خاتم الخطوبة في إصبع «نيولا»، رحل عن الولاية العريس المفترض قريباً أن تزف إليه. وكان ألم رفضه مرئياً، فوق قلبها، زاحفاً كقوقعة، في اليد التي أحكم عليها الخاتم. رغم ذلك، لأمت أجزاء قلبها الحطيم معاً بانعقاد ذراعها الجامدة. لم يلمسها الشلل في أي جزء آخر. يدها اليمين، والتي تقلب بها

صفحات العهد القديم رقيقة النسيج، أو تمسك بسيجارة «أولد جولد» إلى شفيتها، كانت مستقيمة وثابتة. لكن قصصها التي تخكيها لهم عن فساد الأخلاق، وعن الأشرار الذين يحتالون على الخيرين، كانت مثيرة للمشاعر أكثر من هذه الذراع المعلقة على الصدر. لقد حكمت لهم كيف أنها شخصياً نصحت صديقة كمي تحترم نفسها وتهجر الرجل الذي لانفع منه لها (أو لحالها). وافقت الصديقة أخيراً، ولكن في خلال يومين اثنين! رجعت فوراً إليه، فليرحمنا الله جميعاً، ولم تعد «نيولا» تحادثها قط بعد ذلك. وحكت لهم كيف أن فتاة صغيرة جداً، لاتزيد عن الرابعة عشرة، هجرت العائلة وصواحبها كمي تتسكع أربعمئة ميلا وراء ولد التحق بالجيش فقط ليهجرها خلفه، فاستدّارت لحياة فاسقة في معسكر بالمدينة. وبذا أمكنهم أن يروا، أليس كذلك، قوة الخطيئة في صحبة العقل المريض؟ هرش الأطفال في ركبهم وأومأوا، لكن «دوركا» على الأقل، قد فتنت بالميل الذائب سهل الانقياد لخطيئة اللحم والجنة التي تجعل امرأة تعود فوراً بعد يومين اثنين!، أو تجعل فتاة تسافر أربعمئة ميلا نحو معسكر بمدينة، أو تطوي ذراع «نيولا»، حسن أنها لأمت أجزاء قلبها في يدها. جنة. الكل لأجل الجنة.

في وقت أن كان عمرها سبعة عشر عاماً، كانت حياتها لا تُحتمل كلها. حين أفكر في هذا، أتصور ما كانت تحس به. شيء مفزع أن لا يكون هناك أي شيء لتفعله على الإطلاق أو يستحق بأن تفعله، عدا أن ترقد وتتمنى، حين تكونين عارية فهي لن تضحك عليك. أو يكون هذا هو، قابضاً على ثديك، أفلا تودين أن يتحولاً على شكلٍ آخر. شيء مفزع لكنه يستحق المخاطرة، لأنه لاشيء آخر كمي تفعله، رغم ذلك، عند بلوغك السابعة عشرة، فلتفعله. ادربي، اعملي، تذكري. اقضمي طعاماً ولو كمي سمعة صاحباتك. اسخري من الأشياء سليمة السلوك وتلك خاطئة العاقبة - لا يهم، لأنك لن تفعلي الشيء الذي يستحق بأن تفعله والذي هو راقد بمكان ما شحيح الضوء، مغلفاً بذراعين، ومدعوماً بقلب العالم.

فكري كيف يصير هذا، لو تدبرينه، فتدبريه. الطبيعة تستعرض عليك، إذن. تحول ذاتها لماوى، بالصدفة. مخدات لائنين. نفرش أغصان شجيرات السوسن حتى أنها تخفيك. والمدينة، على طريقتها الخاصة، تهبط إليك، تتعاون، تلين من مفارق طرقها، تصحح وضع أحجار منحنياتها، تعرض تفاحات خضراً وبطيخاً على الزاوية. ساحبات من عصائب رأس صفراء، خيوط سبج مصرية. «كانس فرايد تشيكن» وشيء بالزبيب يستدعي انتباهاً لنافذة مفتوحة حيث الشذا يدايداً يترصد، ولو أن ذلك غير كاف، تقف أبواب حانات سرية مفتوحة جزئياً، وفي ذلك المكان المعتم الرطب يسعل كلارنت مصفياً حلقه ينتظر المرأة التي تصمم على المفتاح. تتخذ قرارها وأثناء ما تمر ببلعك بأنها كانت الملاك الصغير لبابا. المدينة متأنقة عند هذا: فواحة وطيبة لكن تبدو قذرة؛ تبعث برسائل سرية متتكرة كإشارات عمومية: هذا هو الطريق، افتح هنا، خطر أن تسمع للمون، فقط للرجال العزاب، أو كازيون، امرأة تريد غرفة خاصة، قف يا كلب على، مقدمات بشكل مجرد، لا مال، أسفل دجاج طازج، توصيل مجاني سريع. والخير بأقوال

مفتوحة، درج معتم غطّ على عويلك بعويلك.

كانت ليلة في عام «دوركا» السادس عشر، حين كانت تنتصب بجسمها لتقدمه يرقص مع أيّ من الأخوين. كلا الولدين كان أقصر منها، لكنهما جذابان بدرجة متكافئة. أكثر من هذه المسألة، فقد منعنا تخطّي أي واحد وحين احتاجا لمنافسة حادة رقصا جبراً سوياً. راحت إلى الحفلة مع أقرب صواحبها «فيليس»، وكان من الصعب ترتيب ذلك، لكن حدث أن كان لدى «أليس منفريد» عمل ليلي إضافي في «سبرنجفيلد» فتيسر ذلك للغاية. وكانت الصعوبة الوحيدة أن تعثر على شيء تعبلي اللون ترتديه.

صعدت الفتاتان السلم، وانقادتا مباشرة للمكان الصحيح بسماع البيانو من دعامة الباب أكثر من تذكّرهما لرقم الشقة. وقفنا لتبادل النظرات قبل طرق الباب. وحتى في مدخل الصالة المعتم، قد أبرزت الصديقة ذات الجلد الأسود علبة الكريم للأخرى. وكان شعر «فيليس» الزيتي يعزّز جمال مويجات شعر «دوركا» الجاف الخفيف. فتّح الباب ودخلتا.

قبل إطفاء الأنوار، وقبل اختفاء السندوتشات والصدود المسكرة، تعامل أحدهم مع الحاكي مختاراً موسيقى سريعة تلائم الغرفة المضاءة اللامعة، في حين دفع الأثاث الذي كان عائقاً باتجاه الحوائط، وجر إلى مدخل الصالة، وتكوّمت المعاطف عالياً بغرف النوم. تحت نور السقف تحرك كل زوج كثرهم مولود معاً ولو لم يكونا كذلك، فإن الآخر يشارك اندفاعه الرفيق وكأنه وريد ثان. يظنان بأنهما يعرفان ما تفعله الموسيقى بأيديهما وأرجلهما، لكن الوهم كان في الانجذاب الباطني للموسيقى: التحكم في أنها تتخذهما بتصور أنها لهما؛ بالجدس الذي تحدسه. وما بين تغيير اسطواناتين، تخنق بلوزة الفتاة الهفهافة هواء الترقوة الرطب أو ترتبت عليها أيد منفعة، فالرطوبة تلتف شعرهن، ويضغط الأولاد بمناديلهم المطوية على جباههم. يغطي الضحك على النظرات الطائشة بالترحيب والوعد، فيخلع عن ملامحهم قشرة التضليل والتهتك.

لم تكن «دوركا» ولا «فيليس» غريبة عن الحفلة - ولا أي واحد. وكان الناس الذين لم ير أحدهم الآخر من قبل، ينضمون للمرح بسهولة من تربوا معاً في مبنى واحد. ولكن كلا من الفتاتين لها توقعات زاهدا اضطراباً ذلك التجهيز المخطط للمغامرة. كانت «دوركا» في السادسة عشرة، ليس بعد لكي ترتدي شورتاً حريراً، وكان حذاؤها إما لشخص أصغر أو أكبر كثيراً. وقد ساعدتها «فيليس» في تفكيك خصلتين وراء أذنيها بينما تلتأخ إصبعها بالروج الذي دلّته على شفيتها. كان فستانها بمظهر البالغة، بياقة المقلوبة لأسفل، لكن يد امرأة أخرى كبيرة كانت تحذرهما اتضحت بكل مكان آخر: في الخصر، والحزام المطوق لحقويها، والأكسام القصيرة المنتفخة. حاولت هي و«فيليس» إعادة زحزة الحزام كلياً، ثم ثبتته عند سرتها. برهن الأمران على أن كلا كربه. فقد عرفنا أن جسماً بجلد رديء هو لا جسم على الإطلاق، وكان على «فيليس» أن تلغو بالجاملات طيلة الطريق السابغ لتجعل «دوركا» تنسى ملابسها وتركّز في الحفلة.

كانت الموسيقى تخلق إلى السقف والنوافذ المفتحة على اتساعها بالصخب حين دخلنا. على الفور تخاطفت الفتاتين أيدي الذكور، ودوموا بالرقص في وسط الغرفة. تعرّفت «دوركا» على شريكها «مارتن» والذي تذكّرت له لحظة حرج حدثت في حصة المطالعة - طالبت بمقدار ما أدرك المعلم أنه خلّى «سقل» محل «سأل». كانت «دوركا» ترقص جيداً - ليس بسرعة مثل الآخرين، لكنها كانت رشيقة، رغم ذلك الحذاء المخزي، فقد جعلها مستنفرة.

بعد رقصتين أخريين، كانت تلحظ أن الأخوين قد لفتا انتباه الجميع في غرفة الطعام. فقد كانا مثيرين للإعجاب في الشارع، وفي الدهاليز بخفلات المنازل، يتحركان كحريز مشدود أو معدن محلول. وكان هز البطن الذي وافقت فيه «دوركا» مع «فيليس» هو علامة الاهتمام الحقيقي والحب المحتمل بأن يظهر ويتغلغل، بينما كانت «دوركا» تراقب الأخوين. راحت كل السندوتشات الآن، وسلطة البطاطس أيضاً، وعرف الكل بأن وقت إطفاء الأنوار قد حان، وتقترب الموسيقى. كان الأخوان، بالرشاقة التي لا تصدق، وفي توقيت الثانية الفاصلة، يؤديان عرضاً يعلن ذروة الرقص السريع بالتفريق ما بينهم في الحفلة.

وتنتقل «دوركا» إلى الصالة المتوازية مع حجرتي الطعام والمعيشة. من ظلالها، وخلال المدخل المقنطر، ألقت نظرة غير مكبوحه على الأخوين حين كانا يؤديان خاتمة مذهلة. قبلا المديح، الذي كان من حقهما، ضاحكين: نظرات هيام من الفتيات، وياقات تهنئة وترية على الخدين من الأولاد. كان هذان الأخوان بوجهين رائعين. وكانت بسماتهما، المفترّة عن أسنان دون عيب، داعيتين ومبهجتين. وكان شخص يتخاّنق مع حاكي «الفكترولا» حينذاك؛ يضع الذراع، فتخرجش الاسطوانة، فيحاول ثانية، ثم يغيّر الاسطوانة بأخرى. بأثناء السكوت، راقب الأخوان «دوركا». كانت أطول مما يجب، وتحذق فيهما من فوق رأس صديقتها السوداء. عيون الأخوين تبدو وسيعاً ومرحبة لها. وهي تحركت من الظلّ للأمام وانزلت خلال المجموعة. رفع الأخوان من فوالت ابتسامهما. تدار الاسطوانة الصحيحة من قرص الحاكي الآن؛ يمكن سماع هسهسة التجهيز بينما كانت الإبرة تنزاح تجاه التجويف الأول. ابتسم الأخوان بإشراق؛ وانحنى أحدهما أقل من بوصة تجاه الآخر، غير خاسر وصال عينه مع «دوركا»، هامساً بشيء ما. نظر الآخر على «دوركا» من فوق لتحت حين تحركت نحوهما. من ثم، وبينما الموسيقى بطيئة وتدخن، شمل الهواء لأعلى، فقد كانت بسمته لامعة كما هو دائماً، لكنه جعل أنفه وانصرف.

عرفت «دوركا»، خمنت وانطردت في ذات الوقت الذي أخذته الإبرة كي تجتد تجويفها الافتتاحي. ولم يكن هز البطن كحب محتمل يقارن أبداً بطوفان الجليد الذي سدّ أوردها تماماً الآن. الجسم الذي تسكنه لا يستحق. رغم أنها شابة ورغم كل ما تملكه، فقد كان ذلك وكأنها تتحلل على كرمة وقت التبرع. لا عجب إذن أن «نيولا» أغلقت ذراعها ولأمت أجزاء قلبها في

يدها.

ولذلك، فحين همس لها «جو تريس» من خلال طقطقة الباب الذي ينغلق، كانت حياتها على التقريب لا تحتمل. إن لحمها، ازدراه الأخوان على نحو ثقيل، وقد حمل سرّاً شهية الحب التي تحوم من باطنه. رأيت سمكة منتفخة، عمياء في سكينه، طافية على السماء. وكانت هذه السفينة الهوائية دونما عيون، ولكنها موجّهة نوعاً لتسبح تحت رغبة الغمام، وليس لأحد أن يتخلّى عن منظرها لأن ذلك يبدو كمراقبة لحلم سري. ذلك كان يشبه جوعها: مسمراً، موجّهاً، طافياً، وكأنه سر عام تحت غطاء الغمام. كانت «أليس منفريد» تعمل بجهد لتبلي ما تحتاجه بنت أختها، لكنها لم تكن كفوّاً لمدينة ذات موسيقى سائبة ترجو وتتحدّى الجميع وفي كل يوم. «تعال»، تقول. «تعال واقترف خطأ». حتى الجدّات كائنات السلايل، فقد كن يغلقن أعينهن ويلقن رؤوسهن للوراء بينما يحتفلن بأساهن الأثير. «لا أحد يلبي حاجتي مثلك، اكفني». في العام الذي مرّ بين طردة الأخوين الراقصين واجتماع «أليس منفريد» مع النادي، كان نير «أليس» يحكم وثاقه حول عنق «دوركا» الذي رث حتى انشطر.

كان آخرون غير نساء النوادي، قليل جداً، يعرف أين قابلها «جو تريس». لا عند قسم الحلويات بالصيدلية المتجر «دجي» حيث قابلها لأول مرة، وتساءل إن كان ذلك النعناع الذي اشترته هو ما أهان جلدها، المنير والقشدي بكل مكان عدا خديها. وقد قابل «جو» «دوركا» هناك في بيت «أليس منفريد» تحت أنفها وأمام عينيها مباشرة.

لقد ذهب هناك لتسليم طلبية «شيل»، ابنة عم «ملفون إدوارد»، قالت بأن لو جاء «جو» إلى ٢٣٧ «كليفتون بليس» قبل الظهر، فيمكنه تسليمها الطلبية، الشامبو والكريم سريع الامتصاص، هناك مباشرة، فربما لا تنتظر حتى السبت التالي وتجيء كل ذلك الطريق إلى «لينوكس» ليلاً لتأخذها، إن لم يكن بالطبع يريد المحيى لشغلها هذه...

قرّر «جو» أن عليه الانتظار حتى السبت التالي، لأن تحصيل دولار وخمسة وثلاثين سنتاً لن يسهل. لكنه، وبعد أن غادر منزل «مس رانسام»، ووقف لمدة ربع ساعة يشاهد «بد» و«سي. ت.» يسبان بعضهما على رقعة الشطرنج، صمم على أن يرجع إلى «شيل» مباشرة وسريعاً لينفض من هذا النهار. كانت معدته حامضة قليلاً وقدماه تؤلمانه بالفعل. لم يكن يريد تسليم أو حجز طلبيات في المطر أيضاً، المطر الذي يهدّد دائماً صباحات أكتوبر الدافئة. ولأن عودته مبكراً كانت تعني مرافقة ممتدة مع «فيولت» الصموت، في حين كان يحتاج أيضاً من مجلس الروائح المنخفض أو البكرة التي أمالت حبل الغسيل على جانبيها من المبنى، وكذلك وجبة السبت المشبعة التي مبكراً: خضار أواخر الصيف المطبوخ على عظمة فخذ الخنزير المتخلّفة عن الأحد السابق. كان «جو» يتطلّع لوجبات نهاية الأسبوع الهزيلة والمجمّعة من البقايا، ولكن كان يكره وجبة الأحد: لحم فخذة خنزير مطبوخ، وفطيرة ثقيلة الحلاوة بعدها. وكان تصميم «فيولت» على تربية حمارٍ تسبّ اليوم الذي اقتنته فيه؛ كاد أن يقتله.

كان ياما كان، أنه يتباهي بطبيخها. أنه لا يقدر على الانتظار حتى يعود إلى البيت ويلتهمه. لكنه في الخمسين الآن، وفيها تتغير الشهية، كما نعلم: كان لازال يحب الملبس، الناشف - لاحلوى الرب أو الكراميل - وهو كريات حمضية كان يفضلها. ولو قيدت «فيولت» نفسها بالشورية والخضار المسلوق فقط (مع قطعة خبز تماشيها)، فسيكون راضياً تماماً.

ذلك ما كان يفكر فيه حين وجد ٢٣٧ وصعد السلم. كان الجدل ما بين «سي. ت. و. بد» حول مصير الطابية معقولا، ومضحكاً للغاية: فقد أنصت لهما أطول مما لا بد، لأن الوقت صار بعيد الظهر عند وصوله هناك. سمع ضوضاء امرأة من خلال الباب. ورّن «جو» الجرس على أي حال. ردّت على الباب فتاة النعناع ذات الجلد الرديء، وبينما كان يخبرها من هو وما الذي جاء به، كانت «شيل» تنأ برأسها للرددة وتصرخ «عفواً جو تريس، تدهشني هذه المرة». ابتسم وخطا داخلاً من الباب. وقف هناك مبتسماً، ولم يضع شظية عيّنته على الأرض حتى جاءت مضيفة المكان، «أليس منفريد»، وأخبرته أن تعال إلى القاعة.

سرى طربّ بينهم حين قاطع اجتماع أنسهن. كان لقاء مأدبة غذاء لبنات الحي كمي يخططن لصندوق النذور المقام على شرف نادى عمال الزوج المحليين. كن أقرن مافي وسعهن، وجدولن ما كان ضرورياً، وساعتها كن يبدآن على دجاجة الغذاء الملكي والذي تحمّلت منه «أليس» أكبر الغرم. كن مبتهجات وسعيدات، بعملهن معا وبصحة كل منهن للأخرى، ولم يكن يعرفن ما ينقصهن حتى بعثت «أليس» بـ «دوركا» لتردّ علي رنين الباب، وتذكرت «شيل» ما كانت قالت له «جو»، وقفزت حين سماعها صوت الذكر. جعلته يحسّ كأنه مثل الرجال المنشدين في المشاجرات، الشباب المتحلّقين على النواصي مرتدين كرافات بلون المناديل المتصقة بجيوب صدورهم وخارجة منها، الديوك المغرورين الصغار الواقفين بدون انتظار للدجاجات اللواتي ينتظرن - من أجلهم. وتحت عيون النسوة المثمنة والمغازلة، شعر «جو» بلذة بسمته رغم غبار المشاجرات الذي غطى على بوز حذائه.

ضحكن، وكن يطرقن على مفرش المائدة بأطراف أصابعهن، وبدأن يثرنه ويعتفنه ويهمن به، كل ذلك معاً وفوراً. أخبرنه كيف أن الرجال الطوال من نوعيته يجعلهن يتذمرن من بلاّته وعجرفته. وسألنه ماذا يحمل أيضاً في شنطته، بالإضافة لما جعل «شيل» منفعة تماماً. وتساءلن لم لم يرّ أجراس أبوابهن قطّ، أو يصعد مثل هذه المجموعات الأربع من السلالم المزدوجة ليسلم لهن أي شيء. وتغنّين بإطرائهن، بشتائمهن، بينما قيدت «أليس» نفسها بابتسامة شاحبة، ونظرة محكمة، فلم تنضمّ لتعليقات من كنّ حولها.

مكث بالطبع لحدّ الغذاء. بالطبع. رغم أنه لم يحاول التزوّد من أي طعام كثيراً، وأفسد شهيته لخضار أواخر الصيف الذي كان متأكداً أن «فيولت» سلقته له في الوعاء. لكن النسوة كن يلمسن شعره وينظرن مباشرة إليه، متأملات عينيّه اللثنتين بلونيهما المختلفين، وكن يأمرن:

« تعال هنا دوماً، يارجل، وأرح نفسك. هل نُثِّبَت لك طبقاً معنا؟ دعنا نُثِّبَت لك طبقاً. احتججْ، فأصبرن. فتح شنتطه؛ وعرضن شراء ما فيها جميعه. «كل، يا حبيبي، كل»، قلن له. «لن تخرج في هذا الطقس البارد كالسلّ من دون أي شيء تلصقه بعظامك، أَلَمْ تَحْسَبْ بأي شيء من كوننا كلنا معك هنا، «دوركا»، يابنت، هاتي طبقاً فارغاً للرجل حتى أملاًه له، سمعتِ؟ هش، شيلاً».

كن نساء عمره غالباً، لهن أزواج وأطفال، وحفداء أيضاً. يعملن بجِدٍّ من أجل أنفسهن ومن أجل أي واحد آخر يحتاجهن. وكن يعتقدن بأن الرجال سخيون لذيدون ومفرعون، فهم ينتهزون كل فرصة تمنح لهم ليجعلوهن يعرفنهم على ما هم عليه. وفي مجموعة مثل هذه، فيمكنهن الاكتفاء بالحصانة مما يحذرن منه، أن يختلين بأي رجل، غريب أو حبيب، أو من يرنّ جرس الباب بشنطة العينة في يده، لايهمن مقدار طوله، وكم أن بسمته ريفية ومقدار الحزن الكبير في عينيه. زيادة على هذا، فقد أعجبهن صوته. فيه بحة، رسالة كن سمعنها فقط حين قمن بزيارة العجائز العنيدن الذين لم يتزحزحو عن أفئتهم وحقولهم المشقية ليأتوا المدينة. وذكرهن هذا برجال لهم قبعات يرتدونها في الحرث ويأكلون فيها بالعشاء؛ وينفخون في فناجين قهوتهم، ويمسكون بسكاكين في قبضاتهم حين يأكلون. ولذا نظرن عليه وأخبرنه بطريقة ما كم أنه سخي ومفرع ولذيد. كما لولم يكن يعرف.

عول «جو ترين» على النسوة المرتجئات بالضحك في أن يشتري بضاعته، لأنه كان يعرفهن أكثر من كانوا يعاشرونهن. حتى لو لم يكن قادراً على الانحاء على مائدة رهان برميّة معروضاً ظهره لأزواج زبونات. لكنه في ذلك اليوم، في بيت «أليس منفريد»، بينما هو منصت ومسترجع لمزاحهن، فقد قرّر قراراً حاسماً باتخاذهن زبونات جدداً. تعجبت من ذلك. ما فكر فيه عندئذٍ وبعدها، وما قاله لها. همس بشيء إلى «دوركا» حين ودّعه خارجاً من الباب، ولم يبد على أحد أنه كان أكثر سعادة أو دهشة مما كان عليه هو.

لو تذكّرت بشكل صحيح، غداء أكتوبر ذلك في بيت «أليس منفريد»، فإن هناك شيء غريب. كانت «أليس» غامضة، ولم يعرف أي واحد كان معها لمدة الثلاثين دقيقة أن ذلك ليس من طابعها. كانت من نوع اللواتي لهن نظرة تحيل أي إشاعة إلى ضحك مكبوت حين تخرج عن الكتمان وربما لأن لها أفكار خياطة تجعلك تعتقدين بأن ذلك فستان جميل فتشترين جنبها. ولكن يمكنها أن تعدّ مائدة، بطعام ربما كأنه نصيب ولد هزيل، وأظن بأنها تتحامل على الزبدة، فتصنع القليل منها في كعكها. لكن بسكوته خفيف، أما أطباقها وأدوات المائدة فهي مرتبة كما يجب، وتلمع. افتح مناديل سفرتها على وسعها كما تهوي، لا تشوّه في أي مكان. كانت مهذبة عند الغداء بالطبع، ولم تكن متغطرة أيضاً، بل لا تعير كبير اهتمام لأي شيء. كانت مخبولة. بخصوص «دوركا»، محتمل.

فقد كنتُ أظن بأن هذه الفتاة ماهي إلا صُرة أكاذيب. يمكن أن أحكي عن مشيتها، عن ملابسها الداخلية التي كانت لما فوق عمرها، حتى لو لم يكن فستانها كذلك. وبالعودة إلى أكتوبر، وربما بدأت «أليس» تظن ذلك. وقت أن جاء يناير، لم يكن أحد يتأمل. فكل الناس قد عرفت. وإنني أتساءل ما إن كانت قد حدثت شيئاً بخصوص «چو تريس» الطارق على بابها؟ أو ربما قرأت شيئاً هنالك في الصحف المكدسة على طول «السفل» في حجرة نومها.

كل الناس تحتاج كومة جرائد: لتقشير البطاطس عليها، وخدمة احتياجات الحمام، ولف الزبالة. لكن ليس مثل «أليس منفريد». فهي تعيد قراءتها مرات ومرات، وإلا فلماذا تحتفظ بها؟ ولو قرأت شيئاً في صحيفة مرتين، فهي حتماً سوف تعرف القليل جداً من ضمن الكثير جداً. لو لديك أسرار وتودين حفظها أو ترغبين في تخيل ما يكون عليه الآخرون، فيمكن للصحيفة أن تغير رأيك. أفضل شيء لاكتشاف ما يجري هو مراقبة كيفية مناورة الناس لأنفسهم في الشوارع. عن أي شيء يوقفهم وعاظ المفارق في دورهم؟ هل يمشون من بين أولاد يشوطون اللعب على طول المفرق أو يزجرونهم ليفسحوا؟ يتجاهلون الرجال القاعدين على زفارف سيارة أو يقفون لتبادل كلمة؟ لو نشبت خناقة بين رجل وامرأة، هل يعبرون وسط الحشد ليشاهدوا أو يجرون إلى ركن في حالة استحكام الفوضى؟

أحد الأشياء بالتأكيد، أن تريك الشوارع، تعلمك أو تحطم رأسك. لكن «أليس منفريد» لم تكن من تلك النوعية التي تهب ذاتها أسباباً كي تكون في الشوارع. فهي تخترقها بسرعة قدر الممكن لتعود لبيتها. ولو كانت تخرج كثيراً، تجلس على شرفة أو تنهك في النسيمة أمام صالون تجميل، وكانت عرفت أكثر مما تقوله الصحيفة. وربما عرفت ماكان يحصل تحت أنفها. حين كشفت ماحدث، بين ذلك اليوم في أكتوبر ويوم يناير الفظيع الذي أنهى كل شيء، فإن آخر الخلق على البسيطة كانت تود رؤيته هو «چو تريس»، أو أي شخص ينتمي إليه. حدث ذلك، رغماً، فالمرأة التي تجتنب الشوارع سمحت لغرفة معيشتها بدخول المرأة التي جلست يوماً في وسط إحداها. (*)

تجاه نهاية مارس، وضعت «أليس منفريد» إبرها جانباً لتفكر ثانية فيما أسمته إفلات الرجل الذي قتل بنت أختها لمجرد استطاعته ذلك. لم يكن صعباً أن يتم، فهذا لم يجعله يفكر مرتين بشأن الخطر الذي كان يقحم نفسه فيه. فعلها فحسب. رجل واحد. فتاة معدومة المقاومة. موت. رجل بشنطة عينة. كل امرئ يعرفه إنساناً، جاراً لطيفاً. من النوعية التي تسميحين له بدخول منزلك لأنه ليس خطيراً، لأنك قد رأيت مع أطفال، ويشتري حاجته، ولا يسمع عنه نامة إشاعة

(*) إشارة إلى حادثة خطف الوليد التي قامت بها «قيولت» وجلسوها في وسط الشارع. (المترجم)

في أنه يرتكب خطأ. لا تحسِّن فقط بالأمان بل الودَّ من صُحبته، لأنه من النوعية التي تُهرع إليها النساء عند تفكيرهن بأن أحداً يتبعهن، أو أنهن يراقبن، أو يحتجن لشخص يناولهن المفتاح الإضافي في حالة مالو كن نسيته بالداخل. كان الرجل الذي يأخذ امرأة إلى دارها لو فاتها التروللي وعليها أن تسير في شوارع مظلمة ليلاً. من يحذر البنات الصغيرات للابتعاد عن ملاهي الخمرة المغشوشة والرجال المترددين عليها هناك. تثيره النساء لأنهن يشقن فيه. وكان واحداً من الرجال الذين ساروا في الطريق الخامس - مبتعداً صامتاً وجليلاً - نحو المساحة التي صنعتها الطبول. عرف الخطأ بأنه ليس الصواب، ومع ذلك فعله.

لقد رأت «أليس منفريد» وحملت الكثير، كانت مرتعبة على مدار البلاد، من كل شارع فيها. وهل تشعر الآن حقاً بانعدام الأمان فحسب، لأن الرجال الوحشيين ونسوتهم الوحشيات ليسوا هناك في الخارج فقط، بل هم في مسكنها، في بيتها. جاء رجل لحجرة معيشتها ودمر بنت أختها. جاءت زوجته في الجنازة لتفتش وتهين كرامتها. كان يمكن أن تستدعي الشرطة خلف كلي منهما، لو لم يكن متاعفه عن حياة الزوج يجعل كل ذلك محتملاً ويوضع في الحسبان. أن تتطوع فعلياً للكلام مع أحد أسود أو أبيض، تدعه ليدخل منزلها، تشاهده وهو يضبط عجيزته في كرسي مراتها الأزرق كي يأوي إليه، وهذا ما يجعله رجلاً.

كانت مهملة وتنسحب في حزنها والعار، تضوي الأيام بالهم، تضيف شراباً إلى القهوة من أجل لاشيء، تقرأ في صحفها، تقذفها على الأرضية، تلقطها ثانية. تقرأها بشكل مختلف الآن، كل أسبوع منذ وفاة «دوركا» أثناء يناير كله، وفبراير كله، غطت صحيفة عظام امرأة مهشمة. رجل يقتل زوجة. ثمانية متهمون بالاغتصاب يطردون. امرأة وفتاة ضحايا لـ امرأة. تنتحر. أبيض يهاجم هندياً. نساء محتجزات. تصبح امرأة فليهمز الرجل. في الغيرة رجل هائج.

كانت تفكر، دون مقاومة كالبط. هل كنّ كذلك؟ قرأت بعناية تفسيرات الأنباء التي كشفت أن معظم هاته النسوة كن مكبوتات ومنكسرات، لم يكن معدومات المقاومة، أو، مثل «دوركا». فريسة سهلة. على مدار البلاد، تسلحت النساء السود. هذا، فكرت «أليس»، هذا - على الأقل - لأنهن أخذن درساً. أليس كل ماعلى أرض الله يكتسب مقاومة، أو هي له؟ السرعة، بعض اليم في ورقة شجر، اللسان، الذيل؟ القناع، الطيران، أرقام بالملايين تتناسل أرقاماً بالملايين؟ شوكة هنا، وخزة هناك. فريسة طبيعية؟ لقيطات بسيطات؟ «لا أظن ذلك» قالتها بصوت عال، «لا أظن ذلك». بقع رثة في البياضات تدعمها بخيوط من وزن ٦٠. تغسلها وتطويها وتضعها في سبت أمها الذي تستعمله. رفعت «أليس» رقعة الكي وفرشت صحيفة تحتها لتحفظ الحواشي نظيفة. لم تكن تنتظر المكاوي فقط لتسخن، بل امرأة أيضاً سوداء وحشية كالسخام معروفة بحملها السكين. كانت تنتظر بتردد أقل عن ذي قبل ودون أدنى مشاعر غضب خائفة كانت لديها في يناير، حين قالت امرأة أن «فيولت تريس» هي التي تحاول أن تراها، لتتكلم أو أي شيء. طرقت مبكراً على بابها في الصباح الذي ظنت «أليس» بأنه القضاء أيضاً.

- «ليس عندي ما أقوله لك. ولا حاجة واحدة» قالت ذلك بهمس عال من خلال الفتحة المسلسلة بالباب ثم صفقته مغلقة إياه. لم تكن بحاجة للاسم كي تخاف، أو تعرف من هي: نجم جنازة بنت أختها. المرأة التي أفسدت الصلاة الأخيرة، غيرت موضوعها والمعنى كليهما بذلك، وكانت عملياً التي تكلم عنها الكلّ عند حديثهم عن وفاة «دوركا»، وقد غير هذا اسم المرأة أيضاً. فهم يسمونها الآن «فيولنت». (*) لافرق. كانت «أليس» جالسة في المقعد الأول بممشى الكنيسة الأول، حين شهدت فوضى الكنيسة الصاعقة. فيما بعد، وقليلًا قليلًا - كمثل نفاية البحر التي لفظت على الشاطئ - عادت مشاعر كهذه إليها، غريبة ويمكن التعرف عليها، صارمة وكثيية.

كان الأساس فيما بينهما هو الخوف و-شيء جديد- الغضب. إن «جو ترير» هو الوحيد الذي فعلها: أغوى بنت أختها تحت أنفها مباشرة في ذات منزلها اللطيف. الرجل الذي كان يبيع بضائع السيدات على الناصية؛ شبح أليف تقريباً في كل عمارة بالبلدة. رجل يحبه أصحاب المتاجر وأصحاب البيوت لأنه كان يضع لعب الأطفال في صفّ منظم حين يتركونها مبعثرة على الرصيف. ويحبّه الأطفال لأنه لم يترصدهم أبداً. ويحبّه الرجال لأنه لم يكن يغشّ في لعبة، ولم يشجع على قتال غيبي، أو يحمل حكايات، ويدع النساء في حالها. كانت تحبه النساء لأنه يشعرهن بأنهن بنات؛ وتحبه البنات لأنه يشعرهن بأنهن نساء - إنه، فكرت هي، الذي كانت تفتش عنه «دوركا». القاتل.

لكن «أليس» لم تكن تخاف منه، ولا -الآن- من زوجته. بخصوص «جو»، فقد كانت تشعر بضراوة ثعبان الراعي - في العشب - وهو يسرق الفتاة المسئولة عنها؛ وبالعلم من أن العشب الذي تشعب من خلاله كان يخصها - البيئة المراقبة والحارس، حيث كان بها حمل غير المتزوجة وغير القادرة على الزواج هو النهاية المحتومة لحياتها المعيشة. بعد ذلك - زرب. مجرد كمين حتى يكبر الوليد بدرجة تكفي لتبرير وجوده في البيئة المراقبة الحارس.

كانت تنتظر «فيولنت» بتردد أقلّ عن ذي قبل، تساءلت «أليس» لماذا هي هكذا. في الثامنة والخمسين دون أي أطفال لديها، أما الوحيدة التي كانت ترعاها ومسئولة عنها فقد ماتت، وتعبّت من شأن الهستيريا، العنف، ولعنة الحمل دون مقدرة على الزواج. لقد شغل ذلك بال أبوبها طوال ما كانت تتذكرهما. كانا يتحدثان معها عن جسمها بحسب لكن بحذر: (الرجلان مفتوحتان) جلسة بذية؛ (الرجلان منقطعتان) جلسة نسوانية؛ التنفيس من فمها؛ اليدان على العجيزة؛ الارتخاء على المائدة؛ التقصيع حين تسيرين. لحظة أن كبر ثدياها كانا مقيدتين ومغتاضتين، الغيظ الذي زاد إلى كره صريح من احتمالات حملها، ولم يكفّ حتى تزوجت «لويس منفريد»، عندها فجأة انقلب إلى العكس. وحتى قبيل الزفاف فقد كانا يغتمغان بشأن الأحفاد الذين يمكن لهما أن يروهم ويحتضنوه، بينما في ذات الوقت وبدورهما فقد كانا

(*) بمعنى القاسية أو العنيفة. (المترجم)

يُقَيِّدان البروزات الظاهرة والنامية خلف القمصان التحتانية لأخوات «أليس» الصُغريات. تقييدُ بقع الدم، والعجيزة المستجدة، والشعر. وبالضرورة لذلك، ملابس جديدة. «آه، ياربي، فتاة!». العبوس حين لا يتمكنان من إنزال التواء أكثر؛ حزام الخصر يرفض تثقيباً آخر. النمو الكامل تحت تلك السيطرة الراحية، أقسمت «أليس» ألا تفعل هذا، ولكنها فعلته، لأنها مرت به. فمررت به إلى وليدة أختها، الطفلة الوحيدة. وتساءلت هل كان بإمكانها فعل هذا لو كان زوجها حياً أو باقياً أو لها منه أطفال. فلو كان هناك، جنبها، يساعدها في اتخاذ القرار، لربما لم تكن تجلس هناك ترتقب امرأة تدعى «فيولنت»، وتفكر أفكار حرب. رغم أن الحرب كانت على ما كانت. ذلك كان السبب في اختيارها الاستسلام وأن جعلت «دوركا» سجين حرب لها.

النساء الأخريات، على أية حال، لم يستسلمن. على مدار البلاد تسَلَّحن. لقد عملت «أليس» ذات مرة مع حائك سويدي له ندبة تمتد من شحمة أذنه وحتى زاوية فمه. «زنجية»، شرح لها. «شرطتني لحدّ الأسنان، لحدّ الأسنان». مصمص شفثيه متعجبا وهز رأسه. «لحدّ الأسنان». في «سبر نجفيلد» كانت هناك أربع فتحات بالتساوي في جانب رقبة رجل الثلج، من أربع وخزات ثاقبة بالتساوي من شيء حاد، مدب، ومستدير. جرى الرجال خلال الشوارع في «سبر نجفيلد» وإيست سانت لويس والمدينة، قابضين على يد مبللة حمراء في يدها الأخرى، وشلو من الجلد في الوجه. وكانوا أحيانا يصلون إلى المستشفى سالمين أحياء فقط لأنهم تركوا الموصى حيث كان مرشوقاً.

النسوة السود تسَلَّحن؛ النسوة السود خطرات، والمال القليل لديهن كان أكثر هلاكاً من السلاح الذي اخترنه. ومن كنّ غير مسلّحات؟ أولئك اللائي وجدن حماية في الكنيسة أو في القضاء، أما الربّ الغضوب الذي كان عقابه الإلهي في صفهنّ، فقد أفزعهم عزمهنّ. لم يكن تماماً على دربه، أتياً، أتياً ليقوم الخطايا التي يرتكبها، كان هنا. انظري؟ انظري؟ إن ما فعلته الدنيا بهنّ يفعل الآن فيها. ألا تنقلب الدنيا لفوضى عليهنّ؟ بلى، لكن انظري حيثما تبتكر الفوضى. هل يتم تعنيفهنّ ولعنهنّ؟ أوه، بلى، لكن انظري، كيف تلعن الدنيا وتعنف نفسها. هل كانت النسوة مدللات في المطابخ وفي ظهر المتاجر؟ أه هوه. هل سلّطت الشرطة قبضتها في وجوه النساء حتى أن أرواح أزواجهن تحطمت مع أفواههنّ؟ هل الرجال (الذين يعرفونهن كغريبات يجلسن في سيارات أجرة) يدعونهن بأسمائهن كل يوم مفرد جديد من حيواتهنّ؟ أه هوه. بل إن كل كلمة كريهة وكل لحة كريهة، في عيون الربّ وفي عيونهنّ، ماهي إلا رغبة الحيوان من أجل فحشه. لم يؤدّ الحيوان ما قد أودّي له، لكن ما تمنى أن يؤدّي لنفسه: اغتصب لأنه أراد أن يكون بذاته مغتصباً. ذبح الأولاد لأنه أراد أن يكون ذبيح أولاد. بنى سجوناً لكي يقطن فيها، وتقدّم نحو فساده الخاص. فكان عقاب الربّ بديعاً، وبسيطاً للغاية. أعداؤهنّ نالوا ما أرادوا، فأصبحوا على ما ابتلوا به الآخرين.

ومن كنّ غير مسلّحات، أيضاً؟ اللائي اعتقدن بأنهن لا يحتجن لشفرات مطوية، لعلّ

المسحوق السائل، لشظايا الزجاج المرشوفة بأيديهن. اللائي ابتعن منازل واخترن أموالاً من قبيل الحماية وكوسيلة للشراء. أولئك تعلقن برجال مسلحين. أولئك لم يحملن مسدسات، لأنهن تحوّلن إلى مسدسات؛ لم يحملن مطاوي بالزنبرك، لأنهن تحوّلن إلى مطاوي بالزنبرك، تنغرز خلال الجموع، تصيب التشريعات بمقتلي، وتلمح للدم واللحم الفاسد. أولئك كن ينفخن في قواهن المتبقية غير المسلحة ليكن مستعدات لتحالفات، لنواد، لجمعيات، لجماعات نسوية صممت لكي تقبض أو تكبح، تتحرك أو تتلثث، تفتح طريقاً، مغوياً، سهلاً ومريحاً. تطلق السراح، تكفن الموتى، تدفع الإيجار، توجد غرماً جديدة، تفتح مدرسة، تدشن مكتباً، تتولى تبرعات، تقلب حال العمارة وترعى بعيونها كل الأطفال. وأي نوع آخر من النسوة السود لم يتسلح في ١٩٢٦، كان صامتاً أو مجنوناً أو ميتاً.

انتظرت «أليس» هذه المرة، في شهر مارس، المرأة ذات السكين. المرأة التي يسميها الناس الآن «فيولنت»، لأنها حاولت قتل ما يرقد في كفن. كانت تترك رسائل تحت باب «أليس» وكل يوم ابتداءً من يناير - بعد أسبوع من الجنازة - فعرفت «أليس منفرد» نوع هاتيك الزوجين الزجاجيين: النوع الذي دربت «دوركا» على خشبته، النوع المربك. بالإضافة إلى أنهما غير محكومين، فقد كانا خطرين. الزوج أطلق النار، الزوجة مقتحمة. لاشيء. لاشيء قد فعلته بنت أختها أو حاولت فعله يمكن أن يساوي العنف الذي عوملت به. وأينما كان هناك عنف، أما من وجود للرديلة؟ مغامرة. بلوى. كتمان مفزع وكره. فسأتين حمراء. أحذية صفراء. وطبعاً، موسيقى تتسارع لحثهما.

لكن «أليس» لم تكن مرعوبة منها الآن كما كانت في يناير، وكما كانت في فبراير، أول مرة سمحت لها بالدخول. ظننت أن المرأة لابد أن يؤول بها الحال للسجن يوماً - كلهن حدث لهن ذلك في النهاية. لكن لقيطة بسيطة؟ فريسة طبيعية؟ «لا أظن. لا أظن».

في السهرة حول الجثمان، بينت لها «ملفون» التفاصيل. حاولت ذلك، عموماً. فكانت «أليس» تميل بعيداً عن المرأة، وتنقبض أنفاسها كمن تحفظ الكلمات في وضع حرج.

«إنني أقدر اهتمامك» أخبرتها «أليس». «قومي بخدمة نفسك» ولمحت باتجاه موائد قد ازدحمت بطعام والتمنّيات بالبقاء يتحلّقن من حوله. «خير ربنا كثير».

«أشعر بالأسى البالغ» قالت «ملفون». «كما لو كانت ابنتي».

«شكر الله سعيك».

«أنت تربيين أولاد الآخرين، وهذا مؤلم بنفس القدر كأنهم أولادك. تعرفين سو يتنس، ابن أخي...؟»

«عفواً».

«فعلت كل شيء من أجله. كل شيء كأم».

«رجاءً. قومي بخدمة نفسك. هنا خير كثير. كثير للغاية»
«هذان الهالكان العجوزان، يعيشان في عمارتي، تعرفين...»
«أهلاً، فيليس. مبسوطة أنكِ جئتِ...»

لم تكن تريد سماع أو معرفة الكثير حينذاك. ولم تكن ترغب في أن ترى تلك المرأة التي بدأوا يدعونها «فيولت» كذلك. الرسالة التي زلقتها من تحت باب «أليس» ضايقته، ومن ثم أرعبتها. ولكن بعد فترة، عند سماعها تمزق الرجل وهو يقرأ عناوين صحف «الآدج»، «النيوز»، و«المسنجر»، مع فباير شذت همته وسمحت للمرأة بالدخول.

«ماذا تريدن مني؟»
«أوه، أرغب الآن فقط في الجلوس على كرسيك» قالت «فيولت».
«أسفة. لست أخمن ماجدوى هذا».
«لدي اضطراب برأسي» قالت «فيولت»، وهي تتلمس بأصابعها تاج قبعتها.
«لم تستشيرين الطبيب؟»
«سارت «فيولت» أمامها، منجذبة كمغناطيس لمائدة ركن صغيرة. «هل هذه تخصها؟»
«لم تكن «أليس» تحتاج أن تنظرتعرف على ماذا تحدث.»
«نعم».

تلى ذلك سكوت طويل، بينما كانت «فيولت» تتفحص الوجه الذي لاح من خلال البرواز، فتوترت «أليس». قبل أن تتملكها الشجاعة في أن تقول للمرأة ارحلي، ابتعدت هي عن الصورة قائلة «لست ممن يمكنك أن تخافي منهم».

«لست؟ من أنت إذن؟»
«لا أدري. ذلك ما يؤلم رأسي».
«إنك لم تأتي هنا للإعراب عن أسفك. ظننت بأنك قد تفعليها. ولكنك جئتِ إلى هنا لتوزعي بعضاً من شرورك».
«ليس عندي شرور».
«أظن من الأحسن أن تذهبي».
«دعيني أسترخ هنا لدقيقة. ألا أجد مكاناً لأجلس فيه فقط. أذلك كان يخصها؟»
«أجبتك أنه فعلاً هو».
«جلبت لك كثيراً من المتاعب؟»
«لا. أيداً. حسناً. القليل».

«كنت فتاة طيبة سنّها. لم أسبب ذرة متاعب. كنت أفعل كل شيء يخبرني به أي واحد. حتى وصلت هنا. تجملك المدينة ضائقة النفس». تصرّف غريب، فكّرت «أليس»، لكنها ليست بمزاج دموي. وقبل أن تفكر ألا تدع ذلك يحدث، خرج السؤال. «لماذا فعل مثل هذا الشيء؟»

«لماذا فعلته هي؟»

«لماذا فعلته أنت؟»

«لا أعرف».

في المرة الثانية جاءت، وكانت «أليس» لا تزال تتأمل تلكم النسوة الوحشيات بعُلب المسحوق السائل، بأمواسهن المشحودة، بالندوب هنا، هنا وهناك. كانت تشد الستارة لعزل النور الذي يتشظى بعيني الزائرة، وحينها قالت «زوجك. يؤذيك؟»

«يؤذيني؟» نظرت «فيولت» متحيرة.

«أعني أنه يبدو لطيفاً، وهادئاً للغاية. فهل يضربك؟»

«جو؟ لا. أبداً، لم يؤذ أحداً».

«عدا دوركا»

«والسناجب»

«ماذا؟»

«الأرانب أيضاً. الغزلان. الحِجال. الأَبوسوم. (*) أكلنا بملء منزل».

«لماذا رحلت؟»

«صاحب البيت لا يريد أَرانِب. يريد أموالاً سائلة».

«هم يريدون أموالاً هنا، أيضاً».

«لكن هناك طريقة للحصول عليها هنا. حين جئتُ هنا أول مرة، كنت أشتغل عملاً بالنهار. ثلاثة منازل يومياً. جَلَبْتُ لي مالاً طيباً. أما «جو» فقد كان ينظف سمكاً بالليل. أخذ فترة قبل حصوله على عمل بفندق. وانتهيت إلى قصّ الشعر، جو...»

«لا أريد سماع كل ذلك».

خرست «فيولت» وهي تحمق في الصورة. أعطتها لها «أليس» لتخرج من المنزل. عادت في اليوم التالي، بدت على حالٍ أسوأ مما أوشك ب «أليس» أن تصفّعها. بدلاً من ذلك قالت لها «اخضعي الفستان، وسوف أخيط لك الإِسورة». كانت «فيولت» ترتدي نفس الفستان كل مرة، وكانت «أليس» تتوتر من ذلك الخيط السائب من كمها، كما أن سراجة المعطف كانت مشقوقة على الأقل من ثلاثة مواضع أمكنها أن تراها.

جلست «فيولت» بلباسها ومعطفها عليها، بينما كانت «أليس» تصلح الكمّ بغرز دقيقة. ولم تخلع «فيولت» قَبْعَتِها في أي وقت.

«في البدء ظننت بأنك جئتُ هنا لتؤذيني. بعدها ظننتُ بأنك تريدني تقديم التعازي. ثم

(*) من حيوانات أميركا، ذوجراب، يتظاهر بالموت عند الخطر. شبيه بالقنفذ. (المترجم)

ظننتُ بأنك أردتِ شكريني لعدم استدعاء القانون. لكن أياً من ذلك لم يكن، أليس كذا؟»

«كان ينبغي أن أجلس في مكان ما. ظننتُ بإمكانني فعل هذا هنا. أنك يمكن أن تسمحي لي، وقد فعلت. أعرفك بأنني لم أعط «جو» أسباباً كثيرة للبقاء في الشارع. ولكنني أردت رؤية نوعية الفتاة التي كان يفضلها علي.»
«حمقاء. كان يفضلك أنتِ لو كنت في الثامنة عشرة، وهذا كل شيء.»
«لا. شيء ما أكثر.»

«أنتِ لاتعرفين أي شيء عن زوجك، وليس من المتوقع أن أقوم بنجذتك»
«أنتِ لاتعرفين أنهما كانا يريان بعضهما أكثر مني، وأنتِ كنتِ ترينها كل يوم كما كنتُ أرى «جو». أعرف أين راح عقلي. فأين كان عقلك؟»
«لاتؤذييني. لن أسمح لك بهذا.»



أنهتُ «أليس» الملاءات وبدأتُ في أول مريلة للخصر حين كانت «فيولت» تطرق علي بابها. من سنين وسنين كانت تدلُ طرف المكواة إلى لفقة قميص أبيض لرجل. تربطها لينعم النسيج ويتدبب بالنشا. تلك القمصان نفاية الآن. قطع قماش لصد التراب، قطع للدورة الشهرية، أسمال تربط حول وصلات الماسورة لتصد البرودة؛ ماسكات أوعية، وقطع قماش لاختبار المكاوي الساخنة وللف حول مقابضها. وربما فتائل لمصابيح الزيت؛ وأكياس ملح لفرك الأسنان. والآن تأخذ مرايل الخصر عنايتها الواعية المتأنقة يومياً.

زوجان من ألبسة المحدثات، لا يزالان ناعمين على الملمس، مرتبين على المائدة. وكذا ملاعق السرير. الأسبوع القادم، ربما الستائر. بمرور الوقت، تعرّفت على الطريقة، لكنها لم تعرف أبداً إن كانت شغوفة أو غاضبة حين تسمعها. ولم تهتم. عند مجيء «فيولت» لتزورها (لم تعرف «أليس» أبداً متى تجيء) كان شيء ما يفتح. ربما تجعل القبة السوداء وجهها أغمق. كانت عيناها مدورتين كدولارين من الفضة بل وفي إمكانهما الانزلاق على حين فجأة أيضاً.

المهم ما كانت تحسّ به «أليس» وتتكلّم في صحبتها بمثله. ليس كما كانت تفعل مع الأخريات. مع «فيولت»، كانت وقحة. مفاجئة. مترخّصة. لا اعتذار ولا مجاملة يمكن اكتسابها أو تكون حتى ضرورية بينهما. لكنه كان شيئاً آخر - ربما، الوضوح. نوعية الوضوح التي يتطلبها المجانين من غير المجانين.

كانت تُعيد الآن إصلاح سراجة معطف «فيولت» مرة ثانية، أساورها كانت متينة، وهي تحتاج فقط أن تراعي جوربها وقبعتها لتبدو عادية. أصدرت «أليس» تنهدة قصيرة، متعجبة من

نفسها وهي تفتح الباب للزائرة الوحيدة التي كانت تتطلع لزيارتها.
 «تبددين متجمدة» .
 «بقرب نوبة برد» قالت «فيولت» .
 «السير يمكنه أن يرقدك في فراش المرض» .
 «ولا يهملك» ردت «فيولت» . «كل متاعبي تنتهي لو مرض جسمي بدلاً من رأسي» .
 «من عندئذ يقص للنساء قصصات الشعر تلك الخيالية؟» .
 ضحكت «فيولت» . «لا أحد يمكنه فعل ذلك، ولن يميز أحد الفرق» .
 «إن الفرق أكثر من مجرد قصة شعر» .
 «هن نساء فقط، كما تعرفين. مثلنا» .
 «لا» قالت «أليس» . «لا، ليس هكذا. ليس مثلي» .
 «لا أقصد المهنة. أقصد النساء» .
 «أوه، رجاء» قالت «أليس» . «فلندع هذا الأمر. أعمل لك بعض الشاي» .
 «كن نافعات لي حيث لم ينفعني أحد. أنا وحو نأكل من خيرهن» .
 «لا تحكي لي ذلك» .
 «أي يوم أقرب فيه من الاقتراض أو أحتاج أكثر، يمكن أن أشتغل طول اليوم أي يوم،
 على رؤوسهن» .
 «لا تحكي لي، قلتُ. لا أريد أن أسمع ذلك أو أعرف من أين يأتيهن المال. تريدن شيئاً
 أم لا؟»
 «يه. ماشي. لم لا؟ لماذا لا تقدرين على سماع هذا؟»
 «أوه. الرجال. حياة بغیضة. ألا يخانقن طوب الأرض؟ حين تقصين لهن الشعر، ألا
 تخافين أن يبدأ الخناق؟»
 «حين يفقن فحسب» تبسم «فيولت» .
 «أوه، حسناً» .
 «هن يشاركن الرجال، يخانقنهم ويتخانقن عليهم، أيضاً» .
 «لا ينبغي لامرأة أن تحيا على هذه الوتيرة» .
 «لا. أي امرأة ينبغي لها ذلك» .
 «قتل الناس» مصممت «أليس» بشفتيها. «يجعلني أمرض بمعدتي» . صببت الشاي، ثم
 رفعت فنجاناً وطبقه، وأعادته بأثناء ما كانت تنظر على «فيولت» .
 «لو كشفت معدنهم قبل أن يقتلها هو، أتفعلن مافعلت؟»
 «قد» ناولتها «أليس» الشاي. «أنا لا أفهم النساء على شاكلتك. النساء أصحاب
 السكاكين» . وخطفت بلوزة بكم طويل وفردتها على رقعة الكي.
 «لم أولد بسكين» .

«لا، لكنك التقت واحدة» .
«ألم تفعلين ذات مرة؟» نفخت «فيولت» في الشاي فترقق .
«لا، لم أفعلها قط . حتى حينما هرب زوجي لم أفعلها قط . وأنت . لم يكن لديك عدو يستحق . شخص يستحق القتل . فالتقت سكيناً لتنتهكي فتاة ميتة» .
«لكن هذا كان أفضل ، أليس كذلك؟ فالضرر قد تمّ فعلاً» .
«هي لم تكن العدو» .
«أوه، بلجي كانت . هي عدوي . حينذاك ، عندما لم أعرف ذلك ، ولا الآن أيضاً» .
«لماذا؟ لأنها كانت شابة وجميلة وأخذت منك زوجك؟»

رشت «فيولت» من شايبها ولم ترد . بعد صمت طويل ، وبعد انقلاب حديثهما إلى التوافه ومن ثمّ إلى ضائقة العيش ، قالت «فيولت» لـ «أليس منفريد» : «ألم تفعلين؟ أألم تخاربي من أجل رجلك؟» كان الخوف مبذوراً في طفولتها ، مروباً كل يوم من حينها ، خوف تبرعم من خلال أوردها طول عمرها . فكّرت أفكار حرب كانت مجمعة لديها ، ولكنها ازدهرت إلى شيء آخر . والآن ، بينما كانت تنظر على هذه المرأة ، سمعت «أليس» سؤالها ، وكأنه فرقة مسدس لعبة .

بمكان ما في «سبرنجفيلد» ، أسنان فقط هي التي بقّت . ربما الجمجمة ، ربما لا . لو حفرت عميقاً هناك بدرجة كافية ومزقت الغطاء ، فلا بدّ أنها ستأكد أن الأسنان هناك بالطبع . لاشفاه تشارك بها المرأة التي شاركتها . لا أصابع كي ترفع عجيزتها في حين كان هو يرفع الأخرى . فقط الأسنان مكشوفة الآن ، لا شيء مثل البسمة التي جعلتها تقول «اختر» . وهو فعل .

ما أخبرته لـ «فيولت» كان حقيقة . فهي أبداً لم تلتقط سكيناً . وما أهملت قوله -والذي طفا عائداً إليها الآن- كان أيضاً حقيقة : كل نهار وكل ليلة ولعدة سبعة أشهر ، كانت هي ، «أليس منفريد» ، متعطشة للدماء . ليس هو . أوه ، لا . بالنسبة له ، فقد خطّطت لوضع السكر في موتوره ، مقصّ إلى كرافته ، حرق بذلاته ، تمزيق أحذيته ، شقّ جواربه . أفعال عنف شريرة ، بل طفولية ، لتربكه ، وتذكّره . لكن لا دماء . استقرّت حاجتها الماسة على سيائل أحمر يتجمع في أوردة المرأة الأخرى . إلصاق قطعة ثلج ونزعها لا بدّ يفعل هذا . هل حبل من غسيل يلتف حول عنقها ثم يشدّ بكل عنفوان «أليس» فيجعلها تبتقي؟ على أي حال ، كان حلمها المفضل ، والذي يغطس مخدتها ليلاً ، أن ترى نفسها على صهوة جواد ، تعليه ، ثم تجد المرأة وحدها في الطريق ، فتعدو بالجواد حتى تهرسها من تحت أربعة حوافر حديدية ؛ ثم ترجع ثانية ، وثانية ، حتى لا يتبقى منها شيء سوى قلبر معذب على الطريق ، يشير إلى حيثما كانت الفاجرة .

لقد اختار ؛ وكذلك هي . وربما بعد هرولة سبعة أشهر بلياليها على جواد لم تكن

تتملكه أو تعرف كيف تعتليه، على جسد مهصوب، ومنتفض، لامرأة تلبس حذاءً أبيض في الشتاء، وتضحك عالياً كالطفلة، ولم ترى أبداً قسيمة زواج - ربما كان لابد أن تفعل شيئاً وحشياً. ولكنها بعد سبعة أشهر، كان عليها اختيار شيء آخر. البذلة، الكرافتة، القميص الذي كان يحبه أكثر. ظنوا أنها هي كم تتلف الحذاء. فلا أحد رآه. لكن الجوارب؟ بالتأكيد لابد أن كان عنده جوارب؟ طبعاً، قال الحانوتي. جوارب، بالطبع. لكن ما الفرق، فقد وضعت إحدى المولولات، كانت عدوها اللدود وقسمتها، على الكفن وروداً بيضاء، وأخذت منها واحدة بلون فستانها. ولمدة ثلاثين عاماً تحوّل إلى مجرد أسنان في «سبر تحفيلد»، ولم تتمكن لاهي ولا المولولة في فستانها غير الملائم، أن تفعل شيئاً نحو ذلك.

ضغطت «أليس» على المكواة. «لا تعرفين قدر هذه الخسارة» قالت، بينما كانت تنصت بإحكام سمع لما تحكيه، مع المرأة التي تجلس جنب رقعة كيهها بقبة في الصباح.



القُبعة، مدفوعة لوراء جبهتها، كانت تمنح «فيولت» نظرة مشتتة. ولم يدم طويلاً التأثير المهدىء لشاي «أليس منفريد» الذي أعطتها إياه. بعدها جلست في الصيدلية المتجر ترشف الشعير من خلال شفاطة، تتساءل من على ظهر البسيطة غير «فيولت» الأخرى التي تسير عبر المدينة لم يمَسْ بأذى؛ فهي تختلس النظر بعينها وترى أشياء أخرى. أين رأت كرسيًا أعزل متروكاً كاليتيم على سور حديقة بموازة النهر، وقد رأت فيولت «الأخرى» كيف أن طبقة الجليد به عكست على سوري سكة الحديد السوداء ومض سلاح. أين هي، أخيراً في طابور عند موقف سيارات، تلحظ رسغ طفل بارداً ينبت من «التي شيرت»، تدعوه ليناولها طرف المعطف، والذي طوته «فيولت» الأخرى بحدة أمام امرأة بيضاء في مقعد التروولي الذي تأخر أربع دقائق. ولو انصرفت عن الوجوه المتطلعة إليها من خلال نوافذ المطعم، لسمعت «فيولت» الأخرى قرقرة الأطباق وسط رياح مارس. لقد نسيت بأي الطرق تدير المفتاح في القفل؛ ولم تعرف «فيولت» الأخرى أن السكين كانت في قفص البيغاء لا في درج المطبخ، تذكر «فيولت» الأخرى مالم تتذكره هي: تخليص المقبض من مخالب البيغاء ومنقاره منذ أسابيع. وقد كانت لمدة شهر تفتش عن تلك السكين. ومن طول ما فكرت، لم تتذكر ماذا فعلت به. لكن «فيولت» الأخرى عرفت، وذهبت مباشرة لفعلتها. عرفت أيضاً مكان سير الجنازة، فهي لا يمكن أن تسير إلا بمكان من اثنين، هداها تفكيرها لهذا. فواصلت، وعرفت «فيولت» الأخرى أي المكانين وفي أي وقت سليم تصوير هناك. تماماً قبل إغلاق التابوت، حين يكون الذين على وشك الشحوب قد شحبوا، وقد هيّجتهم ذوات الأردية البيضاء. ويكون الأدلاء - شباب من نفس عمر الفقيدة، يفصلها في المدرسة العالية، رؤوسهم حلقة للتو، بقفزات شبحية بيضاء - قد تجمّعوا. أولاً، في عقدة محكمة من ستة، ثم ينفصلون إلى خطين من ثلاثة؛ يتحركون على ممشى الكنيسة من الخلف حيث يحتشدون محيطين بالنعش. كانوا هم الذين على «فيولت» الأخرى أن تدفعهم جانباً، وتشق طريقها من بينهم. وقد فعلوا. خطوا جانباً، معتقدين بأنه ربما كان حبّ اللحظة الأخيرة، اليأس من إعلان نفسه قبل أن يرى الوجه النائم وينسى ما كان يكرهه له من حب. رأى الأدلاء السكين قبل أن تفعلها هي. قبل أن تعرف ما سيحدث، توصّلت الأيدي الخشنة للأولاد الأدلاء - مفصلها خشنة من رخام وفولاذ، من قذف كرات الثلج بقوة الرصاصة، وكأنها مضارب منذ

سنين، ترمي بهذه الكرات الصلبة على أغطية السيارات، وإلى أراضي بأسوار عالية، وحتى إلى النوافذ المفتحة حيث يسكن المنطرون بالطابق الرابع، هذه الأيدي تقيد ثقل أجساد هؤلاء الأولاد على الدرازينات الحديد في «إلبريدجز» - توصلت هذه الأيدي إلى الشفرة التي لم ترها لمدة شهر على الأقل، وكانت في دهشة أن تراها الآن مصوبة على وجه الفتاة المتغطرس المحجوب.

ارتدت عن اللكم، وانبعجت قليلاً، ذراعها كان تحت شحمة أذنها، مثل طية الجلد التي لم تكن تحسب تشويهاً على الإطلاق. كان يمكن. أن تدعها على تلك الشاكلة، كطية الجلد تحت شحمة الأذن، لكن «فيولت» الأخرى لم ترض بذلك، فقد حاربت الأولاد الأدلاء بأيديهم الخشنة، وكفاهم الوقت، تقريباً. كان عليهم تماماً أن ينسوا أنها عجز في الخمسين بمعطف ياقته من الفراء وتنسدل قبعتها كلاً على عينها اليمنى، حتى لقد كان غريباً أن رأَت الباب إلى الكنيسة، ومن دون أن تتكلم صوّت سكّينها على المكان الصحيح. وكان عليهم أن يتخلّوا عن التعاليم التي تلقوها طوال حياتهم بشأن الاحترام الواجب لكبار السن؛ لقد تعلّموا هذه الدروس من قوم عجائز بعيون بيضاء لبنية تراقب كل ما يفعلونه، وتعلق عليه، وتخبر بعضهم عن مغزاه. ودروس من عجائز أقلّ عمراً (مثلها هي) يمكن أن يكنّ عماتهم، جداتهم، أمهاتهم، أو صديقات مقربات لأمهاتهم؛ لا يقمن بالوشاية عنهن، بل يقلن لهم؛ ويمكن أن يوقفوه عن عمد بكلمة، من مثل «أفسحوا هذه الفوضى للخروج!» صارخة من أي نافذة، أو مدخل، أو منحى شارع، في نصفي القطر هذين المنغلقيين. يمكنهم إفساح الطريق، أو النزول للأدوار التحتية خلف خزانات الثياب، أو الخروج إلى حديقة مهمة، أما الأفضل فأن يظلّوا، في ظلّ «إلبريدجز»، حيث لا نور يهديهم إلى مالا تسمح به هاتيك النسوة، اللاتي لا يعنيهن ابن من ذلك الصغير، مثلاً. وعلى أي حال، فعل الأدلاء ذلك. نسوا دروس عمرهم، ركّزوا في الشفرة اللامعة العريضة، لأنه من يدري؟ ربما كان في بالها أن تشرطها أكثر من مرة. أو ربما رأوا أنفسهم وهم مرتاعون على مائدة العشاء يحاولون تعليل ذلك لنفس هذه النسوة، أو حتى ليسوع؛ للرجال، للآباء، للأعمام، لأولاد العمومة الكبار، للأصحاب، وللجيران؛ لماذا وقفوا هكذا كمصاييح الشوارع تاركين هذه المرأة ذات المعطف ياقته الفرو تجعلهم يبدون كحمقى لتدمر مهمة التكريم التي كانوا ارتدوا لها القفازات البيضاء. كان عليهم أن يصرعوها أرضاً قبل تركها تذهب. أما الصوت الذي صدر عن فمها فلم يكن ينتمي لشيء يرتدي معطفاً بل جلدًا غير مدبوغ.

حينذاك انضمّ الأولاد الأدلاء إلى جنب أولئك الرجال العابسين، حاملين «فيولت» الأخرى النابحة وهي تركل، ناظرة في ذهول. لم تعد تلك القوة منذ أيام «فرجينيا»، حيث كانت تحمّل القش وتتعامل مع عربة البغل كرجل في تمام النضوج. لكن عشرين عاماً تقصّر فيها الشعر في المدينة قد ألانت ذراعيها، وأذابت قشرة الوقاء التي كانت تغطّي راحتيها وأصابعها ذات يوم. كان ذلك مثل الحذاء الذي أزال الجلد الخشنة التي نمت بقدمها العارية، وكذا فقد أزالّت المدينة قوة الظهر والذراع التي كانت تفتخر بها. هذه القوة لم تفقدها «فيولت» الأخرى،

لأنها سببت للأولاد الأدلاء مع الرجال الناضجين وقتاً عصياً.

ما كان لـ «فيولت» الأخرى أن تدع البيغاء يذهب. لقد نسي كيف يطير وكان يرتجف فحسب على عتبة النافذة، لكنها حين جرت عائدة من الجنابة، واقعياً رمتها للخارج أيدي الأولاد الخشنة مع الرجال العابسين، فإن كلمة «باحبك» كانت بالضبط ما لا تتمكن هي ولا «فيولت» الأخرى من تحمل سماعه. حاولت أن تتجنب النظر إليه بينما كانت تسرع ما بين الحجرات، لكن رآها البيغاء وصرخ «احبك» بوهن وهو على قائم النافذة.

لم يرجع «جو»، والذي ضاع منذ ليلة رأس السنة، لا تلك الليلة ولا ما تلاها ليأكل لوبيهاها أم عين سوداء. جاء «جستان» و«ستوك» للسؤال عنه، ولإبلاغه بأنهما لن يلعبا الورق الجمعة، وقد تلبثا بارتباك في الصالة بينما كانت «فيولت» تحذق فيهما، إذن عرفت بأن البيغاء كان هناك، لأنها ظلت تروح وتجيء على السلالم من باب شقتها إلى الباب الأمامي، لتري إن كان «جو» قادماً في الشارع. قامت بهذه الرحلة في الثانية صباحاً، وأخرى في الرابعة، وكانت تحذق في الشارع المظلم، كان خالياً سوى من شرطين اثنين وقطتين تبدوان في الجليد. وكان البيغاء يرتجف، مديراً رأسه الأشقر والأخضر، يقول لها كل مرة «احبك».

«اخرج» أبلغته. «اطلع فِرْ لأي داهية!».

فعلها في الصباح التالي. وكان كل ما رآته، أسفل في السرداب تماماً تحت شرفة المدخل، ريش أصفر خفيف ببقعة خضراء. لم تكن نادته باسم أبداً. كانت تدلّله «بيغائي» كل تلكم السنين. «بيغائي». «احبك». «احبك». هل أكلته الكلاب؟ هل خطفه سائر بالليل وأخذه إلى منزل ليس فيه مرايا كي يرى ملامحه أو رمى إليه ببعض الكعك البنيّ الأملس؟ أو أنه قد تلقى الرسالة - قالت «بيغائي» وقال لها «احبك» ولم ترددها بعدها أبداً ولا كانت نادته باسم - وتوصل بمحاولة ما أن يطير لبعيد على أجنحة لم تعد التحليق لست سنوات. أجنحة نمت متصلة من عدم الاستعمال، كما كان نور اللبنة في الشقة كئيباً لا يدع مجالاً للحديث عن الطيران.

انتهى شراب الشعير، ورغم أنه بدا على معدتها أنها فقدت تقلصاتها، فقد أمرت بآخر واضطلعت به خلف حامل المجلات المستعملة على أحد الموائد القليلة، والتي كان «دجي» قد وضعها هناك بالخالفعة مع القانون، الذي يقول بأنه لو فعل هذا فهو يجعل المكان مطعماً. يمكنها الجلوس هناك ومراقبة الرغوة تختفي، فتفقد كتل الآيس كريم أضلاعها لتستحيل سائلة، كرات مملأة وكأنها قطع الصابون المتروك في وعاء ممتلىء بالماء.

كانت تقصد أن تجلب علبه من «د. دي زينرف آند فليش بيلدر» لكي تخلطه مع مخفوق اللبن المجفّف، لأن مخفوق اللبن بمفرده يبدو عديم الجدوى. كانت العجيزة التي تأتي

بها إلى هنا قد راحت أيضاً، مثلما القوة التي كانت في ظهرها وذراعها تماماً. ربما كانت «فيولت» الأخرى، تلك التي عرفت أين سكّين الجزارة وكانت قوية بدرجة تكفي لاستخدامها، قد كان لها هذه العجيزة التي فقدتها هي. ولكن لو أن «فيولت» الأخرى كانت قوية ولها عجيزة، فلماذا كانت تفخر بمحاولتها قتل فتاة ميتة، والذي كانت تفتخر به هي أيضاً. حينما كانت تفكر في «فيولت» الأخرى، وما قد رأته «فيولت» الأخرى من خلال عينيها هي، كانت تعرف أن ليس ثمة عار هناك، ولا اشمئزاز. ذلك كان يخصها هي وحدها، ولذلك فقد اختفت خلف الحامل عند واحدة من موائد «دجي» غير القانونية، بينما كانت تلعب بالشقّاط في شعر الشكولاتة. كان يمكنها أن تكون في الثامنة عشرة هي نفسها، مثل تلك الفتاة التي عند حامل المجلات، تقضي فترة في الصيدلية المتجر تقرأ في «كوليرز». هل كانت «دوركا»، وهي حبة تحب قراءة «كوليرز»؟ «ليبرتي مجازين»؟ وهل كانت النساء الشقراوات ذوات الشعور القصيرة يأسرنها؟ أم هم الرجال بأحذيتهم الجولف وچاكيتهم برقة السبعة؟ كيف يكون ذلك وقد وجدت نفسها تتعلق برجل عجوز في مثل عمر أبيها؟ رجل لا يحمل مضرب جولف بل شطّة عينة لمستحضرات كليوباترا. رجل لم تكن مناديله قطنية رقيقة نائفة من جيب جاكته، بل حمراء عريضة ومنقطة بنقاط بيض. هل كان يطلب منها أن تدفء بجسدها حفرة في الفراش ليالي الشتاء القارسة قبل أن ينسل إليها؟ أم أنه كان الذي يفعل ذلك من أجلها؟ ربما كان يسمح لها بأن تضع ملعقتها في وعاء قشده لتغرف الجزء الذائب، وحينما يكونان جالسين في الظلام بمسرح لنكولن، ألم يكن يبالي ولو قليلاً أن تلصق يدها بأسفل عليه الفشار عنده لتخرج بقبضة منه، ابن القحبة. حين تهل أغنية (أجنحة على الأردن) فلربما كان يدير الصوت خافتاً ليتمكن من سماعها وهي تغني مع الجوقة، بدلاً من ذلك الصوت العالي، حتى ليجذبها أداؤها في «أرقد جسدي». ويدير مخبله أيضاً نور اللمبة حتى يمكنها أن تقبض - ما بين ظفري إبهاميهما - جذر الشعر المشتبك في الثقب، الكلبة. وشيء لعين آخر. (صار الشعر حساء الآن، بارداً وأملس). كان قد فاز بجائزة إضافية بخمسة وعشرين دولاراً: أباجورة مخدع امرأة زرقاء المظلة أو روب حريمي بلون الأرجوان شبيه بالساتان، وذلك لأنه باع كل مالديه من سلع في شهر واحد - هل وهبها لها، هذه العجيلة؟ كان يأخذها إلى «إنديجو» يوم السبت، يستريحان على الطريق فيمكنهما سماع الموسيقى في الخلاء والظلام بنفس الوقت، على أحد تلك الموائد المستديرة ذات القرص الأسود الأملس بمفرشه الأبيض تماماً عليه، ويشربان «الجن» القوي بالهراء الأحمر اللذيذ فيه الذي يبدو كفقاعة الصبودا، حيث كان من المفروض على فتاة مثلها أن تطلبه بدلاً من ذلك الكحول المقطر والذي ترشفه من حافة كوب فمه أوسع من قاعدته، وتكون سويقة الزهرة ما بين أصابع يدها، التي لا تمسك بالكوب الذي كان على شكل زهرة، يدها التي هناك تحت المائدة تنقر لإقاع طبل على باطن فخذه، فخذه، فخذه، فخذه، وكان قد اشترى لها لباساً تحتياً مخيطاً يبدو كأنه براعم ورد وبنفسج، بنفسجات (*)، ألا

(*) VIOLETS تذكر اسمها وهي تشرح شكل ذلك الشيء. (المترجم)

تعرفين، وكانت تلبسه له رقيقاً وبارداً تماماً في غرفة لا تعمل على تدفئة تعمل خلال الظهيرة، بينما كنت أين؟ أنزلت على الجليد أحاول الوصول لمطبخ واحدة كي أقص لها شعرها؟ أو أركض إلى مدخل بعيداً عن الريح أنتظر التروللي؟ أينما حلّ ذلك، كان لباسها بارداً وكنت أنا بردانة فلا أحد قد دخل قبلي في ملاءات السرير ليدفيء البقعة لي أو يمدّ يديه من حول أكتافي ليجذب اللحاف لأعلى ما تحت رقبتي أو حتى إلى أذني لأن ذلك مانع للبرد أحياناً، وربما كان ذلك السبب في أن سكّين الجذارة ارتطمت بحدّ الرقبة جنب شحمة الأذن تماماً. ذلك كان السبب. السبب في أنهم أخذوا وقتاً طويلاً بسحبي لتمرغني أرضاً، وإبقائي هناك بعيداً عن الكفن الذي كانت به العجلة التي أخذت ما كان لي، ما اخترته، التقطته، وصممت على أن أناله وأواصل معه، لا، إن «فيولت» الأخرى ليست شخصاً يتجول عبر البلدة، يروح ويغدو في الشوارع مرتدياً جلدي ومستخدماً عيوني، خراء، لا، إن «فيولت» الأخرى هي أنا! الأنا التي جرجرت القش في «فرجينيا» وقادت بغلاً أربعة باللبام. لقد وقفت في حقول القصب بمنتصف الليل حين خشخش صوته مخفياً سعي الحيات فسكنت أرتقبه ولا أتحرك قيد أنملة لربما كان قريباً وقد أفقده، واللجنة على الحيات، رجلي كان قادماً لي ومن هو أو ماذا سيمسكني عنه؟ مرات كثيرة، مرات كثيرة كنت أتحمل لكلمات جنوبي أبيض ريفي بوزن طنين لأنني كنت أتأخر على طابور الحقل في الصباح التالي. مرات كثيرة، كثيرة كنت أقطع الخشب المطلوب مرتين إلى كتل صغيرة ومواد إضرام ليتأكد المتبحّرون بأن عندهم ما يكفي ولن يندموا مني. حينما أرتبط بلقاء حبيبي «جو» فلا شيء بهم، وأفعل ما تهمن به أو ربما بهم به حبيبي «جو تريس». حبيبي. الذي اخترته من بين كل الآخرين فلم يكن أحد شبيهاً بـ «جو» يمكنه أن يجعل واحداً ينتظره بمنتصف الليل في حقل القصب؛ يجعل أي امرأة تحلم به مستوحشة في عزّ النهار حتى ليفوتها الأخدود ويكون عليها أن تعمل جاهدة لإرجاع البغال على المدق. أي امرأة، ليس فقط أنا. ربما كان ذلك ما ارتأته هي. ليس رجل الخمسين الحامل شنطة العينة، بل حبيبي «جو تريس»، حبيبي الفرجينيا «جو تريس» والذي كان يشع نوراً من داخله، والذي كتفاه نحيلان في رقّة الموسى، كان ينظر لي بعينين ذاتي لونين مختلفين ولا يرى أي أخرى. هل نظرت إليه هي ورأت ذلك منه؟ تحت المائدة في «إنديجو»، هل كانت تنقر على فخذ الناعم كنعمومة الطفل وحتى تحس بالطريقة التي عبّده بها كل تلك الهنيهة أنه انشد بجلده تماماً ليكاد ينشق فتدفع العضلة الحديد من خلاله؟ هل شعرت بذلك، عرفت به؟ ذلك وأشياء أخرى، أشياء لا بد أنني عرفت ولم أعرفها؟ أشياء سرية ظلت مخفية عني، أو أشياء لم ألاحظها؟ هل ذلك كان السبب أنه تركها تغرف الجزء الذائب من حول حواف وعائه بالآيس كريم، وتلصق يدها تحت كيس فشاره بالملح والزبدة. ما الذي رأته، فناة صغيرة كهذي، لم تكذ تخرج في المدرسة العالية، روج الشفة لأول مرة والحداء بكعب عال؟ وماذا فعل هو؟ شابة كنت بجلد أصفر للغاية بدلاً من الأسود؟ شابة كنت بشعر موج طويل بدلاً من القصير؟ أو أي لم أكن أنا على الإطلاق. أنا التي كان يحبها هو في «فرجينيا» لأن تلك البنت «دوركا» لم

تَكُنْ هناك بعدُ بأي مكان. هل كان؟ ومن كان؟ مَنْ كان يُفَكِّرْ فيه وهو يجري في الظلام ليقابلني في حقل القصب؟ شخص ما ذهبي، كأنه ولدي الذهبي، والذي ما رأيته بتاتاً، لكنه مَرَّقَ بنوتتي وكما لو كنا أفضل العاشقين؟ انجذني ياربَّ انجذني لو كان الأمر عليّ هكذا، لأنني قد عرفته وأحبته أكثر من أي واحد عدا «تروبيليه»، تلك الوحيدة التي جعلتني أجنُّ به في المقام الأول. هل كان ذلك ما حدث؟ كان واقعاً في حقل القصب، يحاول الإمساك بفتاة لم يرها بعد، ولكن قلبه عارف بكل شيء عنها، وأنا، كنت تعلّقت به، ولكنني تمنيت مالو أنه الولد الذهبي الذي لم أره أيضاً. أيهما كان يعني من أول البداية أنني كنت البديل وكذلك كان هو.

صرتُ أهدأ الآن، لأن الأشياء التي لم أتمكن من قولها خرجت من فمي رغماً عني. صرتُ أهدأ الآن، لأنني لا أعرف ما الذي ستضطلع به يداي بعد أن ينتهي عمل النهار. كان الأمر يواصل داخلي حتى ظننت بأنه ليس أمري ولا أمر «جو» أيضاً، لأنه كان عليّ احتضانه بأية وجهة أدركها، أما كوني مجنونة فسيجعلني أخسره.

كان جلوسها - في النور الحادّ الرقيق بالصيدلية المتجر، تلعب بملعقة طويلة في كوب طويل - يجعلها تفكّر في امرأة أخرى تحتلّ نفسها عند مائدة، تتظاهر أنها تشرب من الكاس. أمها. لم ترد لها هذا. أوه، أبداً، مثل هذا. أن تجلس إلى المائدة، لوحدها في ضوء القمر، ترشف قهوة مغلية من فنجان صينيّ أبيض، ترشفه طويلاً مثلما كان هناك، وتتظاهر بأنها ترشفه عندما خلص؛ تنتظر الصباح حتى يجيء الرجال، يتكلمون بخفوت كأن لا أحد غيرهم هناك، ويتخيرون من أشياءنا، يأخذون ما يريدون - ما كان لغيرهم، قالوا، رغم أننا طبخنا فيه، غسلنا ملاءاتنا فيه، جلسنا فيه، أنهينا طعامنا فيه. وكان ذلك بعد أن جرجروا المحراث لبعيد، والمنجل، والبغل، والخنزيرة، وخضاضة اللبن، وحلابة الزبد. ثم جاؤوا داخل البيت، وكلنا أطفال نضع قدماً على أخرى ونرقب. حين وصلوا إلى المائدة، كانت أمنا تجلس حاضنة كاساً فارغة، فاستولوا على المائدة من تحتها، وعندها، بينما كانت تجلس وحدها هناك، بكلّ كيانها، وكأنها الكاس في اليد، رجعوا وأمالوا الكرسي الذي تجلس فيه. لم تنط منه مباشرة، فهزّوه قليلاً، ولأنها كانت جالسة لا تنال - تنظر أماً على لا أحد - فقد أمالوها بعيداً عنه، مثل الطريقة التي تبعدين بها قطعة عن المقعد لو لم تكوني تريدين لمسها أو التقاطها بذراعيك. فتميلينها أماماً وهي تهبط إلى الأرض. لا يصير أذى ما دامت للقطعة أرجل أربعة. لكن شخصاً، امرأة، ربما تنكفي، وتظل هناك لدقيقة تنظر على كاسها، أشدّ بأساً بماهي عليه، غير محطومة على الأقل بل ترقد قليلاً على يدها. فقط بعيدة عن التناول.

كان هناك خمسة منهن، ثلاثهن «قبولت»، كل منهن جاءت أخيراً مناديةً ماما، كلهن جئن وقلنها حتى قالت هي «أه هوه». ولم يسمعنها أبداً تقول أي شيء آخر في الأيام التي تلت ذلك، حيث تكوّن في كوخ منزل، معتمدات كليةً على الجيران القلائل المتبقين من ١٨٨٨ - والذين لم ينتقلوا غرباً إلى «كانساس سيتي» أو «أوكلاهوما»، ولا شمالاً إلى «شيكاغو» أو

«بلومنجتون إنديانا». كن إحدى العائلات التي تأخر بها الرحيل، فمالت إلى «فلادلشيا»، حتى وصلت الرسالة بمحنة «روز دير» إلى «تروبيليه». أولئك الذين بقوا، أحضروا لها أشياء: حشية قش، آنية، وعاء للخبز، ودلو للحليب. نصيحة أيضاً: لاتدعي هذا يسوطك، يا «روز». لقد بعثك الله إلينا، «روز دير». فكّري في أولئك الصغار، يا «روز». فهو لن يوهبك شيئاً لست بقادرة على تحمّله، يا «روز». ولكن هل فعل؟ ربما فعلها مرة واحدة. أساء فهم والحكم على عمودها الفقري. هذا لمرة واحدة. نتوء العظم هذا هنا.

حين سمعت «تروبيليه» أم «روز» بذلك، جاءت. تركت وظيفتها الهيّنة في «بلتيمور»، وكانت قد خاطت عشرة دولارات منفصلات في جواناتها لتكون بأمن، عادت إلى محطة صغيرة تدعى «روما» في مقاطعة «فسبر»، لتحمل المسؤولية وتولي الأمور. وقد كانت الفتيات الصغار يقعن في الغرام مباشرة، ولكن عادت الأشياء لسيرتها الأولى. جعلت «تروبيليه» الأشياء منتظمة، يبطئ ولكن بثبات، ولمدة أربع سنوات قريباً. حينذاك قفزت «روز دير» في البئر، وضاع عليها كل المرح. بعد أسبوعين من دفنها، وصل زوج «روز» محملاً بقوالب مذهبة للأطفال، وقطع الدولارين للنسوة، وزيت الثعبان للرجال. وأحضر وسادة حرير مزخرفة لأجل «روز دير» كي تريح بها ظهرها على كنبه لم يمتلكها أحد قبلها، ولا بد ستكون لطيفة تحت رأسها حقاً في صندوق الخشب الصنوبر - فقط لو كان وصل في الوقت المناسب. أكل الأطفال الشكولاتة من قوالبها المذهبة وتاجروا بالورق السماوي اللون ما بين أنفسهم للحصول على مزامير القصب وصنارات الصيد. عضضت النسوة قطع الفضة قبل صرّها بحزم في ملاسهن. عدا «تروبيليه». مسّت المال، وحين مرّت بصرها من قطعة العملة إلى زوج الابنة، هزّت رأسها وضحكت.

«اللجنة» قال. «أو، اللجنة» عند سماعه ما قد فعلته «روز».

بعد إحدى وعشرين يوماً رحل ثانية، وتزوجت «فيولت» من «جو»، وكانت تعيش في المدينة حين سمعت من أخت لها أنه فعلها مرة أخرى: وصل إلى «روما» بكنوز تثقل جيوبه وملفوفة من تحت كاب رأسه. كانت رحلات عودته جريئة وسرية لأنه كان عضواً بأعلى سلطة في حزب «ريد جستر»، وحين لايجدي الإلحاح اللفظي من قبل ملاك الأراضي، يقوم بالخدعة أحد الأقوياء بدنياً، ويقتنع هو بأن ينقل نفسه لمكان آخر، أي مكان، آخر. وربما يخطط لإيجاد طريقة لطردهم جميعاً؛ وفي نفس الوقت كان يقوم بدورات خطيرة، خرافية وعجيبة، على مدار السنين، رغم أن الفواصل ما بينها صارت أطول وأطول، وبينما أصبح احتمال أنه لازال حياً أكثر وهناً، فلم يعد الأمل مجدياً. ربما يكون هناك، في أي وقت، في أي يوم اثنين هش البرودة أو في ليلة أحد بحرّها المنصهر، صفيّر بومة في الطريق، هزء، شيكات دولارية مقحمة ببروز مع كابه، أو مثبّنة بإحكام في ثنية بنطلونه وبوز حذائه. وفي جيب معطفه يكون الملبس بالكوم مع علبة دهان الشعر المصري «فريدة». زجاجات عطر الجودار، المياه المطهرة، وماء تواليت لكل زينة متخيلة تؤدي فعالية، كل ذلك كان يصحبه في حقيته المكسوة بالقטיפ.

لابد أنه الآن في سبعينيات عمره. أبطأ بالتأكيد، ربما فقد الأسنان التي تصنع البسمات فتجعل الأخوات يسامحنه. بالنسبة لـ «فيولت» (كما بالنسبة لأخواتها ولمن بقي في المقاطعة) فقد كان دائماً هناك بمكان ما، تشيله وتحطه المباحج ليوزعها على ناس بيته. وبالنسبة للذين يعوقونه، فقد كان «بابا نويل» المتحدّي كل يوم بتوزيعه الهدايا والحكايا التي تسرهم فينسون للحظة دوايبهم نظيفة العظم أو تربتهم المجهدة؛ أو يحلمون بأن ساق طفل لهم ستقوم اعوجاجها مع الأيام. ينسون لماذا رحل في المقام الأول وأجبر على الانسلاخ إلى أرض موطنه. سقط في غفران جماعته مثل حبّ اللقاح. لكن بالنسبة لـ «فيولت»، فإن حبّ اللقاح ذاك لم يمح «روز». في وسط انبعاث البهجة من وجود هذا الأب الشبحي، البهجة من توزيع سخائه الصادق والزائف معاً، لم تنس «فيولت» شخص «روز دير» أو المكان الذي رمت بنفسها فيه - المكان الضيق، والمظلم للغاية، حتى أنها تنفست بالراحة الكاملة حين رأتها ممددة بصندوقها الخشبي.

(شكراً للربّ على الحياة) قالت «تروبيليه»، (وشكراً للحياة على الموت).

«روز». «روز دير» الغالية.

إنني أتساءل، ماذا كان هذا الشيء، الشيء الوحيد والنهائي الذي لم تكن قادرة على تحمّله أو تكرار فعله؟ هل هو آخر غسيل أتلقت فيه البلوزة بحيث لم تعد تتحمّل أي إصلاح فتغير اسمها إلى هلاهيل؟ ربما وصلتها كلمة عن أيام الشنق الأربعة في جبال روكي: الرجال في الثلاثاء، والنساء بعدهم بيومين. أو أبناء المغني الشاب في تلك الفرقة والذي بتروا أعضاءه وربطوه في جذع، وقد رفضت جدته التخلّي عن بنطلونه الذي قرغوه، غسلته مرات ومرات برغم أن البقعة قد زالت من الشططة الثالثة. دفن في سرّوأل أخيه بعدها دلفت المرأة المعجوز دلواً آخر من الماء النظيف. ربما كان ذلك صباحاً بعد ليلة حاجتتهن الماسة (والتي أمّلت فيها) أن يخرجنها باليد؟ بعدها أزف الحنين، حين هزّزنها قبيل الفرار مؤمّلات في أن تعود ويستردنّها ككرة المطاط الهندية؟ أم أنه كان ذلك الكرسي الذي أمالوها من عليه؟ هل سقطت على الأرض راقدة هناك وقررت حينذاك أن تفعل هذا فعلاً. يوماً ما. لقد أخرته أربع سنوات حتى جاءت «تروبيليه» وتولّت الأمور، فكانت تنظر لألواح الأرضية وكأنها باب، مغلق ومسدود. هل رأتها كحقيقة متجردة في فنجان صيني غير قابل للكسر؟ وقد أرخت العنان لوقتها حتى عادت اللهجة - بكل موائها المؤذي وهياجها الزائد عن الحد - فأمكنها أن تصرف نفسها عن الباب والفنجان، لتخطو أماماً تجاه اللامحدود الذي يومئ إلى البئر. ما الذي كانت، إنني أتساءل؟

كانت «تروبيليه» هناك، تقوّىء، مقتدرة؛ تخطيط على نور المدفأة، وتزرع الحقائق، وتخصدها نهاراً. تصبّ الشاي بالخردل على جروح البنات وكدماتهن، وتعهّدهن في المهام اللاتي يقمن بها بحكايا ساحرة عن أيامها في «بليسمور» والطفل الذي كانت تعنى به هناك. ربما كان الأمر على هكذا: هي تعرف أن بناتها ماهرات الأيدي، أيديهن بأفضل من مهارة

يدها، في النهاية، كانت «روز دير» قد خلا بها الزمان الذي ماعاد يندفق، بل إنها كانت هيكلاً ساكناً حين أملوها عن كرسي مطبخها. لذلك، رمت بنفسها في قاع البئر، وضاع عليها كل المرح.

أما الشيء الهام، أكبر شيء خرجت به «فيولت» من هذه الحكاية، هو أن لا تنجب أطفالاً أبداً، أبداً. مهما حدث، لا قدم سوداء صغيرة لوليد ترتاح على الأخرى في حين يصيح الفم الجائع، ماما؟

بينما «فيولت» تكبر، لم تكن تلبث في مكانها أو ترتحل. فقد كان البئر يلحس نومها، بل وترعها نزوة الرحيل. أرغمتها «ترويليه» على ذلك. كان هناك محاصيل القطن المرحية في «فلسطين»، وكل القاطنين على بعد عشرين ميلاً يقومون بقطفها. سرت إشاعة بأن أجر الفتاة عشر سنتات، وربع دولار للرجل. ثلاثة مواسم مزدوجة كانت على التوالي بطقس رديء، وقد فاقت كل التوقعات، بعدها جاء يوم كانت الأزهار تتقاذف فيه مليئة وقشدية. لهث الكل، بينما صاحب الأرض كان ينظر شزراً ويتشاحن. مشى عامله الأسودان على الصفوف، لمس الأزهار الرقيقة، وضعا أصابعهما في التربة، وحاولا حل لغز السماء. بعدها جاء يوم صبح، بمطر جديد، وفي الرابع جف، كان حاراً وصافياً، ونعيم «فلسطين» بأنظف قطن رأته من قبل. أنعم من حرير، وخالياً تماماً من السوس، فقد تم عزل الحقول منذ سنين، فما عاد له من مكان هناك.

ثلاثة أسابيع. كان لابد من إتمام ذلك كله في ثلاثة أسابيع أو أقل. كل واحد بأصابعه في شكل نصف قطر بمساحة عشرين ميلاً، يؤجرون على البقعة. قال البعض بأن البالبة بتسعة دولارات، في حالة ما لو زرعتهما بنفسك؛ وأحد عشر دولاراً لو لديك صديق أبيض يحمل عنك مؤونة التشمين. وبالنسبة للقاطقين، عشر سنتات في اليوم للمرأة وربع دولار للرجل. فأرسلت «ترويليه» للذهاب مع الترحيلة الرابعة: «فيولت» واثنين من أخواتها. ركبنا طوال الليل، وتجمعن فجراً، أكلن ما قد مد إليهن، وشاركن المروج والنجوم مع الأهالي الذين لم يجدوا غضاضة في اتخاذ طريق العودة بكامله من أجل خمس ساعات نوم.

لم يكن لـ «فيولت» موهبة في ذلك. كان عمرها سبعة عشر عاماً، ولكن كانوا يحسبونها على أعمار الثانية عشرة - فتكون بأخرة الصف أو تتقابل مع الآخرين وهم عائدون على الصف. لهذا السبب وضعوها في القطفة الثانية هزيلة الشجيرات والتي تحوي انتفاخات أقل قليلاً كانت متبقية على الترويجات من أيدٍ أسرع من يديها. كانت خزيانة، تمرقها الدموع، تكاد أن تقرر التماس طريق العودة إلى «روما»، حين سقط رجل من على الشجرة مافوق رأسها هابطاً جنبها. كانت راقدة في أحد الليالي، عابسة ومرتبكة، تبعد قليلاً عن أختيها، لكن ليست بعيدة تماماً. ليست بعيدة تماماً حتى ليتمكنها الزحف عائدة إليهما بسرعة لو حدث أن امتلأت

الأشجار بالأرواح الهائمة ليلاً. البقعة التي اختارتها لتفرش بطايتها فيها، كانت تحت شجرة جوز سمراء بديعة، مزروعة على حافة الغابة لتحذ فدادين القطن.

لا يد أن السقطة لم تكن لحيوان الراكون (*)، لأنه قال أوو. تدرجت «فيولت» لبعيد حتى لصعب عليها الكلام، لكنها نهضت على أربعتها لتحطمه.
«لم يحدث أبداً من قبل» قال الرجل. «أنام في الأعلى هناك كل ليلة. وهذه أول مرة أقع فيها». لم تكن «فيولت» ترى ملامحه في وضع الجلوس، وكان أن حك ذراعه بعدها رأسه بعدها ذراعه مرة أخرى.

«أنت تنام في الشجر؟»

«لو لقيت واحدة جيدة».

«لا أحد ينام في الشجر».

«أنا أنام فيها».

«يبدو أنك مغفل. ربما تكون هناك ثعابين بالأعلى».

«الثعابين تزحف حول الأرض هنا ليلاً. فمن الآن المغفل؟»

«كدت أن تقتلني».

«ربما لازلت أود ذلك، لو لم تكسر ذراعي».

«أتمنى لو كانت كسرت فعلاً. لم تقطف شيئاً في الصباح وتسلق أشجار الناس

كذلك».

«لا أقطف القطن. أشتغل في المحلج».

«بم أنك لا تخدم هنا، مستر «هاي أند مايتي» (***)، إذن فلماذا تنام في الشجر

كخفاش؟»

«أما من كلمة لطيفة عندك لرجلي جريح؟»

«يه: فُتس عن شجرة شخص آخر».

«تتصرفين وكأنك تملكينها».

«وأنت تتصرف وكأنها كذلك».

«افرضي أننا نتشارك فيها».

«ليس أنا».

نهض، هز رجله قبل أن يجرب ثقله عليها، ثم عرج بجاء الشجرة.

«لن تصعد هناك ثانية على رأسي».

(*) حيوان ثديي بشمال أميركا - من اللواحم. (المترجم)

(**) تتهكم عليه: يا عالياً، يا جبار. (المترجم)

«سأخذ بالي» قال. «الحبل انقطع. ذلك ما أدى لهذا». قضى الليلة في أبعد الأغصان عن التناول. «ترين؟ ها أنا إذن. أتعلق مباشرة هناك. هوب». جلس هناك، وظهره مرتاح على الجذع. «عليك الانتظار حتى تنير الدنيا، رغم ذلك» قال، وكانت «فيولت» تتذكر ذلك دواماً، لأن أول أحاديثهما بدأ في الظلام (حيث لا يرى أحد من الآخر غير الظلال) وانتهى في فجر أخضر وأبيض، وقت ليل لم يكن لديها من قبل. فهي لن تصحو مرة أخرى أبداً لتجاهد في اقتلاع صورة بثر ضيق. أو تشهد أول نور بأسى باقي لأنها وجدت «روز دير» ترقص في الصباح، صغيرة للغاية، نحو المياه.

كان اسمه «جوزيف»، وقبل أن تشرق الشمس - حين كانت مخفية لا تزال في الغابة، لكنها تنمش خضرة العالم والفدادين المبهورة بالقطن الأبيض، مقابل جرح بليغ لأفق من الياقوت - كانت آهيمته «فيولت». ألم يسقط عملياً في حجرها؟ ألم يلبث هناك؟ طول الليل كله، نال ردها الوقع، متدماً، برماً، مستوضحاً، لكنه تكلم، كلمها من خلال الظلام. مع نور النهار هلت بقاياها: بسمته وعينه المراقبتان الوسيعتان. قميص عليه بدون أزهار مفتوح بعقدة عند الخصر معرضاً صدره، قد تصوره مخدتها الناعمة. قصبتا ساقيه، انبساط كتفيه، خط الحنك، والأصابع الطوال - تصورت كل ذلك. عرفت أنها لا بد أن تحديق فيه، وحاولت أن تبعد النظر، لكن التناقض في لون عينيه الاثنتين كان يرد على لمحتها كل مرة ومرة. صارت تنفعل حين يبدأ العمال حركتهم، يتسابقون لدعوة الفطور، نازلين من الشجر لإراحة أنفسهم، مصدرين أصوات الصباح - لكنه قال حينئذ «سأعود لشجرتنا الليلة. أين تكونين؟»

«تحتها» قالت، ناهضة من البرسيم كامرأة لديها أشياء هامة لتفعلها.

لم تقلق بشأن ما قد يحدث في ثلاثة أسابيع، في حين أنه من المفترض تأخذ دولارها والسنتات العشر عائدة إلى «ترويليه». وكما يظهر جلياً، فقد بعثت بها مع أختها، ومكثت في المنطقة المجاورة تصطاد عملاً. لم يكن لدى الرئيس ذي القبة القش ثقة فيها، كان يرقبها وهي تعرق جاهدة لتملأ جوالها بسرعة كالأطفال، ولكنها قد صارت أغنية ضاجة وفجائية في تصميمها.

انتقلت مع عائلة بستة أفراد إلى «تيريل»، وكانت تعمل في أي شيء فقط لتكون مع «جو» قدر استطاعتها. وهناك صارت المرأة الشابة القوية في عنفوان، والتي بإمكانها أن تتعامل مع البغال، وبالة القش، والخشب المقطوع، بامتياز، كأى رجل. وأصبح لراحتي يديها ونعلي قدميها وقاء فلم يعد يناسبها لاقفزات أو حذاء. كل ذلك كان لأجل خاطر «جو تريس»، صاحب العينين المزودجتين، ذي التسعة عشر ربيعاً، والذي يعيش مع عائلة بالتبني، ويعمل بالمخالج ونشر الخشب وفي القصب والقطن والذرة، ويقوم بالجزارة عند الحاجة، والعزق، والصيد، وبيع الجلود والطرائد - كان ذا عزيمة. يحب الغابات. يحبها. ولذا، فلم يكن صادماً لعائلته وأصحابه حين وافق على الزواج من «فيولت»، لكنه بعد ثلاثة عشر عاماً، وافق أن يأخذ الأخرى إلى «بليتيمور»،

حيث قالت بأن كل البيوت بغرف منفصلة والماء يأتي إليك - لاتذهب إليه أنت. حيث يعمل الملوثون الرجال في الموانئ بدولارين ونصف يومياً، يجرون الحمولة من سفن أكبر من الكنايس، أو يوقف آخرون السيارة عند باب بيتك ليأخذك لما تريد. كانت تصف بلدة «بلتيمور» التي كانت هكذا منذ خمسة وعشرين عاماً، كما أنها لاهي ولا «جو» يمكنهما السكنى بذلك الحي، لم تعرف ذلك، لم تعرفه أبداً، فقد ذهباً للمدينة بدلاً منها. استبدلا أحلامهما في «بلتيمور» بأحلام أخرى أكثر عنفواناً. عرف «جو» ناس المدينة وبعض الذين كانوا هناك وعادوا بحكايا تبدو «بلتيمور» معها وكأنها تدمع. المال المفروض أن تكسبه بأداء عمل خفيف - مثل الوقوف أمام باب، حمل الطعام على صينية، وحتى تنظيف أحذية الغرباء - تحصل منه في يوم على أكثر مما قد تكسبه في موسم حصاد كامل. يرمي البيض أديباً إليك المال - فقط لتظل قريباً: تفتح باب تاكسي، أو تلتقط شطة سفر. وأي شيء تناله أو تعمله أو تجده يمكنك بيعه في الشوارع. وفي الحقيقة، كان هناك شوارع يملك فيها الملوثون كل المتاجر، مجموعات كاملة من رجال ونساء ملونين بديعين، يضحكون طول الليل، ويجمعون مالا طول النهار. عربات من الصلب تتسابق في الشوارع، ولو ادّخرت كما يقولون، فيمكنك أن تنال واحدة تقودها على طول ما تمتد بك السكك.

أنصت «جو»، لمدة أربعة عشر عاماً، لمثل هذه القصص، وكان يضحك منها. ولكنه كان يقاومها كذلك، حتى أنه - على غير توقع - غير رأيه. لا أحد، ولا حتى «فيولت»، أتيح له أن يعرف لم هجر الحقول والغابات والوديان العزلاء السرية. لم تخلى عن صنارة صيده، عن سكين دباغته - كل قطعة منها لازالت في صندوقه عدا واحدة، بل واقترض حقيبة سفر لما كان يخصصها. لم تعرف «فيولت» أبداً ما الذي كان يشعله ويجعله يريد - على حين غرة، لكنه كان أكثر من كل شيء أخيراً - الانتقال إلى المدينة. لقد افترضت بأن العشاء الذي يدغدغ حلمه الجميع لعب دوراً في تغيير رأي «جو». لو كان «بوكرتي» جالساً يأكل سندوتش دجاج في بيت رئيس الجمهورية بمدينة تدعى العاصمة، قرب المكان الذي قضت فيه «تروبيليه» وقتاً طيباً، فإن كل شيء لابد أن يكون على ما يرام، على ما يرام. أخذ عروسه في قطار ركاب كهربي أذهلها حتى بظلت أعينهما وداوما الرقص إلى المدينة.

ظننت «فيولت» أن ذلك سيخيب أملهما؛ فلا بد أنها أقلّ جمالاً من «بلتيمور». وظن «جو» بأن ذلك أفضل. عند وصولهما، حاملين كل ما يخصصها في حقيبة سفر واحدة، عرف كل منهما مباشرة بأن أفضل ليست هي الكلمة. فهي كانت الأفضل.

لم يكن «جو» يريد صغاراً أيضاً، ولذا كانت الإجهاضات - مرتان في الحقل، ومرة فقط في سريرها - مزعجة بأكثر منها خسارة. ولابد أن الحياة بالمدينة ستكون أحسن من دونهم. عند وصولهم لمحطة القطار أواخر ١٩٠٦، فإن البسمات التي ابتسماها كلاهما للنسوة مع أطفالهم الصغار، كانت تدب كالحرز على الحقائق، وتتلاصق مع الشفقة. فقد كانا يجبان الأطفال.

يجانهم، رغباً. خصوصاً «جو»، كان له طريقة معهم. لكن كلاً لم يكن يريد متاعب. بعد سنين، على أي حال، عند بلوغ «فيولت» الأربعين، كانت تَحْدَقُ فعلاً في المواليد، وتتردد أمام اللعب المعروضة أيام رأس السنة. وكانت سريعة الغضب حين يرمي أحدهم صغيراً بكلمة حادة، أو تبدو امرأة حاملاً لوليد محرّجة أو مهملة. وكان أسوأ جرح حارق نالته أن رأت امرأة تحضن وليداً على ركبتيها وكأنها في معبد. فقد تاهت «فيولت» مع تربيته يد المرأة وهزهرة ركبتيها للولد الصغير، وعندئذ نسيت يدها القابضة على مكواة لف الشعر. جفلت الزبونة وتغير لون الجلد فوراً. ناحت «فيولت» باعتذاراتها ورضيت عنها المرأة حتى اكتشفت أن عقصة الضفيرة قد شاطت مزيلة ما تحتها. برأ الجلد، لكن بقعة خالية ظلت هناك في خط شعرها... وكان على «فيولت» أن تنسى الأجر حتى تخرسها.

وعلى مرّ الأيام صار الحنين أثقل من الغريزة: رغبة لاهثة ما من سبيل للوصول إليها. كانت تترنح في عبوديتها أو تتصالب في جهدٍ لتطردّها. كان ذلك حين ابتاعت لنفسها هدية؛ أخفتها تحت السرير لتخرجها سرّاً عندما يفيض بها الحال. بدأت تتخيل كم سيكون عمر آخر طفل أجهضته، الآن. بنت، ربما. بالتأكيد بنت. من كانت تفضّل؟ كيف ستكون فتايت كلامها؟ وبعد وقت الطعام، كانت «فيولت» ستنفخ بأنفاسها في طعام البنت الوليدة، ترطب من أجل الفم الرقيق. وفيما بعد، يغنيان سوياً، تأخذ «فيولت» خطّ الصوت الألتو، والبنت الصوت السيرانو (★) العسلي. [ألا تذكر، من وقت طويل مضى، كان هناك ولدان صغيران لا أعرف لهما اسماً، جرفتهما أحد نهارات الصيف المشرقة، فضاعا في الغابة، وكنت أسمع الناس يقولون بأن الشمس قد غربت ولمعت النجوم بنورها. رقد الوليدان البائسان في الغابة وماتا. بعد موتها وضع عصفور الحنّ الأحمر أوراق الفراولة على رأسيهما فعلاً. أو. بعد ذلك كانت «فيولت» تصفّ شعرها لنفسها على طريقة بنات هذه الأيام: قصير، ومقصّوص بخفة خطّ على الحواجب؟ خصلتا أذن؟ جزء رفيع مقصوص على الجانب؟ شعر ينزل على هيئة موجات لينة مصفوفة تبعاً لحرف «تي»؟

كانت «فيولت» تغرق في ذلك وتحلم بعمق. فقط حين تسطح ثدياها في النهاية حتى لم تعد بحاجة لمشدّات ترتديها النسوة الشابات لجعل الصدر يبدو وكأنه لولد يافع، فقط حينما فقدت حلمتها تستنهما، كان جوع الأمومة يضربها بمطرقة. يصرعها ويرهقها. وعندما استيقظت، كان زوجها قد أطلق النار على فتاة صغيرة كان يمكن لها أن تكون ابنتهما بشعرها الذي قد صففته للقتل. والتي ترقد هناك نائمة في ذلك الكفن؟ من تتكلف وضعاً واعياً بالصورة؟ القبة الماكرة التي لم تقدر مشاعر «فيولت» ولو بأقلّ القليل، والتي جاءت للدنيا، فأخذت ما أرادته، واللعنة على العواقب؟ أو كانت فتاة زلاية ماما؟ هل هي المرأة التي نالت الرجل، أم الابنة التي هجرت رحمها؟ كانت تغتسل بمدّ من الصابون، والملح، وزيت القندس.

(★) alto: الصوت المنخفض للنساء، soprano: الصوت المرتفع للنساء والأولاد. (المترجم)

ربما كانت مفزوعة، من منزل قاسٍ تماماً. لم تكن تعي بذلك، مالو فشل، أو واجهت بشجاعة سموماً من صنع أمٍ وقبضات أمٍ عاجلة، لكان شعرها الآن بأفضل تصفيف في المدينة. بدلاً من هذا، كانت تتعلّق بركب الأطفال السمينه حولها. في فترينات المحلات، وفي عربات الأطفال المتروكة لحظّة في الشمس. كانت لا تعي هذا، القحبة أو الزلاية، كلاهما، أمّ وابنة، فقد كان بإمكانهما التجوال عبر «برودواي» معاً وأن تنظرا بغرامٍ للملابس. وكان يمكنهما الجلوس سوياً، بدفءٍ عائليّ في المطبخ، بينما «فيولت» تسوّي لها شعرها.

«في زمان آخر» قالت لـ «أليس منفريد»: «في زمان آخر، كان يمكن أن أحبها أنا أيضاً. تماماً كما فعلت أنت. وتتماماً كما فعل جو». وكانت تمسك بياقة معطفها وهي تطويه، وارتبكت للغاية حين سمحت لمضيفتها بأن تعلقه، خشية أن ترى السراجة.

«ربما» ردّت «أليس». «ربما. لا يمكن أن تعرفي الآن، ولو، صحيح؟»

«كنت أظن بأنها كانت جميلة. جميلة حقاً. لكنها لم تكن».

«جمالها معقول، أودّ أن أقول».

«أنت تقصدين الشعر. لون الجِلد».

«لا تخبريني عما أقصد».

«إذن ماذا؟ ماذا رأي فيها؟»

«عار عليك. امرأة كبيرة مثلك تسألني في هذا».

«لا بد أن أعرف».

«إذن أسألي الوحيد الذي يعرف. تريته كل يوم».

«هل أنت مجنونة».

«لو أنني كنت أريد هذا».

«حسناً. لكنني لا أريد أن أسأله. لا أريد سماع ماهو مفروض أن يقوله عنها. تعرفين عن ماذا أسأل».

«غفرانك لو كنت أعرف ما تسألين عنه وليس بمقدوري أن أعطيك إياه. ليس هذا في طاقتي».

«لا، ليس هكذا. ذلك ليس هو، غفرانك».

«ماذا، إذن؟ لا تثيري شفقتي. لن أحمّل منك أن تثيري شفقتي. هل تسمعينني؟»

«كلانا مولود في نفس الوقت، أنا وأنت»، قالت «فيولت». «نساء نحن، أنا وأنت. احكي لي شيئاً حقيقياً. لا تقولي أنا كبيرة فحسب ويتبعني أن أعرف. لست هكذا. أنا في الخمسين ولا أعرف شيئاً. ماذا في ذلك؟ هل لأنني أمكث معه؟ أريد، أظن. أريد... حسناً، لم أكن دائماً...»

«أعرف ما أريد. أريد شيئاً يستحق في هذه الدنيا».

«اصحي. يستحق أو هزبل، فقد نلت شيئاً واحداً فقط. وهذا هو».

«أنت لا تعرفين أيضاً، صحيح؟»

«أعرف بدرجة تكفي أن أعرف كيف أتصرف» .
 «هل الأمر هكذا؟ هل الأمر كله هكذا؟»
 «هل كان الأمر كله على هكذا؟»
 «أوه، خلاص! أين هم كبار السن؟ هل هم نحن؟»
 «أوه، ماما» قالت «أليس منفريد» دون تفكير، وغطت فمها بعدها.

كان لدى «فيولت» نفس الفكرة: ماما. ماما؟ هل هذا ماتوصلت إليه، ولا يمكن أن تفعل شيئا بعده؟ مكان ظليل دون أشجار، تعرفين بأنك غير موجودة فيه، ولن تكسبي حب أي امرئ مرة أخرى لو اختار أن يفعل لك هذا؟ بينما كل شيء ينتهي غير الكلام؟

كانتا تنظران متباعدتين عن بعضهما حينذاك. استمر الصمت ودام حتى قالت «أليس منفريد»: «اعطني هذا المعطف. لست أقدر أن أرى هذه السراجه دقيقة أخرى». نهضت «فيولت» وخلعت معطفها، خلعت بحذر من ذراعيها المشتبكين بالحرير الرث. ثم جلست تراقب الخياطة وهي تقوم بعملها.

«كل ما بإمكانني أن أفكر فيه هو أن أخطأه مثلما تخطأني» .
 «حمقاء»، قالت «أليس» وهي تقطع الخيط.
 «لا يمكن أن أناديه باسمه لو توقفت حياتي على هذا» .
 «أراهن أن يفعلها هو» .
 «خله» .

«ما الذي تظنينه قد يحل الأمر؟» لم ترد «فيولت» .
 «هل فعل هذا منك يلفت انتباه زوجك؟»
 «لا»

«أتودين نبش قبر بنت أختي؟»
 «لا»

«هل أقولها ثانية؟»

«حمقاء؟ لا. لا، لكن أخبريني، أقصد، أنصتي. إن كل من كبرنا معه، قعيد بيته الآن. ولا أطفال لدينا. وهو من نلته. هو من نلته» .

«لا تبدين هكذا» قالت «أليس»، وهي تخطط غرزا لا ترى للعين.

في آخر مارس، كانت «فيولت» جالسة في الصيدلية المتجر «دجي»، تلعب بملعقة، وتستدعي الزبارة التي قامت بها لـ «أليس» هذا الصباح. جاءتها مبكراً. وقت روتيني وليس لدى «فيولت» ما تؤديه.

«هذا مختلف عما كنت أفكر فيه» قالت «مختلف» .

وكانت «فيولت» تقصد عشرين عاماً من الحياة في مدينة هي الأفضل على الإطلاق، لكن «أليس» لم تكن سألها ما الذي تقصده. لم تكن سألها إن كانت المدينة - بكل شوارعها الممهّدة - قد أثارت الفضول أخيراً لأي شيء عدا الحماقة. أو أنها كانت المدينة التي جلبت نوعاً ملتويّاً من الحداد لشابة خصمها كان يمكن أن يكون ابنتها.

كانتا تتكلمان عن العواهر والنسوة المكافحات - «أليس» مُحنقة ؛ «فيولت» حيادية. بعدها حلّ صمت، بينما كانت «فيولت» تشرب الشاي وتنصت لهسيس المكواة. في هذه المرة كانت المرأتان تباسطان مع بعضهما البعض حتى أن الكلام لم يعد ضرورياً أحياناً. «أليس» تكوي، و«فيولت» تشاهد. من وقتٍ لآخر تدمدم إحداهما بشيء - لنفسها أو للآخرى. «كنت أحبّ هذا الهراء»، قالت «فيولت».

ابتسمت «أليس»، عرفت دون أن ترفع بصرها أن «فيولت» تقصد النشا. «وأنا أيضاً» قالت. «دفعت زوجي للجنون». «هل هذا للطحن بالأسنان؟ أليس هذا طعمه». هزّت «أليس» كتفيها بلا مبالاة. «يعرفه الواحد فحسب». هسّت المكواة على عتمة القماش. أمالت «فيولت» خدّها على راحة يدها. «تكوين مثل جدتي. أعلى الرقبة في الآخر».

«هذا اختبار الكي من الدرجة الأولى».

«يكوي البعض أعلى الرقبة في الأول».

«عليك أن تعيدي عليها مرة أخرى. أكره الكي الكسول».

«أين تعلّمت الخياطة؟»

«جعلونا نشغل أنفسنا ونحن أطفال. كنا أيدي عاطلة، تعرفين».

«أما نحن فكنا نقطف القطن، نقطع الخشب، ونحرق. لم أعرف أبداً معنى أن أطوي يدي. وهنا، على التقريب، وبقدر الإمكان، لم أكن أعتاد أن أرى يدي لا تفعل شيئاً».

أكل النشا، الاختيار لحظة شدّ الحيوان إلى نيره، الخياطة، القطف، الطبخ، قطع الخشب. كانت «فيولت» تفكر في ذلك كله وهي تندب. «كنت أظن «جو» لابد أكبر من فعله ذاك. كنت أعرف أنه لن يدوم، ولكنني ظننت بأنه لابد أكبر».

أعادت «أليس» طيّ القماش حول مقبص المكواة الضاغطة. «سيفعلها مرة ثانية، تعرفين. وأخرى وأخرى وأخرى».

«في هذه الحالة أفضل بأن أرميه للخارج الآن».

«ثم ماذا؟» هزّت «فيولت» رأسها. «أراقب عندئذ ألواح الأرضية (*)»، كما أخمّن.

(*) تقصد الانتحار، كما فعلتها أمها «روز دير» في البحر. (المترجم)

«أتريدين شيئاً حقيقياً؟» سألتها «أليس». «سأخبرك به. أما من شيء آخر باقٍ لديك تحبينه، أي شيء على الإطلاق، افعلي ذلك».

رفعت «فيولت» رأسها. «وحين يفعلها مرة ثانية؟ ألا أهتم بما يفكر فيه الناس؟»
«اهتمي بما هو باقٍ لديك».
«تقولين أن آخذه؟ أن لا أقاتل؟»

وضعت «أليس» مكواتها أرضاً، بعنف. «تقاتلين ماذا؟ ومن؟ طفلة عديمة التدبير رأت أبويها يحترقان؟ عرفت أفضل منك أو مني أو أي واحد آخر كم أن هذه الحياة القصيرة الضئيلة، سريعة وتافهة؟ كأنك تريدين، مثلاً، سحق امرئٍ لديه ثلاثة أطفال وزوج واحد من الأخذية. شخص في رداء مهلهل، ذيله يتجرجر في الطين. شخص يريد ذراعين مثلك، وتريدين أن تذهبي لهنالك وتمسكيها، لكن رداءها في الطين، والناس والواقفون حولها لا يفهمون كيف تنطق عينا ابن آدم، كيف؟ لا أحد يطلب منك بأن تأخذي ذلك. أقول اصنعيه، اصنعيه!»

أخذ ذلك منها لحظة بينما رأت أن «فيولت» كانت تحدّق. تتبّعت «أليس» نظرتها، ورفعت المكواة، فرأت ما كانت تراه «فيولت»: سواد هلي هيئة سفينة مدخنة، كانت أحرقت أعلى الرقبة وأخلت مكانها.

«خراء!» صرخت «أليس». «أوه، خراء!»

كانت «فيولت» أول من ابتسمت. بعدها «أليس». وبدون وقت تقريباً كان الضحك مجلجلاً من كليهما. «فيولت» تتذكّر «ترويليه»، والتي كانت قد دخلت غرفة كابيتنتهما المفردة وضحكت بطريقة هزمت فريقهما. كانتا تقعيان بعجيزتيهما مثل جردان قرب مدفأة، ولا من موقد حتى على الأرض، وكانتا جوعاتين ومتوترتين. نظرت «ترويليه» عليهما، وكان يبنغي لها أن تستند إلى الحائط لا أن تجعل ضحكها يقلبها على الأرض معهما. لا بد أنهما كرهتاها. قامت عن الأرض، وكرهتاها. بل إن ما شعرتا به كان أفضل من ذلك. فلم تكونا مهزومتين أوضاعيتين. كانتا أفضل. ضحكنا ثانية، حتى هزّت «روز دير» رأسها وابتسمت، كأن العالم يراح في صفها، فجأة. عرفت «فيولت» عندئذ ما كانت تنساه حتى هذه اللحظة: أن الضحك جاد. أكثر تعقيداً، وأشدّ جذية من الدموع.

كانت «فيولت» منهارة تماماً، أكتافها تهتز، ففكرت فيما كان يبنغي لها أن تنظر عليه في الجنازة، في معمار مهمتها تلك. منظرها وهي تحاول أن تفعل شيئاً زنجي الأصل، شيئاً كان يلمّ بالأحداث، تلمس السكين، متأخرة للغاية على أي حال... ضحكت حتى كحّت، وكان على «أليس» عندئذ أن تعمل لكلّ فنجاناً من الشاي الثقيل.

كانت متورطة مثل «فيولت» في تسنّمها تطوّر الأحداث، حتى لم تتمكن من حسو

الشعير المتبقي - دافئاً، كالماء، من دون طعم. زرّرت معطفها، وغادرت الصيدلية المتجر، وفي نفس اللحظة وكما فعلت «فيولت» الأخرى، لاحظت أنه الربيع. هلّ على المدينة.



حين يهلّ الربيع على المدينة يلحظ الناس ربيعاً آخر في الطريق ؛ يلحظون الغرباء الذين يشاركونهم مماسيهم والموائد والمساحة التي يغسلون فيها ملابسهم الحميمة. يدخلون ويخرجون، من داخل وخارج نفس الباب، يقبضون المقابض ؛ في التروليات ومقاعد الحديقة يريحون أفخاذهم على مقعد قعد عليه المئات أيضاً. كانت عملات النحاس حين تسقط في راحة اليد، يصبرها الأطفال بأيديهم، أما العجر فكانوا يختبرونها أولاً، لكن المال دائماً هو المال ويتسم الناس من أجله. في هذا الوقت من العام تستحث المدينة غالباً الشيء ونقيضه فيه، تشجعك على شراء طعام الشارع حين تكون شهيتك منعومة على الإطلاق ؛ أو تمنحك ذائقة لغرفة مفردة تشغلها بنفسك بالإضافة لتلمسك مشاركة من شخص آخر فيها تمر به في الشارع. في الحقيقة ليس هناك تناقض - بل هي حالة: مجال لما يمكن أن تفعله مدينة فنانة. ماذا يمكن أن يهزم القرميد المستدفيء بالشمس ؟ عودة الظلال. نزع الأغطية عن ظهور الجياد. ينعم القار تحت الكعوب، وتتغير العتمة تحت الكباري من ظلها العابس نحو البرودة. بعد مطر خفيف، وحين تورق الأوراق، تبدو أوصال الشجر كأنها أصابع مبلولة تلعب في شعر من الصوف أخضر. تصير السيارات صناديق نفاثة سوداء تزلق خلف أنوار مغمّاة قد أضعفها الضباب. وتتحوّل على المفارق إلى أشكال ساتانية تحرك كتفها أولاً، وتظهر تيجان مقدمها تروساً لاصطياد النور الذي كوّنته قطرات المطر. تلمح وجوه الأطفال في النوافذ وكأنها تبكي، لكنه لوح الزجاج المنقّط الذي يجعلها تبدو هكذا.

في ربيع ١٩٢٦، بظهيرة مطيرة، كان أي امرئ يعبر الزقاق القريب من شقة منزل معين في «لينوكس» لابد أن يرفع بصره ليرى، ليس وجه طفل بل وجه رجل كبير يركي مع لوح الزجاج. منظر غريب تراه بصعوبة: الرجال الباكون بشكل مكشوف. فهذا ما لا يفعلونه عادة. ولأنه غريب بهيئته هكذا، فقد اعتاده الناس أخيراً، وهو يمسح وجهه وأنفه بمنديل أحمر في خطوط مهندسة، بينما كان يجلس جنب النافذة هناك شهراً بعد شهر دون أن يراه أحد أو في شرفة المبنى، في الجليد بدايةً وأخيراً بعده في الشمس. لابد أن أذكر بأن «فيولت» كانت قد غسلت هذه المناديل وكوتها، فهي لم تعد -مجنونة كما كانت، شعثناء كما صارت- تتحمل غسيلاً قذراً. بل قد أتعبت الجميع في انتظار ما الذي بإمكانهم أن يروه من «فيولت» تفعله

بالإضافة لمحاولة قتل فتاة ميتة أو تجعل مناديل زوجها مهندمة. وفي رأيي الخاص أنها ستكسّر تلك المناديل ذات يوم، تأخذها لدرج المرأة، تطويها داخله، وتذهب بعدها لتخفّف شعره بأصابع مزدوجة. لم تكن تفعلها، ولكن ربما كان من الأفضل أن تفعلها. تقصد أولاً تقصّد، فقد جعلته يكابد ذلك مرة أخرى - في وقت ربيعي، حيث كانت الدنيا بأصفى مما كانته في أي وقت مضى، وذلك لأن حياة المدينة هي نفسها حياة الشارع.

كان رجال عميان يدبّون ويهمهمون في الهواء الناعم أثناء سيرهم الحثيث بطيئاً على الرصيف. لا يغنون الوقوف بقرب أحد، أو يتنافسون مع الأعمام العجائز الذين تكتلوا وسط المبنى جميعهم من أجل عزف جيتار ذي ستة أوتار. مغني زنجي. سود ومغني زنجي. سود من أجل مغني زنجي. كل امرئ يعرف اسمك. أين ذهبت هي ولماذا يارجل. من وطأة الوحشة يمكنني أن أموت يارجل. كل امرئ يعرف اسمك.

صعبٌ على المغني أن يضلّ، كان يجلس على قفص فواكه في منتصف الطوار. رجله الخشبية تتمدّد بارتياح؛ أما الأخرى الحقيقية فتحمل ثقل كل من الطبلّة والجيتار، ربما يظن «جو» أن الأغنية عنه. يبدو كالمصدّق ذلك. أعرفه جيداً. قد رأيته يطعم حيوانات صغيرة لاتلفت انتباه أحد إليها، ولكني لم أنخدع أبداً. أتذكر طريقته التي اعتادها في رفع قبعته عند مغادرة مبنى السكن؛ كيف أنه كان يحركها أماماً وإلى اليسار قليلاً. ولو انحنى ليزيل كومة من نفاية حصان أو يمشي الهويني إلى فندقه الأنيق، فلا بد أن تكون قبعته على هكذا. فهي ليست غطاءً بالضبط، بل هي «تندة» مخديداً، يمكنك أن تقول هذا. وكان لا بد أن يزرر السويتير كله لأعلى مني تحت چاكت بدلتته، ولكنني أعرف أن أفكاره ليست كذلك - فهي طليقة. يخفض عينيه عند عشاق النواصي الذين يستندون إلى الأركان. يريدون شيئاً منه وهو أيضاً. يريد بعض الرجال شراء القليل للغاية من شئنة عينته كليبواترا - عدا بودة ما بعد الحلاقة المغبرة، فإن معظم ما فيها للنساء. النساء اللواتي يمكنه مواصلة الحديث معهن، والنظر إليهن، ومعايشتهن، فمن يدري أي شيء كان يدور في باله؟ ولو منحته إحداهن بنظرتها وقتاً بعد وقت النهار، تبدو عيون عشاق النواصي وهي تراقب راضية أكثر منها.

أو كان كذلك يحسّ بالأسى على نفسه من كونه الصادق في المقام الأول. ولو لم يقدّروا تلك الفضيلة فيه، أو يقفز أحدهم ليهنته عليها، يتحول أساه الشخصي لامتعاضٍ بفهم مضطرب، ولكن ينعدم الاضطراب حين يرى الدون جوانات الواقفين على النواصي مشعين ووحشين. احذر. احذر رجلاً صادقاً بقرب الخمسين. لأنه لم يعاين امرأة أخرى أبداً؛ لأنه اختار تلك الفتاة الصغيرة ليعشقها، وظنّ بأنه حرّ. ليس حرّاً في تقطيع أرغفة أو إطعام العالم من فوق سمكة. أو يبعث ميت الحرب حياً، ولكنه كان حرّاً في فعل ما هو وحشي.

صندوقني في هذا، فهو مربوط بالصندوق. يجرّه مثل الإبرة على أخدود اسطوانة «المصفور الأزرق». يدور ويدور عبر البلدة. هكذا طريقة المدينة في أن تدبر رأسك. تجعلك تفعل ما تريده هي، فتذهب إلى حيثما تبوح لك الطرق الممهّدة. في كل لحظة تجعلك تظنّ بأنك حرّ ؛ أن يمكنك القفز إلى الأدغال لمجرد الإحساس بالرغبة فيه. ليس من أدغال هنا، ولو كان العشب الحصيد صالحاً للسير عليه، فإن المدينة تدعك تعرف ذلك. لا يمكنك أن تهبط من فوق صندوق تمهّده المدينة لك. ومهما يحدث، سيّان تصير غنياً أو تظلّ فقيراً، تدمّر صحتك أو تعيش لأرذل العمر، فأنت حتماً تنتهي عائداً إلى حيثما بدأت: جوعان للشيء الوحيد الذي يخسره كل واحد - وهو عشق الشباب.

تلك كانت «دوركا»، حسناً. شابة لكنها عاقلة. كانت حلوى «جو» الشخصية - كأنها النعناع. لقد كانت أفضل شيء، فقط لو كنت شاباً عند وصولك توما للمدينة. كل ذلك مع آلات الكلارنت وذلك الذي يسمونه عصي العرسوس. لكن «جو» وصل المدينة منذ عشرين عاماً، ولم يعد شاباً الآن. إنني أتخيّله كواحد من أولئك الرجال الذين يقف العمر بهم عند حوالي السادسة عشرة. باطنياً. وبرغم أنه يرتدي سويترات مزرّة كاملاً من الأمام وحذاء بوبز مدور ؛ فهو يبدو صغيراً، طويلاً بفتوة، ولا زال النعناع يجعله يتسم. يحب أنواع النعناع التي تدوم رائحتها طوال حياة اليوم، ويظن الآخرين يحبون ذلك منه. يمرّ بهم وهو خارج إلى أولاد «چيستان» الذين يتشقلبون عند المنحى. يمكنك القول بأنهم يفضلون الشكولاتة أو أي شيء بالسوداني.

يجعلني هذا أتعجب من أمر «جو». كان يجلب كل هذه الأشياء النافعة من «ويندمير»^(*) ويدفع مالا كثيراً في الغالب من أجل النعناع الدبق وتافه الرائحة، كما كان يفعل لأجل الغرفة التي يستأجرها ليضاجع فيها. حيث كانت تفتح له علبة النعناع التي تخصّه.

فأر. لاعجب أن انتهى على النحو الذي كان. بل لم يكن ينبغي له ذلك، فلو كفّ عن جرجرة تجارته السريعة التافهة عبر طرق البلدة بطولها، ولو أبلغ «ستوك» أو «چيستان» أو أي جاري كان مهتماً بأمره، فمن يدري كيف تجري الأمور حينذاك؟

«إن هذا ليس مما تخبره لرجل آخر. أعرف أن معظم الرجال لا ينتظرون بل يخبرون بعضهم البعض عما يدور بأحد الجوانب. فهم يفشون كل أمورهم علناً في الشارع. يفعلون هذا لأن النساء لانهتم به كثيراً، ولأنهم لايعينهم ما يتقول به القوم عنها هي. نصف الطريق لذلك

(*) فندق كان يعمل فيه، أوآخر أيامه. (المترجم)

كان معظم ما فعلته وهو إخبار «ملقون»، فلا مناص أن أفعل هذا. لكن أن أخبر به رجلاً آخر؟ لا. ربما يضحك منه «جيسان» فحسب ويحاول أن يهرب بسمعه من ذلك. أما «ستوك» فسينظر على قدمه، ويقسم بأنني محق فيه، ويخبرني: يا «جو»، أحتاج مثله بشدة لعلاج نفسي. لم أخبر أحدهما عنها. ليس هذا شيئاً تحكيه إلا ربما لصديقي حميم، شخص تكون عرفته من قبل، من زمن طويل مثل «فكتوري»، لكن لو سحنت الفرصة فلا أظن بأنني كنت أخبره، لأنه إن لم أتمكن من حكي ذلك لـ «فكتوري»، فلأنني لا أقدر على أن أحكيه لنفسي حيث كنت لا أعرف كل شيء بشأنه. كل ما أعرفه أنني رأيتها تشتري النعناع، وكان الأمر كله لذيذاً. ليس فقط النعناع - بل هي وصورتها في ذلك. فالنعناع شيء ما تلحسه، وتمصّه، ثم تبلعه، فبروح. لا. هذا كان شيئاً آخر. أكثر من ماء أزرق وأزهار بيض، وسكر في الهواء. كنت أحتاج لأن أكون فيه، حيث يختلط كل شيء معاً مباشرة تماماً، وحيثما يكون، تكون «دوركا».

«عند وصولي للشقة لم يكن لدي اسم أمنحه للوجه الذي رأيته في الصيدلية المتجر، ولا كان وجهها في بالي مباشرة عند ذاك. لكنها فتحت الباب، فتحت أمامي على التوّ. فشملت كعكة الرطل (*) بدجاجها المختفي فيها. تجمّعت من حولي النسوة فأريتهن ما عندي، وكن يضحكن ويفعلن ما تفعله النساء: ينقرون على جاكيتي، ويضغطنني من الكتف لأجلس. وهي طريقتهم في تريممك، وإصلاح ما يعتقدن بحاجته للإصلاح.

«لم تهيني نظرة أو قالت أي شيء. لكنني كنت أعرف أين تقف وكيف، في كل دقيقة. أمالت عجيزتها على ظهر كرسي في الصالة، بينما انهمرت النسوة خارجات من غرفة الطعام ليبرتن عليّ ويمازحينني. ثم نادى إحداهن باسمها. «دوركا». لم أسمع كثيراً به. ظللت هناك، أريهن كل ما في جبتي، مبتسماً، لا أبيع بل أدعهن يبعن لأنفسهن.

«أبيع بصدق؛ وأتأسط في البيع. تلك أفضل الطرق. لا ألح. مثلما في «ويندمير» حين كنت أنتظر طلبات الموائد. أنا هناك فحسب حين تعوزني. أو عند ترتيب الغرف، وتهيئة الويسكي متخفياً وكأنه قهوة. هناك فحسب حين تعوزني، وتاماً في الوقت المناسب. تتوصل لمعرفة أن هذه المرأة ستطلب أربع كاسات من شيء ما، لكن ينبغي عليك أن لا تجعلها تطلبك أربع مرات؛ تنتظر حتى يصل كاسها لثلاثه فتملأه ثانية. تلك هي الطريقة، هي تشرب كاساً واحداً بينما يدفع هو حق أربعة. يهمس المال بهدوء مرتين: مرة حين أزلقه بجيبتي، وأخرى ليخرج منه.

«كنت مستعداً أن أنتظر، وأجعلها تتجاهلني. لم يكن لدي خطة، ولم أكن أستطيع تنفيذها لو وجدت. كنت أحس بدوار مع نشوة لا بد أنها جاءت من شذا الليمون الثقيل، وبودرة الوجه، وعرق تلك المرأة الخفيف. كان مالحاً. غير لاذع كعرق الرجل. ولست أعرف حتى اليوم

(*) كعكة من سكر ودقيق وبيض وزيد. (المترجم)

مالذي جعلني أتحذّر إليها في طريقي للخروج من الباب.

«يمكن لي استدعاء ما يقوله الناس. أنني كنتُ أعمال «فيولت» وكأنها قطعة أثاث أستحسنها، رغم أنها تحتاج لشيء ما كل يوم كي تظلّ ثابتة ومنصبية. لا أعرف. ولكنني منذ «فكتوري»، لم أعد أتعلق تماماً بأي واحد. كنت متعلقاً بـ «جيسان» و«ستوك»، لكن ليس على طريقة شخص تعرفه منذ مولدك، ووصلتما للرجولة معاً في نفس الوقت. كان لابد أن أحكي لـ «فكتوري» عن ذلك. أما «جيسان» و«ستوك»، فمهما قلت لهما ما أظنه جَمِماً، فهو لا يكون هكذا حقاً. لم أقدر على الكلام مع أي واحد عدا «دوركا»، فقد حكيت لهما أشياء لم أحكما حتى لنفسني. معها كنت طازجاً وجديداً، مرة أخرى. قبل أن أقابلها، كنت قد تغيّرت إلى جديد مرات سبعة. كانت المرة الأولى حين سميت نفسي، لأنه لا أحد فعلها من أجلي، لا أحد عرف ما يمكن أو لابد أن يكونه، اسمي.

«ولدت وتربيت في مقاطعة «فسبر»، بولاية «فرجينيا»، في ١٨٧٣. بمكان صغير يدعى «فيينا». أخذني فوراً «رودا» و«فرانك ويليمز»، ورياني مع ستة من أولادهما على الدوام. حين أخذتني مسز «رودا»، كان عمر طفلها الأخير ثلاثة أشهر، وظللت أنا وهو قريبين من بعضنا أكثر من الإخوة العديدين الذين رأيتهم. كان اسمه «فكتوري». «فكتوري ويليمز». كانت مسز «رودا» تسميني «جوزيف» على اسم أبيها، لكنها لم تفكر لاهي ولا السيد «فرانك» أيضاً في منحي اسماً آخر. لم تكن تدعي أبداً أنني ابنها الطبيعي. وعند تقسيمها للأعمال الروتينية أو الخدمات كانت تقول (أنت تماماً مثل ولدي). وأخمن أن تلك «المثل» هي التي جعلتني أسألها يوماً - لا أظن بأنني كنت بلغت الثالثة بعد- أين هما أبواي الحقيقيان. خففت بصرها إليّ، ومن فوق كتفها، منحنتي أعذب ابتسامة، لكنها حزينة نوعاً، وأخبرتني، يا حبيبي، اختفيا دون أي أثر. بالطريقة التي سمعتها منها، فهمت بأنها تعني أن اختفاءهما كان من دوني أنا، «الأثر» (*)

«كان عليّ، في أول يوم رحّلت فيه المدرسة، أن أتخذ اسمين. قلت للمعلمة «جوزيف تريس». فدار «فكتوري» ساعتها حول نفسه دورة كاملة في المقعد.

«(لم قلت لها ذلك؟) سألني.

«(لا أعرف) قلت. (سبباً).

«(ماما ستجنّ. بابا أيضاً).

«كنا في فناء المدرسة. كان فناء لطيفاً، فالقدارة مجمعة عدا كثيرا من المسامير وأشياء أخرى. وكان كلانا عاري القدمين. وكنت أجاهد في نزع شقفة زجاج من باطن قدمي، فلذلك لم أتمكن من رفع بصري إليه. (لن يجنّا) قلت. (مامتك ليست ما متي).

(*) Trace تعني أثر. (المترجم)

«(لو لم تكن هي، فمن تكون تلك؟)»

«(امرأة أخرى. سترجع. ستعود من أجلي. بابا أيضاً). وعرفت بأنها كانت المرة الأولى التي فكرت فيها بذلك، أو تمنيته.

ردّ «فكتور» «إنهما طبعاً يعرفان أين تركاك. وسيرجعان على بيتنا. فهما يعرفان بأنك في بيت «ويليمز». وكان يجرب مشية لين العظام مثل أخته. فقد كانت تؤذيها باقتدار كبير، وتبنيها كثيراً بذلك كلما عنت الفرصة له. «فكتور» ليتدرب عليها. أذكر ظله وهو يرمح في القدر أمامي. (يعرفان بأنك في بيت «ويليمز»، ولذا كان ينبغي أن تسمي نفسك «ويليمز»). قلت (لا بد لهما من تمييزي. من بينكم جميعاً، لا بد أن يعرفاني. أنا هو «تريس»، الذي ذهبا لبعيد من دونه).

«(إنهما أولاد قحبة، صح؟)»

ضحك «فكتور» عليّ، ولف ذراعه حول رقبتني فاذفأ بي إلى الأرض. لا أعرف ماذا حدث لشظية الزواج. لم تخرج أبداً. ولا أتى أحد باحثاً عني كذلك. لم أعرفه أبداً، أبي. وأمي، حسناً، سمعت امرأة في غرفة طعام الفندق تحكي شيئاً أكثر خزيًا. كانت تكلم امرأتين أخريين، بينما كنت أصب القهوة. (بالنسبة لصغاري، فأنا شريرة) قالت. (لا أقصد هذا، ولكن شيئاً بداخلي هناك يجعلني هكذا. إنني أم جيدة، ولكن أفضل لهم أن يحيا بعيداً عني؛ طالما هم بجانبني فلا خير يرجى لهم. والذين يرحلون عني يبدو عليهم الانتعاش؛ ومن يقولوا معي فأوقاتهم عصيبة. فيمكنك أن تتخيلي مقدار ما أشعر به من سوء حين أعرف ذلك، أليس هكذا؟)

«وكان عليّ أن أختلس إليها نظرة. تبدو قوية حين تقول هذا. أو تعترف به. جاء التغير الثاني حين اختاروني، وتدرّبت لكي أصبح رجلاً. لأعيش مستقلاً وأطعم نفسي على أي نحو كان. لم أفتقد كون لي أباً، لأن السيد «فرانك» كان هناك من البدء. ثابتاً كالطود، ولا يظهر تمييزاً بين أي منا كأطفال. لكن الشيء الكبير كان أن أفضل رجل في مقاطعة «فسبر» قد اختارني، و «فكتور» أيضاً، للذهاب للصيد معه. تكلم عن بناء - الكبرياء. كان أفضل من في المقاطعة، وقد اختارني مع «فكتور» ليعلمنا نصيد معه. كان ممتازاً للغاية، حتى أنهم قالوا بأنه كان يحمل البندقية فقط لأجل الجحيم، فهو يعرف الطريق قبل أن تعرفه الفريسة، كيف يخدع الحيات، يشي الغصينات ويمد الخيط ليصطاد الأرناب، والخنزير البري؛ وكان يعمل صوت طير سابع لا يقاوم. يقول القوم البيض بأنه الساحر المداوي، قالوا ذلك حتى لا يصفونه بالبراعة. صياد الصيادين، ذلك ما كانه. بارع بينما يخفقون. علمني درسين عشت بهما طول حياتي: أحدهما كان سرّ تعاطف البيض - كان لا بد أن يشفقوا على الشيء قبل محبته. الآخر - أه، نسيت.

«كان ذلك بسببه، ما تعلمته منه جعلني أرتاح أكثر في الغابات عني في البلدة. أتوتر حين

أرى سوراً أو سياجاً حول أي مكان. ظنّ القوم بأنّي الوحيد الذي يُعوّل عليه، لا في أن يُغير على المدينة. بمساكنها المكدسة؟ بطرقها الإسمنتية؟ أنا؟ ليس أنا.

«كانت المرة الثالثة في ١٨٩٣، حين تغيرت. حدث هذا عندما دمروا «فيينا» تماماً بالحريق. نيران حمراء كانت تعمل سريعاً، وقد جعلتها الملاءات البيضاء تأخذ وقتاً طويلاً حتى تنطفئ: تلغي كل ماثرة، تجرد أي وكل حقل، وتسليخنا خارجين من بيوتنا مسرعين للغاية. حتى أننا كنا نعدو من ناحية إلى أخرى في المقاطعة - أو إلى لا مكان. سرت واشتغلت، اشتغلت وسرت، أنا و«فكتور» ، على بعد خمسة عشر ميلاً من «فلسطين». حيث قابلت «فيولت» هناك. تزوّجنا وأقمنا في «هرلون ريكس بليس» بالقرب من «تيريل». كان يمتلك أسوأ أرض في المقاطعة. وكنا أنا و«فيولت» نعمل على محاصيله لمدة عامين. حتى أنهكّت التربة، حينها كانت الصخور هي المحصول الأكبر، فكنا نأكل مما أصيده. بعدها صار العجوز «ريكس» ممتلكاً، وباع المكان كله مع ديوننا لرجل يدعى «كلايتون بيدي». ارتفعت ديوننا من مائة وثمانين دولاراً إلى ثمانمائة في عهده. ثمن رعايتنا، قال، وكل السجاد، والهراء الذي حصلنا عليه من المتجر العام - أشياء دفع حقّها هو. والأسعار، قال، ارتفعت. كان على «فيولت» أن ترعى مكاننا، فتخلّت عن المحرات له أيضاً، في حين ذهبت أنا من «بير» إلى «كروسلاند» إلى «جوشن» أعمل. أشقّ أشجار الصنوبر بعض الوقت، وأنشر الخشب معظمه. وأخذ منا ذلك خمس سنين، لكننا فعلناه.

«بعدها حصلت على عملي، تركيب قضبان سكة الحديد لقطار «سوزن سكاي». كنت بعمر الثامنة والعشرين، واعتدت التغيير الآن. ولذلك في ١٩٠١، حين تناول «بوكرتي» سندوتشاً في بيت رئيس الجمهورية، جرّوت على أن أفعلها ثانية: صمّمت أن أبتاع لي قطعة أرض. وكالأحمق ظننت بأنهم سيخلّونني أحفظ بها. سرقونا بقصاصتين من الورق، لم أرهما من قبل ولا وقّعتهما. وتغيّرت تماماً للمرة الرابعة في ١٩٠٦، مرة أخرى، حين أخذت زوجتي إلى «روما»، محطة قريبة من مكان ولادتها، وكنت كسوت سكّة «سوزن سكاي» بالألواح الخشب حتى جهة الشمال: نقلونا خمس مرات في أربع عربات مختلفة، لنقيم جنب «جيم كراولو».

«عشنا في شقة على طريق سكة الحديد في «تندرلوان». ذهبت «فيولت» للخدمة، واشتغلت أنا في كل شيء، من جلد أحذية البيض وحتى السيجار في غرفة حيث كانوا يقرأون لنا أثناء ما كنا نلفّ التبغ. وكنت أنظف سمكاً بالليل، وحمامات بالنهار، حتى التحقت بعمل نادل مائدة. كنت أظنّ بأنّي وصلت إلى الاستقرار نحو ذات مستديمة، الذات الخامسة، حينما تركت الاحتجاج العام في شارع «ملبوري» و«ليتل أفريكا»، والجرذان آكله اللحوم في شارع وست ٥٣، وتحركت بعدها لأعالي المدينة.

«في ذلك الوقت اختفت الخزائير والأبقار، وما كنا معتادين عليه كمزارع بأكوخ صغيرة في كل مكان تقارب حجم القطعة التي حاولت شراءها، صار بيوتاً أكثر وأكثر. واعتدنا أن نجد

رجلاً ملوناً مطلوباً عليه النار، ليجرد التجوال حول المكان هناك. بنوا بيوتاً على صفٍّ وأخرى منفردة بأفنية كبيرة وحدائق للخضار. عند ذاك، تماماً وقبل الحرب، أتاحوا للملوثين مساكن كاملة. لطيف. لكنها ليست كمساكن وسط البلد. فهذه بها خمس حجرات أو ست ؛ والبعض بها عشر، ولو استطعت دفع خمسين أو ستين دولاراً في الشهر، فيمكنك بأن تنال واحدة. وحينما انتقلنا من شارع «ميدت» إلى مكان أكبر في «لينوكس»، كان هناك مستأجرون بجلد أخفّ لوناً حاولوا أن يطردونا. فقاتلناهم، أنا و«فيولت»، وكانهم بيض. فزنا. وضربتهم أوقات عصية، وقاتل الملاك البيض والسود أولئك الملوثين على الإيجارات العالية، والتي كانت معقولة لنا، حيث كنا معتادين على العيش بخمس حجرات، حتى لو كان بعضنا يؤجر اثنتين. كانت المباني كالقلاع في الصور، وكنا نحن الذين ننظف فوضى الآخرين من البداية، لأننا كنا نعرف أفضل من الآخرين، كيف يجعلها لطيفة. كان لدينا طيور ونباتات بكل مكان، أنا و«فيولت». كنت أجمع بنفسي روث الشارع لتخصيها. وكنت أتأكد من نظافة الواجهة كالدخول. كنت أعمل في الفندق حينذاك. كان ذلك أفضل من انتظار المواعيد في المطعم، ولأنه توجد في الفندق طرق أكثر بكثير لكسب البقشيش. كان الأجر ضعيفاً، ولكن البقشيش كان يتساقط في راحة يدي كالجوز سريعاً في نوفمبر.

«حين ارتفعت الإيجارات، وارتفعت مرة أخرى، ساعتها ضاعفت المتاجر سعر لحوم أعالي المدينة وتركت أسعار لحوم البيض على حالها، فحصلت لنفسي على وظيفة هامشية لبيع مستحضرات تجميل كليوباترا في الحي المجاور. هذا وانقطعت «فيولت» عن العمل اليومي وصارت تقص الشعر فقط، وكنا بخير. بعدها بطول، جاء صيف ١٩١٧، وبعد أن أخذ الرجال البيض تلكم الصفارة من حول رأسي، صرت نوعاً جديداً بالتأكيد، فهم كادوا أن يقتلوني. مع كثيرين. كان لأحد أولئك البيض قلب، فمنع الآخرين من القتل بي هناك.

«لا أعرف بالضبط لماذا بدأ الشغب. هل كان ربما ما قالتها الصحف، أو ما قاله النذل الذين كنت أعمل معهم؛ أو ما قاله «چيستان» - في ذلك الحفل، قال، أرسلوا دعوات للبيض للمجي لرؤية رجل ملون يحرق حياً. وقال «چيستان» إن آلافاً من البيض قد قتلوا. وقال بأن ذلك رزح على صدر الجميع، ولو لم يحدث القتل، لحدث شيء آخر. كانوا جلبوا أسراباً من الملوثين للعمل بأثناء الحرب. وسببت المفرقات في الجنوب نزوح الزنوج، بعدها سببت المفرقات في الشمال رجوعهم ثانية.

«لقد رأيت بعض الأشياء في زمني. في «فرجينيا». اثنان من إخوتي غير الأشقاء. جرحا بشدة. بشدة. أراد واحد قتل مسز «رودا». كانت هناك فتاة، أيضاً. تزور قومها قرب «كروسلاند». مجرد فتاة. على أي حال، فلو كنت هنا لانفجرت، ولانفجر مائة معك. رأيت بعض أولاد صغار يجرون في الشارع. سقط أحدهم ولم يتمكن من النهوض مباشرة، فذهبت إليه. ذلك ما حدث. استمر الشغب بدوني، بينما كنت أنا مع «فيولت» تطب رأسي معاً. نجوت بها، رغم ذلك، وربما كان ذلك ما جعلني ثانية للمرة السابعة، بعد سنين أواخر عام ١٩١٩، حينما كنت

أسير طوال الطريق، كل خطوة ملعونة من الربّ على الطريق، مع ٣٦٩. لا أتذكر ولا مرة رقصت في الشارع غير هذه المرة الوحيدة حين رقصت مع الكل. ظننت أن هذا التغير هو الأخير، وكان الأفضل بالتأكيد، لأن الحرب جاءت وذهبت، وجعلتني ككاتب الملوّنين ٣٦٩ التي قاتلت فيها فخوراً للغاية حتي أن قلبي انشطر إلى نصفين. جاءني «جستان» بوظيفة في فندق آخر، حيث يضمّ البقشيش أموالاً ملفوفة أكثر من العملات النقدية غالباً. قمت به في ١٩٢٥، كنا جميعاً نقوم به. ثم بدأت «فيولت» تنام مع دمية في ذراعها. تأخرت جداً. وتفهمت هذا على أي حال. على أي حال.

«لا تلو موني. لم يكن ذلك خطأ «فيولت». كله كان مني. لن أستطيع تجاوز ما فعلته لتلك الفتاة. أبدأ. وفي الغالب أنني تغيرت مرة أخرى. جدّدت نفسي كثيراً مرة أخرى أيضاً. يمكنك أن تقول بأنني كنت «نيجرو» جديداً طوال عمري. كل ما عشته، كل ما رأيت، وليس أحد تلكم التغيرات، كان ما جعلني مستعداً لها. لـ «دوركا». ويمكن أن تظن بأنني كنت في العشرين، عائداً إلى «فلسطين»، أشبع شهوتي للمرة الأولى تحت شجرة جوز.

«اندesh الكل حين رحلنا، أنا و «فيولت». قالوا إن المدينة تجعلك وحيداً، لكن ولأنني كنت دريني أفضل رجل غابات على الإطلاق، فليست الوحدة شيئاً يمكنه الاقتراب مني. انس. ولد ريفي، رجل ريفي. كيف عرفت بما يمكن أن تثيره فتاة بعمر الثامنة عشرة في رجل ناضج تنام زوجته مع دمية؟ تجعلني أعرف عزلة لم أكن أتخيلها في غابة فارغة من الناس على بعد خمسة عشر ميلاً، أو على ضفة نهر، دون شيء سوى الحياة تغويها الرفقة. وكانت تقنّيني بأنني لم أعرف الجانب الحلو أبداً من أي شيء حتى ذقت من عسلها. يقولون بأن الشعبين تعمى لوهلة قبل تغيير جلدها للمرة الأخيرة.



«كان لها شعر طويل وجلد رديء. وكان يمكن لربع جالون من الماء مرتان يومياً أن يجعل جلدها صافياً، لكنني لم أقترح ذلك، لأنني أحببتها على ما هي عليه. أنصاف أقمار صغيرة، متجمعة تحت عظام خديها، كعلامات حوافر واهنة. هناك وعلى جبهتها. ابتعت دواءً جليدياً أخبرتني به، ولكنني سعدت لأنه كان بلا جدوى. أزل لي علامات الحوافر الصغيرة؟ خلّني من دون أية آثار على الإطلاق؟. إن الشيء الحسن، الشيء الوحيد، في هذا العالم، هو أن تجد الأثر وتنفذ إليه. أقتفيت أثر أمي في «فرجينيا»، وقادني هذا مباشرة إليها، فاقفّيت أثر «دروكا» من بلد إلى بلد. لم يكن لازماً أن أفعل هذا. لم يكن لازماً حتى أن أفكر فيه. إن شيئاً آخر يتولّى القيادة عندما يبدأ الأثر في الكلام إليك، يمنحك علاماته قوية للغاية حتى يصعب عليك النظر. لو لم يتكلم معك الأثر، فربما تنهض عن كرسيك لتذهب تشتري سيجارتين أو

ثلاثاً، فتأخذ عملة النيكل في جيبيك وتبدأ المسير فحسب، ومن ثمّ الجري، وتنتهي لكان في «ستاتن أيلاند» لتصرخ عالياً، أو «لونغ أيلاند» لتحذق في المعز. لكن لو تكلم الأثر، غير مهم بأي طريقة، فيمكنك أن تجد نفسك في غرفة مزدحمة تصوب رصاصة إلى قلبها، غير مهال أنه القلب الذي ليس بمقدورك أن تستغني عنه.

«أردت أن أبقى هناك. توأ بعد أن أحدثت البندقية زووا! ولم يسمع ذلك أحد هناك إلّا، وكان هذا سبب أن الجمع لم يتشردم - كان يشبههم بسرب طيور السمعة المغردة - بل ظلوا محتشدين بالداخل، منفلقين سواً بتوتر رقصهم والموسيقى، التي لم تسمح لهم بالذهاب. أردت فعلاً البقاء هناك. أمسكها قبل أن تسقط وتؤدي نفسها.

لم أفتش عن الأثر. هو الذي كان يفتش عني، وفي البداية حينما بدأ الكلام لم أتبين سماعه. كنت أهييم على وجهي، أهييم فحسب خلال المدينة. كان معي المسدس، بل لم يكن المسدس - كان يدي والتي أردت أن ألسها بك. خمسة أيام أهييم. أولاً في «هاي فاشون» بشارع ١٣١، لأنني ظننت أنك على ميعاد قص الشعر في الثلاثاء. كان ذلك أول ثلاثاء من كل شهر. لكنها لم تكن هناك. فرشت بعض النساء عشاءات سمك من «سالم بابتست»، والتوءم الأعمى كانا يعزفان على الجيتار في محلي، وكانا تماماً كما تقولين - أحدهما فقط هو الأعمى؛ والآخر يساير البرنامج. ومحتمل بأنهما لم يكونا حتى أخوين، ناهيك عن كونهما توءماً. قد تكون أمهما طبختهما لجرد التغيير قليلاً. كانا يعزفان شيئاً كالسخام، رغم ذلك؛ لا «البشارة» كما كانا معتادين، وعبست النساء بائعات عشاء السمك حين تكلمن عن فساد أمهن، ولكنهن لم يقلن أي كلمة للتوءم، وعرفت بأنهن يقضين وقتاً طيباً حينما لاحظت بأنهن ينصتن، لأن واحدة من أكثرهن صخباً كانت تمصص أسنانها بجهد لتتقر بقدمها. لم يعرني أدنى اهتمام. أخذ مني وقتاً لأجعلهن يخبرنني بأنك لم تكوني حجرت مسبقاً في ذلك اليوم. قالت «مينيه» بأنك قد شذبت شعرك يوم السبت، وأضافت بأنها لم توافق على عمليات التشذيب هذه - رغم أنها كانت بخمسين سنتاً بدلاً من دولار وربع للقص الكامل - لأن ذلك يؤدي الشعر، حر على قدر - قالت، يؤدي الشعر أسوأ من كل ما عرفته. إلا، بالطبع، عندما ينعدم الحر تماماً. ماذا ستفعلن بتشذيب شعرك؟ ذلك ما فكرت فيه بدايةً. السبت الماضي؟ قلت لي بأنك ذاهبة مع الجوقة الكنسية خارجين إلى «بروكلين» للغناء في «شيلو»، وأنك سترحلين التاسعة صباحاً ولا ترجعين قبل الليل، ولماذا هذا. وأنك قد فاتتك الرحلة الأخيرة، ولأن خالتك اكتشفت ذلك فإنه لا بد أن تقومي بالرحلة هذه المرة، ولماذا هذا. فلم أنتظر «فيولت» حتى ترحل، وفتحت شقة «ملقون». لا حاجة لذلك. ولكن كيف قمت بتشذيب شعرك يوم السبت الماضي ولحقت بالرحلة في التاسعة صباحاً في حين أن «مينيه» لا تفتح أبداً قبل الظهر يوم السبت وتظل حتى منتصف الليل لتجعل الكل مستعداً ليوم الأحد؟ ولذلك لم تكوني محتاجة للدوام بميعاد الثلاثاء المنتظم، أليس كذلك؟ طردت الشيطان عن أفكاره لأنني لم أؤكد أن تلك الموسيقى السخام والتي كان يعزفها التوءم الأعمى كانت هي السبب. إن نوعاً معيناً من

عزف الجيتار يفعل هذا لك. ليس من مثل آلات الكلارنت، بل هو أقرب. فلو جاءت هذه الأغنية من آلة كلارنت، لعرفتها على الفور. لكن الجيتارات - تحيرني، تجعلني أشكّ بنفسي، ففقدت الأثر. عدت للبيت، ولم ألتقط ذلك الأثر ثانية حتى اليوم التالي، حين نظرت «ملفون» إليّ، وغطت فمها بيدها. لم تتمكن أن تغطي عينيها، رغمًا، فطار الضحك خارجاً من هناك.

«أعرف أنك لم تقصدي تلك الأشياء التي قلتها لي. بعد أن عثرت عليك وطلبت حضورك لترجمي إلى غرفتنا مرة أخرى. أعرف أن ما قلته لم تقصديه. فهو مؤذ لي، جعلني أقف جامداً في الشرفة اليوم التالي، قلقة نفسي مريضة من شأن ذلك. لا أحد هناك عدا «ملفون» رش الرماد على بقع الثلج. رأيت ثلاثة من عشاق النواصي، عبر الشارع، وأنا محني على السور الحديد. كانت الحرارة ثلاثين درجة، لم تكن حتى عشرة في الصباح، وكانت جلودهم تلمع كجلود بريئة. ناعمة. ألا يمكن للحرارة ألا تزيد عن عشرين، أو اثنين وعشرين. شباب. هذه هي المدينة عندك. كان أحدهم يلبس عقد أصداف، ويضع الآخر منديلاً في جيبه بنفس لون كرافته. وهل كان معطفه مكسوّاً بالجوخ من على كتفيه. كانوا فقط ينحنون هنالك، يضحكون وغير ذلك، بعدها بدأوا الدندنة، منحنين، رؤوسهم معاً، ويطرقون أصابعهم. رجال مدينة، تعرفين ما أقصد. منغلقيين على أنفسهم، عاقلين، ديوكاً مغرورين، شباباً. لا يحتاجون لفعل شيء - فقط ينتظرون الدجاجات لتعبروا ويجدهم. جاكات بأحزمة ومناديل بلون كرافاتهم. تظنين بأن «ملفون» كان لابد أن تغطي فمها أمامهم؟ أو تجعل الديوك المغرورين يدفعونها قدماً لاستخدام مكانها في يوم خميس؟ لن يحدث شيء، لأن الديوك المغرورين لا يحتاج «ملفون». فإن الدجاجات تجد ديوكها المغرورين وتجدها المكان أيضاً؛ ولو كان هناك اقتفاء للأثر، فهن يقمن به. ينظرن، يتصورن. ينتظر الديوك المغرورون لأنهم هم المنتظرون. ليس ضرورياً أن ينقادوا لأي أحد، ويبدون جاهلين في صالون التجميل حين يطلبون فتاة أمام نساء لم يتوقعن أن أرحل حتى يتمكن من المواصلة على الموسيقى السخام، ويتكلمن عن الجحيم الذي كنت أود معرفته عن فتاة لم تتخرج بعد في المدرسة العالية، ولم أتزوجها نظراً لوجود العجوز «فيولت» المجنونة؟ كان على الديوك المعجزة مثلي فحسب أن ينهضوا عن الشرفة، يقاطعون «ملفون» في وسط جملة، ويحاولون الجري بطول الطريق إلى الغابة، حيث جلسنا أول مرة ووضعت ساقك متقاطعتين فوق ركبتك، فتمكنت أن أرى الحذاء الأخضر والذي كنت تحملينه خارج الكيب في شنطة ورق، حتى لا تعرف خالك بأنك قد مشيت على شارع «لينوكس» ولاحر الشارع ٨ بهذا الحذاء بدلاً من حذاء أكسفورد الخفيف الذي غادرت به المنزل. وبينما كنت تدبدين بقدمك، أدت ركبتك وأعجبك منظر الكعبين، وكنت أنظر على ركبتك لكنني لم أبسهما. حكيت لك ثانية أنك السبب في أن آدم أكل التفاحة بقلبها. وذلك حينما غادر جنة عدن، فغادر رجلاً مرفاً. ليس فحسب أن كانت له حواء، بل لأن طعم أول تفاحة في العالم ظل بقمه باقي عمره. أول ما عرفناه كان طعمها. فنقضم، نقضمها كلها. نسمع صوت الطحن وندع القشر الأحمر يحطم قلبه.

«كنت تنظرين إليّ فأحببت أن تعرفيني، وكنت أظن هناك جنة عدن، ولم أستطع الاحتيال على عيني، لأنني كنت أحب علامات الحوافر في خديك.

«عدت مباشرة هناك، إلى أقرب بقعة. ثلج غابر جعل السماء ناعمة وسود من لحاء الشجرة. آثار كلاب وأرنب أيضاً، بشكل دقيق مثل نقش كرافتة الأحد المبعثرة على الجليد. لابد أن أحد هذه الكلاب كان بوزن ثمانين رطلاً. والباقي كان بوزن خفيف، ورواحد أعرج. لخبطت آثار أقدامي كل شيء برمته. وحين رجعت ببصري على ما كنت سرت عليه، رأيت نفسي واقفاً هناك في حذاء للخروج، لاشبشب، ومبلولاً إلى الكاحلين، وفهمت. رغم ذلك، لم أكن شاعراً بالبرد، لأنني كنت أحاول تذكر الطريق الذي كان لنا في وقتنا ذاك. بأكثوبر الدفيء، أتذكرين؟ وردة «شارون» كانت لاتزال سوسنة الأزهار. أشجار الليلك والصنوبر تجمع الهنود حول شجرة الخزامى وكأنهم يشبهون الملك. أول مرة تقابلنا هناك، كنت وصلت من قبلك. كان يجلس على صخرة رجلان أبيضان. فجلست على الأرض تماماً جوارهما حتى اشمأزا وغادرا. كنت تعملين شيئاً أو ما يشبه في مكان ما على مقربة من هناك. ذلك سبب أنني أحضرت معي شنطة العينة. كي أتشبه بمن يوزع شيئاً ضرورياً. يه، كان ذلك ممنوعاً، حسناً، لكن ما من أحد صباح علينا تلکم المرة. أعطى ذلك للأمر حداً، كوننا هناك، خطراً أكبر من أنني وأنتك كنا معاً. تحدثنا أول اسمينا على الصخرة التي انتقل من عليها ذلكما الرجلان. (د - ج). وفيما بعد، بعد أن كان لنا مكان ونظام، كنت أحضر لك علبة كل مرة، وأقلق مما يجب أن أجلبه يجعلك تبسمين وترضين بالحيء ثانية، في مرة تالية. كم عدد أسطوانات الحاكي؟ كم عدد جوارب الحرير؟ العدة الصغيرة لإصلاح نسل الجوارب، أتذكرين؟ علبه المعدن الأرجوانية بالأزهار علي غطاها تمتلئ بشكولاتة «شرافتس». كولونيا في زجاجة زرقاء تجعل رائحتك كالغواني. أزهار ذات مرة، ولكنها خيبت أملك، فمنحتك دولاراً تشتري به ماتريدين. أجر يوم كامل كنت أعود به لبيت وأنا صغير. فقط لك. أي شيء فقط لك، لأقضيهم التفاحة كلها بعنف، أمضغ القلب ويبقى لدي طعام جلدها الأحمر أحمله معي كباقي عمري. في غرفة ابن أخي «ملقون» بعلامة رجل الثلج في النافذة. كانت مرتك الأولى، وكذلك أنا، حين نقول إلى حد ما. عن أي شيء، وسأقولها ثانية، سأبذل نفسي للجنة، أبذلها! طالما تمسكين يدي، يافطة. «دوركا»، يافطة، هي مرتك الأولى وكذلك أنا. وقد اخترتك. فلا أحد وهبك لي. لا أحد قال بأن هذه الواحدة لك. قمت باختيارك. في زمان خطأ، نعم، وكان خطأ على زوجتي أيضاً. لكنه التخير، والاختيار. لاتظني بأنني قد سقطت إليك، أو عليك. لم أقع في الغرام، بل ترقيت فيه. رأيتك واتخذت قراري. قراري. اتخذت قراري أن أتبعك أيضاً. وكنت أعرف كيف أتصرف في طريقة العودة. ربما لم أخبرك بذلك الجزء مني. هيتي كانت في الغابة حيث حيث شخص ببصره (*) إليها، وكان علي أحسن ما يكون ذات يوم. ذات يوم. أولئك العجائز، يعرفون ذلك كله. لقد تكلمت عن كونني جديداً مرات سبعة قبل أن قابلتك، ومنذ ذاك الحين، ذاك المكان، فلو كنت أو زعمت بأنك ملونة، فلا بد بأن تكوني جديدة كل مرة تنهض فيها الشمس وكل ليب فيها. وقد جعلتني أخبرك، يا حبيبتني، في تلكم الأيام، بأن ذلك كان حالتي العقلية».



(*) يتذكر «وايلد»، من تخيلها أمه. (المترجم)

حين حاول أن أتصور حالة أي امرئ عقلية، أقول، بأنها محفوظة بالمخاطر. لكن هذه المتاعب تستحق لو كنت شبيهي - فضولياً، مبدعاً، وواشياً محترفاً. يتصرف «جو» مثلما يعرف عما يمكن أن يفعله العجائز لمواصلة الحياة، ولكنه لم يستطع أن يعرف الكثير عن «تروبيليه»، علي المثال، لأنني أشك بأن «قيولت» قد تحدثت إليه ذات مرة عن جدتها - بله عن أمها. ولذا لم يعرف. ولا أنا، رغم أنه ليس صعباً تخيل ما لا بد أن كانت عليه.

إن حالتها العقلية، حين انتقلت من «بليتمور» عائدة إلى مقاطعة «فسبر»، لا بد أن تحتاج لدراسة. فقد تركت «وردزورث»، عاصمة المقاطعة، عبدة، وعادت في ١٨٨٨ امرأة حرة. كانت ابنتها وحفيداتها يعشن في مكان صغير وضيق يدعى «روما»، على بعد اثني عشر ميلاً شمال البلدة التي غادرتها. تتراوح حفيداتها في العمر ما بين الرابعة إلى الرابعة عشرة، وأحدهن «قيولت»، كانت بالثانية عشرة عند وصول «تروبيليه». كان ذلك بعد مجيء الرجال لأخذ الحظيرة، والأواني، والكرسي الذي كانت ابنتها «روز دير» تجلس فيه. عند وصولها هناك، كان كل شيء قد راح، بجانب فرشهن القشبة المستعارة والملابس التي كانت تسترهن، وكانت الورقة التي وقّعها زوج «روز» تقول بإمكانية ذلك - إن لدى الرجال حقاً في فعل هذا، ومن المفترض، بل من الواجب، فعله، حتى لو رفض المطر أن يمطر، أو سقطت أحجار الثلج من السماء بدلاً، ونصل المحصول تماماً إلي عيدانه. لا شيء في الورقة كان عن الزوج المنظم لحزب يخدم أصوات الزنوج. لم يملك منزلاً أو أرضاً، وكانت العائلة الصغيرة الحزينة التي وجدتها «تروبيليه» تعيش سراً في كوخ منعزل أقامه بعض الجيران لها، وكن يأكلن مما يوجد به هؤلاء الجيران من الطعام أو مما تنهبه الفتيات. كثير من البامية والفاصوليا المجففة، ولأنهن كن في سبتمبر، فهناك الشمار ذات اللب من كل نوع. جلب لهن ابن الكاهن - مرتين، على أي حال - سنجاباً صغيراً، ليعيدوا به. قالت «روز» للناس أن زوجها - والذي كان ممتلئاً وذاهلاً من انعدام نفع ظهره ويديه، والتعبان من الطماطم الخضراء المحروقة والبرغل، والجوعان فوق ما تتخيلوا لأي نوع من اللحوم وليس لجلودها فقط، والمحتاج من سعر القهوة وتقوية ساقني فتاته الكبرى - رحل بشق الأنفس. صبحا ورحل. خرج إلى مكان يجلس فيه ويفكر، أو يجلس ولا يفكر، في ذلك. كان من الأفضل أن تخترع كلاماً بدلاً من التصريح بما تعرفه هي. لربما يأتون

باحثين عنها في المرة التالية، وليس فقط عن أوانيتها وأوعيتها وبيتها. من حسن حظها، أن «ترويليه» كانت تموت، وترغب في أن تدفن بمقاطعة «فسبر»، بعد أن وهبت كل دفع حياتها إلى مس «فيرا لويز» في «بليتيمور».

أخذ الموت الذي كانت نموته «ترويليه» أحد عشر عاماً، أعوام طويلة كَفَتْهَا أن تنتشل «روز»، وتدفعها، وترى زوجها يعود أربع مرات، وتصنع ستة ألحفة، وثلاثة عشر قميصاً نسوياً، وتملاً رأس «فيولت» بحكاياتها عن سيدتها البيضاء وعن نور حياتهما - شاب وسيم كان اسمه، لأسباب واضحة، «جولدن جراي». «جراي» لأن ذلك كان لقب «فيرا لويز» (وكان أيضاً لون عينيها، كثيراً، على الآخر)، و«جولدن» لأنه، وبعد اختفاء جلد مولده القرنفل الذي كان بطول ماتحت رأسه، شِعَ لحمه ذهبياً. وغطت رأسه وشحمتي أذنيه خصلات صفراء عريضة هشة. لم يكن في شقرة شعر «فيرا لويز» الأشقر تماماً، بل كان في لون نور الشمس، وقد حبيته إليها، عقصاته المحدودة. لم تحبه على التو. أخذ ذلك فترة. ولكن «ترويليه» فرقت بالضحك عالياً لحظة أن وضعت عينيها عليه وبعدها فصاعداً ولمدة ثماني عشرة سنة.

كان ثلاثتهم يعيش في منزل رائع بالطوب الرملي على شارع «إديسون» في «بليتيمور»، بعيداً عن مقاطعة «فسبر»، حيث ولدت كل من «فيرا لويز» و«ترويليه»، حينها كان ما أخبرته السيدة البيضاء لجيرانها والأصحاب حقيقةً جزئياً: أنها لم تكن تتحمل الطرق الضيقة الصغيرة في مقاطعتها الأم. ولذا جلبت خدامتها ووليداً يتيماً تعتقد أنه من «بليتيمور» لتختبر طريقة عيش أكثر كلفة.

كان ذلك محرراً، وخيانة على التقريب أن تفعلها، فكانت الجارات والصواحب المقربات والمحيطات بـ«فيرالويز»، مهدبات ومن على البعد بقدر استطاعتهن. لوأنهن فكّرن، فسيجبرنها على تقويم سلوكها، ولاعترفن بحاجتها للبحث عن زوج - وكن مخططات. فإن الوافدة الجديدة من خارج الولاية، كانت ثرية وعنيدة، تسعد ذاتها بالرفاهية وبأقل عدد من الرفيقات. وبالإضافة، بدت منشغلة كلياً بقراءة الكتب، وكتابة كتيبات صغيرة، والهيام باليتيم.

كان اليتيم، ومنذ البداية، يبدو كالقنديل في ذلك المنزل الهاديء الظليل. وكانتا تبدآن يومهما بالنظر إليه، ببساطة، وتتنافسان مع بعضهما البعض لأجل الضياء الذي كان يسبغه عليهما. كانت «فيرالويز» تدلله بهياج، بينما تمنحه «ترويليه» الغفران الكامل، وتطعمه وهي تضحك وتضحك، تلك الكعكة الناشفة، وتلقط كل حبة بذرة من البطيخ قبل أن تدعه يأكله. وكانت «فيرالويز» تهندمه وكأنه «أمير ويلز»، وتقرأ له قصصاً شائقة.

كانت «ترويليه» بالطبع تعرف كل شيء كاملاً، لأنه، في المقام الأول، فلا أحد بإمكانه أن يخفي الكثير في «وردزورث»، ولا شيء يمكنه أن يختفي في المنازل الكبيرة عن مالكيها. لم يلحظ أحد بالتأكيد عدد المرات التي كان يستدعى فيها الولد الزنجي ليركب مع مس «فيرالويز» خارج طريق «فيننا»، وأية ناحية من الغابة كانا يفضلان التنزه فيها. كانت «ترويليه» تعرف

ماتعرفه كل الإماء، وتعرف أكثر لأنها الوحيدة التي كان لها وظيفة فريدة تستميلها مس «فيرالويز» إلى ما كانت تريده أو تحتاجه، متضمناً أداء غسيلها، وبعضه كان لابد أن ينقع في الخل ليلة مرة في الشهر. ولو لم يكن يحتاج ذلك، ولو أمكن للملابس الشخصية أن يغسلها الباقي، فإن «تروبيليه» عرفت السبب، وعرفت «فيرالويز» بأنها عرفت. ولم تكن هناك حاجة على الإطلاق للحديث فيه. وكان الأبوان الوحيدين اللذين لم يعرفا. ولم يكشف أبداً، الذي كان على وشك أن يكون أباً - الولد الأسود، لأن «تروبيليه» لم تحكي عنه، أما «فيرالويز» فلم تذكر اسمه مطلقاً أو تقترب منه بعد ذلك مرة أخرى. الكولونيل، الأب العجوز، لم يعلم شيئاً. لا أي شيء.

كان لابد لزوجته أن تخبره، أخيراً. أخيراً. رغم أنها لم تتحدث عن ذلك أبداً إلى ابنتها، حتى بعد أن اكتشفت، لم تحدث ابنتها على الإطلاق، كانت الوحيدة التي ينبغي لها أن تدع الكولونيل يعرف. وحين اكتشف وقف ثم جلس بعدها ثم وقف مرة أخرى. ربت يده اليسرى حول الهواء باحثة عن شيء ما؛ جرعة ويسكي، الباب، سوطه، بندقيته الرش، مجلة «ديمقراطيك بلاتفورم»، قلبه - أيها لم تعرف «فيرالويز». بدا متأذياً، بعمق، تأذي بعمق لبضع ثوان. بعدها نر هياجه في الغرفة، مغيماً على الزجاج البلور ومليناً غطاء المائدة المنشئ. كان إدراكه للشيء الفظيع الذي حدث لابنته يجعله يعرق، نظراً لوجود سبعة أطفال خلاسين في أرضه. تصيب عرق من صدغيه متجمعاً تحت ذقنه؛ وانتقع إبطاه وظهر قميصه حين غمر هياجه الغرفة وفاض. مد اللبلاب على المائدة رأسه فجأة وتقلقل الطبق الفضي في يده لحظة أن مسح على جبينه ملعماً شتات نفسه لأداء عملي مناسب: قذف فجأة بـ «فيرالويز» على المائدة المجهزة للطعام.

كان لأمها، على أية حال، الحصاد الأخير: كانت حواجبها لاتزال متقنة، لكن النظرة التي منحتها لـ «فيرالويز» - بينا الفتاة كانت تنهض مكابدة من الأرض - كانت ملأى بالتقزز حتى أمكن للفتاة تذوق اللعاب الحامض المتجمع تحت لسان أمها، والذي كان يملأ باطني خديها. فقط الخبز، حذر الخبز، لم يسمح لها بالبصق. لأكلمة، عندها أو بعدها، مرت ما بينهما. وضعت حقيبة الملابس الداخلية مليئة بالمال على وسادة «فيرا» الأربعة التالي، وكانت مثقلة بالخزي من كرمها. كان المال أكثر مما يحتاجه أي أمرىء في العالم لمدة سبعة أشهر أو يزيد بعيداً عن بيته. وكان المال الكثير للغاية رسالة لاتقبل الجدل: موتي، أو عيشي، كما تهوين، بأي مكان آخر.

كانت «تروبيليه» هي الوحيدة التي أرادت، والوحيدة التي أخذتها. لا أعرف كم كان من الصعب على امرأة عبدة أن تترك زوجها، كان عمله وبعده يجعلانها لاترى الكثير على أي حال، وكذلك تترك ابنتين خلفها مع خالة عجوز لترعاها. كانت «روز دير» و«ماي» في الثامنة والعاشرة من العمر عندئذ. تحتاجان لمساعدة كبيرة في ذلك السن لمن هما عنده، حيث لا تسعهما الأم على الإطلاق لأنها كانت تعيش في «وردزورث»، على بعد أميال من زوجها في

منزل رجلٍ ثريٍّ ترعى ابنته ليلاً ونهاراً. وربما لم يكن يشقّ عليها أن تطلب من أختها الأكبر أن تفتش عن زوج لها وللبنات، حيث أنها مرتبطة مع مس «فيرالويز» في «بليتمور» لفترة. كانت «تروبيليه» في السابعة والعشرين، وأتى لها أن ترى مدينة كبيرة عظيمة في أي ناحية؟

والأكثر أهمية، أن مس «فيرالويز» ربما تساعد في شراء كل شيء بالأوراق المالية عندها، لأنها وهبت بالتأكيد الكثير منه لها. وهل يحدث ذلك مرة أخرى، ربما لا. قد تكون عابسة وهي تجلس في عربة الأمتعة، تتأرجح مع الصناديق وحقائب الثياب، غير قادرة على رؤية الأرض التي كانت تسافر عبرها. ربما أحست بنذير سوء. على أي حال، فقد رحلت، دون أي اختيار، تاركةً زوجها، وأختها، و«روز دير» و«ماي»، خلفها، وحين تغلق، كان الوليد الأشقر يسترضيها، ويسليها، لثمانية عشر عاماً، حتى غادر البيت.

وفي ١٨٨٨، بعد اثنين وعشرين عاماً من شنّ الحرب، كانت مس «فيرالويز» قد لُقنت بعض المبادئ فور انتهاء الحرب (لكنها أمسكت عن الإبلاغ بها بصدق، خشية أن تحصد خدماتها ناتج هذه الأفكار). أقنعت «تروبيليه» نفسها وسيّدتها بأنها تموت، فحصلت على المال - عشرة أوراق من فئة العشر دولار - واستطاعت أن تليي رجاء «روز دير» بالعودة إلى «فسبر» بحكاياها عن «بليتمور» للأحفاد الذين لم ترهم قط. قامت بتأجير بيت صغير، اشترت موقداً فيه، وكانت تسعد البنات بوصف الحياة الرائعة مع «جولدن جراي». كيف كانتا تحمّمانه ثلاث مرات يومياً، وكيف كانت هيئة الفتى في فائلته المطرزة بالخيوط الأزرق. شكل الحمام، وما كانتا تضعانه في الماء لتجعله أحياناً برائحة الزهرة ماضية الرحيق وأحياناً برائحة اللافتندر (*). كم كان ذكياً ومهذباً بحق. كانت التعليقات التي أدلى بها في طفولته ناضجة وجذلة، وكان شجاعاً وشهماً حين أظهر ذلك وهو رجل شاب، فقد ذهب لبحث عن أبيه، ثم يقتله، لو كان محظوظاً.

لم تره «تروبيليه» مرة أخرى أبداً بعد رحلة خروجه، ولم تعرف إن كان حظّ «فيرالويز» الذي صادفها في هذا أحسن أم لا. وكانت ذكرياتها عن الولد أكثر من كافية. لقد فكرت فيه كثيراً، وتعجبت من محبة «تروبيليه» له، و«فيولت» أيضاً. أم كان ذلك مجرد الزهو بأنفه الضيق، حين يقلق بخصوص معطفه والأزرار العاجية على صدرته؟ لقد جاء كل هذا الطريق لا لكي يهين أباه بل سلالته كلها.

أخبرته مرة «فيرالويز» بأن لا يجب أن يكون شعره الجميل طويلاً هكذا، ولأنها بدت عارفة بمثل هذه الأشياء، فقد صدّقها هو. لأن كل شيء آخر قالته، على التقريب، كان خاطئاً، ولكنه احتفظ بهذه المعلومة الصغيرة الأخيرة كحقيقة مطمورة. كانت الخصلات الصفر تنطفي على ياقة معطفه الذي بدا كمعطف فلاح، رغم أن المعلومة عن طوله الصحيح في بلدة

«بلتيمور» الأنيقة كان قد أخذها عن امرأة كذبت عليه عملياً في كل شيء، ومن ضمنه السؤال عما إن كانت مالكته، أو أمه، أو جارة لطيفة. أما الشيء الآخر الذي لم تكذب بشأنه (رغم أنه أخذ منها ثمانية عشر عاماً كانت تدور من حوله) أن أباه كان زنجياً أسود الجلد.

رأيت في كارتة بمقعدتين. حصانه رائع - أسود. وكان صندوقه ملجوماً إلى ظهر الكارطة: واسعاً ومكتظاً بقمصان جميلة، وملابس كثرانية، وملاعات مزخرفة، وأكياس مخدات، وصندوق سيجار، وأشياء فضية للزينة. معطف طويل، وفانلة ملونة بأساور وياقة بنية غامقة، مطوية بعناية جنبه. كان في طريقه الذي بعد طويلاً عن بيته، وبدأت تمطر بغزارة، ولأنه كان في أغسطس، فلم يكن برداً. اصطدمت العجلة اليسرى بحجر فسمع، أو ظن بأنه سمع، ارتطاماً ربما كان ناتجاً عن سقوط صندوقه. أرخى العنان لحصانه. ونزل ليرى إن كان قد حدث شيء لأشيائه. اكتشف بأن الصندوق محلول - انزلق الحبل وهو يميل. فك كل شيء وثبت الحبل بقوة أكثر.

كان راضياً عن جهده، ولكنه متضايق من المطر الغزير، ومن التلف الذي حلّ بملابسه، ومن سرعة رحلته، ونظر حواله. في الشجر على يساره، رأى امرأة سوداء - توتة، عارية. كانت مغطاة بالوحل والأوراق في شعرها. عيناها واسعتان ومفزوعتان. مجرد أن رآته، بدأت حينها فجأة تس تدير لتجري، ولكن في تحولها وقبل أن تنظر حولها، خبطت رأسها في الشجرة التي كانت تميل باتجاهها. كان فرعها رهيباً للغاية حتى أن جسدها كان قد فرأما عينيها اللتين استعدتا للعثور على طريقة للهروب. فأوقعتها الهبة، وغلبت عليها.

نظر إليها، وتحرك في عجل، قابضاً على حافة قبعته، ليعود إلى عربته. لم يرغب في فعل شيء بخصوص ما قد رآه - في الحقيقة كان متأكداً من أن ما كان يهرب منه ليس امرأة حقيقية، بل «منظر». وحين لقط العنان، لم يلحظ بأن حصانه كان أسود أيضاً، عارياً ومبلولاً بلمعان، وأن مشاعره تجاه الحصان كانت هي الأمان والعاطفة. خطره أن شيئاً غريباً هناك كان بخصوص هذا الأمر: الكبرياء الذي يلتقطه من حصانه؛ ودوار المرأة المستنفرة. كان في ميسس الخجل، وقرر أن يتأكد من أن ما يراه «منظر»، ولا توجد امرأة سوداء عارية ترقد في العشب.

ربط حصانه إلى شجيرة، وخوض عائداً في وحل المطر، الذي قاده للمكان الذي سقطت به المرأة. كانت لاتزال ممددة هناك. فمها ورجلاها مفتوحان. وتشكل حنية صغيرة على رأسها. بطنها كبيرة ومشدودة. فأنحني عليها، قابضاً أنفاسه ضد العدوى أو الرائحة أو أي شيء. أي شيء ربما يلمسه أو يخترقه. تبدو ميتة أو فقدت وعيها بعمق. وهي شابة. لاشيء يمكن أن يفعله لها ويجعله راضي البال. ثم لاحظ حركة متموجة على بطنها. هناك شيء بداخلها يتحرك.

لم ير نفسه وهو يلمسها، بل رأى صورته التي يتخيلها وهو يسير مبتعداً عنها مرة أخرى،

يتسلق عربته ويرحل ثانية. لم يكن مرتاحاً لصورته هذه عن نفسه، ولم يكن يريد إضاعة أي وقت في تذكر أنه يفعل هذا. أيضاً هناك شيء عن المكان الذي أتى منه والسبب، أين هو ذاهب، ولماذا يستحث ذلك فيه تهوراً حذراً ولحوقاً. لا بد أن المشهد سيصير نادرة، حدثاً يثير أعصاب «فيراليز»، فتدافع عنه ضد قتل أبيه. ربما.

فك معطفه الطويل الذي كان مطوياً بجانبه في المقعد، وألقاه على المرأة. ثم لقطها رافعاً إياها في ذراعيه، وحملها متعثراً، حيث كانت أثقل مما افترضه، إلى الكارثة. بصعوبة بالغة، جعلها في وضع الجلوس بالكارثة. رأسها محني بعيداً عنه وقدمها تلمسان حذاءه الرائع، لكن الموحد. كان يأمل في أن لا تبذل حنيتها، رغم أنه لم يستطع فعل شيء بخصوص قدميها العاريتين القدرتين على حذائه، لأنه لو عدلها ثانية، فقد تنحرف عليه لاعلى جانبها من الكارثة. وبينما كان يستحث حصانه للمضي قدماً، فقد كان يفعل ذلك هيئاً خشية الأخاديد والدرب الموحلة، لأنها قد تسقط أماماً أو تحتك به خفيفاً بدرجة ما.

كان يتجه ناحية منزل يبعد قليلاً عن الدروب الخارجة من بلدة تدعى «فيننا». هو المنزل الذي يعيش به والده. ويظن بأن فكرته هذه شيقة الآن، وحتى كوميدية، أن يقابل الزنجي الذي لم يره أبداً (والذي من جانبه لم يسع لرؤيته أبداً) وبملاء يديه أنثى رخوة سوداء. في حالة، بالطبع، مالم تستيقظ وتظل رجفة بطنها خفيفة. ذلك كان يضايقه - فربما تسترد وعيها مرة أخرى، وتصبح شيئاً مهماً له أكثر من غرضه المظلم الخاص.

لم يكن قد نظر إليها لفترة ما. وهو يفعل ذلك الآن، ويلحظ مسيلاً من الدم أسفل حنكها باتجاه رقبته. لم تكن الحنية التي بقللت لحظة ارتطامها بالشجرة هي سبب شحوبها ؛ فلا بد أنها خبطت رأسها في صخرة أو أي شيء حينما سقطت. لكنها لا تزال تتنفس. يأمل الآن في أن لاتموت - ليس بعد، ليس حتى يصل إلى المنزل الموصوف والمخطط له تفصيلاً في صور واضحة طفولية، من قبل «ترويليه».

يبدو أن المطر يتبعه ؛ وحين يحسب أنه على وشيك الانقطاع، يصير على بعد ياردات بدرجة أشد. لقد ظل مسافراً طيلة ست ساعات، على الأقل، وكان صاحب الخان قد أكد له أن رحلته ستنتهي قبل حلول الظلام. وهو غير متأكد الآن تماماً. فلن يستطيع قدوم الليل مع هذه المسافرة معه. استكن بانفتاح الوادي أمامه - لا بد أنه سيأخذ منه ساعة لاجتيازه قبل وصوله للبيت من هذا الجانب من «فيننا» بميل أو ميلين. فجأة، ينقطع المطر تماماً. وكانت أطول ساعة، أفعمتها الذكريات عن الرفاهية والألم. عند وصوله البيت، يندفع إلى الفناء، فيعثر على سقيفة بمربطين في الخلف. يتناول حصانه إلى أحدهما، ويمسحه بعناية حتى أسفل. ثم يرمي بطانية عليه، وينظر حواله من أجل ماء له وغذاء. قضى وقتاً طويلاً في هذا. كان هذا مهماً، حيث أنه لم يكن متأكداً من أنه مراقب من قبل أي واحد في البيت. وكان يأمل ذلك حقاً، يأمل أن يراقبه

الزنجي فاغر الفم من شرح بالألواح المشرفة كالحائط.

لكن مامن أحد خرج للحديث معه، فربما لا أحد هناك. بعد أن أوثق الحصان (لاحظ نعله الذي يحتاج إصلاحاً)، عاد إلى الكارثة لجلب صندوقه. حله ورفع على كتفه. أساء هذا أكثر بصدرته وقميصه الحريري بينما كان يحمل ذاك إلى البيت. في الممشى الصغير، لم يقيم بأي محاولة لطرق الباب وكان مغلقاً لكن بدون ترباس. دخل ناظراً حواله من أجل مكان مناسب لصندوقه. وضعه على الأرض القذرة، وعاد يتفحص البيت. به غرفتان: بكل واحدة سرير خفيف نقال، ومائدة، وكرسی، ومدفأة، وبأحدهما موقد. ذكر متواضع، كان يحيا فيه، ورغم ذلك فلا إشارة تدل على شخصية صاحبه. الموقد بارد، والمدفأة عليها بعض رماد، لكن ولا جمرة. ربما رحل شاغله منذ يوم، وربما يومين.

بعد أن أوثق وضع صندوقه، راح عائداً إلى الكارثة لجلب المرأة. وكان نزع الصندوق قد جعل الوزن يختل، فاستدقت الكارثة قليلاً على محورها. دخل من الباب لينزع المرأة. لم يكن جلدها حاراً تماماً حتى ليصعب عليه تناولها. ونزل المعطف الطويل حول قدميها كجرائني الوحل بينما كان يحملها إلى البيت. أرقدها على السرير وسب نفسه أنه لم ينزع بطانيته أولاً. وهي الآن على رأس السرير، ويدو المعطف وكأنه يغطيها كلها هناك. ربما يدوم انهيار حالتها. فدخل إلى الغرفة الثانية، وتفحص صندوقاً خشبياً هناك، فعثر بفستان امرأة. استرد معطفه بحذر شديد، وغطى المرأة بالفستان ذي الرائحة الغريبة. فتح الآن صندوقه وتخبر قميصاً قطنياً أبيض وصدرية صوفية. وبدلاً من المخاطرة بإتلاف القميص النظيف على مسمار مدقوق في الحائط، طواه على الكرسي الوحيد. تفحص بعناية الأشياء الجافة. ثم جرب الإعداد لصنع نار. كان هناك خشب في صندوق الخشب والمدفأة، وفي أظلم ركن الغرفة علبه كيروسين رشها على الخشب. لكن لا كبريت. فتش لوقت طويل عن كبريت، ووجد أخيراً بعضاً منه في علبه، ملفوفة في قطعة من قماش مخدة. خمسة أعواد، كي نكون محددين. تبخر الكيروسين من الخشب في الوقت الذي وجد فيه الكبريت. ما كان تأهل لهذا. كان هناك آخرون يشعلون له النار فيما مضى من عمره. لكنه أصبر، وأخيراً دمدت شعلة جيدة. الآن يمكنه الجلوس، يدخن سيجاراً ويتجهز بنفسه لعودة الرجل الذي يحيا هناك. من المفترض بأن اسم الرجل «هنري ليتروي»، رغم الطريقة التي تنطقه بها «تروبيليه»، وربما كان شيئاً آخر. رجل بلا أي عاقبة ترجى منه، عدا سمعته الضئيلة كقصاص أثر، والتي بنيت على مغامرة أو اثنتين تشيران لخبرته في قراءة الأثر. من وقت طويل مضى، حسب رواية «تروبيليه» التي منحت كل التفاصيل - لأن «فيراليز» كانت تغلق على نفسها غرفة النوم أو تستدير برأسها حين يحاول انتزاع معرفة منها. «هنري ليتروي» أو «ليستروي»، أو ما يشبه ذلك، فمن كان يعنيه عندئذ كنه اسم زنجي. عدا المرأة التي أسفت أنها عرفته على الإطلاق، بل وسكت بابها كي لا تصرح بذلك عالياً. وقد أسفت على الوليد الذي منحها إياه أيضاً، كادت تفرط فيه، لولا أنه كان ذهيباً، وهي ما رأت أبداً ذلك اللون عدا في سماء الصباح وزجاجات الشمبانيا. أخبرته «تروبيليه» أن «فيراليز» ابتسمت ساعتها وقالت

«ولكنه ذهبيّ. ذهبيّ تماماً!» وبذا سمّياه كذلك، ولم تأخذه لمستشفى اللقطاء الكاثوليكية، حيث تضع البنات البيض عارهنّ هناك.

عرف ذلك كله في سبعة أيام، وهي ثمانية الآن. عرف اسم أبيه، وموقع البيت الذي عاش فيه ذات يوم لأجل اثنين. عرف المعلومات من المرأة التي كانت تطبخ وتنظف لـ «فيرالويز»؛ والتي كانت ترسل له سلالاً من الخوخ المحفوظ، فخذ خنزير، وأرغفة من الخبز كل أسبوع وهو في المدرسة الداخلية؛ والتي كانت تهب قمصانه الناعلة لرجال يشترون الهالليل بدلاً من أن تدعه يرتديها؛ المرأة التي كانت تبسم وتهزّ رأسها كل مرة تنظر فيها إليه. حتى حينما كان ولداً صغيراً برأس كتّة من خصل شمبانيا ملوّنة كثيفة، ويأكل قطع الكعك التي تمدّها إليه، فإن ابتسامها كانت ممتعة بالذّة من اللذة. وحينما كانتا كلتاهاما تحمّمانه، المرأة البيضاء والطباخة، فأحياناً ما كانتا تنظران بقلق ما بينهما على راحتي يديه، ونسيج شعره الجاف. حسناً، كانت «فيرالويز» قلقة؛ أما «ترويليه» فتبتسم فقط، وقد عرف الآن ما كانت تبسم له، ذلك الزنجي. لكنه كان هكذا. يظنّ دوماً أن هناك نوعاً واحداً فقط - نوع «ترويليه». الأسود ولاشيء. مثل «هنري ليتروي». مثل المرأة الفاحشة التي تغطّي في النوم على السرير. لكن كان هناك نوع آخر - مثله هو.

كفّ المطر لوهلة، ظاهرياً. نظر حواليه لأجل شيء يأكله لا يكون بحاجة للطبخ - جاهز الصنع. لم يعثر على شيء سوى إبريق خمير. استمر في معاقته مسنداً ظهره أمام النار. في الصمت الذي خلفه انقطاع المطر، سمع وقع حوافر. رأى راكباً وراء الباب يحملق في عربته. يقترب. هاللو. هل أنت من أقارب «ليستروي»؟ أو ربما «هنري ليتروي» أو أياً كان اسمه؟ لم يطرف الراكب عيناً. «لا، ياسيدي. «فيينا». عدت مباشرة» لم يفهم أياً من ذلك. هو سكران الآن على أي حال. مبتهج. ربما يستطيع أن يتنام الآن. لكن لا ينبغي. فصاحب البيت ربما يعود، أو ربما المرأة الرخوة السوداء تستيقظ أو تموت أو تلد أو...

حين أوقف عربته ذات المقعد الواحد، خرج لكي يربط الحصان ويأتي عائداً خلال المطر، ربما فعل ذلك لأن هذا الشيء ذا المنظر الفظيع الراقد في العشب المبلول لم يكن يستطيع أن يحميه، أو هو بمسكّن لما يعتقد بأنه أباه، أو نفسه هو (لو أمكن لهذا فحسب أن يحتويه، مطابقاً). أو أنه كان الشبح، المنظر كما ظنّه، الشيء الذي لمسه قبل سقطته؟ الشيء الذي رآه في النظرات المتفاداة للخدم بمدرسته الداخلية؛ أو ماسح الأحذية الذي يراقص بخفة من أجل بنس. المنظر الذي تبدّى في نفس اللحظة حين كان فزعه حاداً، كأنه بيت مريح لدرجة تكفي لأن تتمرّع باللذات فيه؟ يمكن أن يكون كذلك. ولكن من يستطيع العيش بشعره مورقاً مثل هذا؟ وفي ذلك الجلد غير المفهوم؟ لكنه بالفعل عاش فيه ومعه: «ترويليه» والتي كانت أول وأعظم حبّ له، والذي سببه ربما مجرد هفهفتين من شعره ذاك، ولون جلده، فإن غيابهما غير وارد. ولو ارتجف من انحناء المرأة عليه، وانزلاقها يساراً لترتاح فعلاً في حين كانت تنام على كتفه، وكان صحيحاً أنه غالب الارتجاف. استوعب ذلك، ربما، حين أسقط الحصان بقطعة. أحبّ أن أفكر فيه على هذه الطريقة. جالساً منتصباً في العربة. المطر يتخلل الشعر على

ياقته، مكوّناً بركة صغيرة ما بين فرتي حذائه. يحدّق بعيون رمادية بينما يحاول الرؤية خلال صفحة الماء. ثم ينقطع المطر بدون تحذير، حين يدخل الطريق وادياً، تتكون حينذاك زبدة من صوف أبيض لشمس تنطبخ هناك في سماءها. يمكن له الآن أن يسمع أشياء خارج ذاته. ورق من شجر منقوع ينحلّ عن بعضه واحداً بعد آخر. صوت سقوط الجوز، ورفيف حجلين يحكّان مناقيرهما في قلبيهما. سناجب تتنافس للقط الفتات، وتتوازن هناك لتخمن الخطر. يرفع الحصان رأسه لتفريق غيمة محرومة من البعوض. ينصت بحذر حتى أنه لم ير العلامة - ميل واحد على «فيينا» - المحفورة رأسياً على الحجر. يمرّ بها، ثم يرى سطح كايينة لا تبعد خمسة أثمان ميل أماماً. لا تكاد تخصّ أحداً، أحداً على الإطلاق. وعلى طول سورها الذي يضمّ فناءً قدراً به هزارة من دون أذرع ترفد على الجانب، بينما الباب مربوط بقطعة حبل للإغلاق لكنه مخلع المفصلات، ربما، ربما كان يؤوي أباه.

يكبح «جولدن جراي» حصانه. وهذا عمل يؤديه جيداً. والآخر، عزف البيانو. يقود حصانه، مترجلاً، قريباً بدرجة تكفي أن ينظر. حيوانات في مكان ما، يتمكن من شمها، لكن البيت الصغير يبدو فارغاً، لولم يكن مجروداً تماماً. بالتأكيد لم يتوقّع صاحبه حصاناً أو كارتة تصل - لأن بوابة السور تسع امرأة بدينة ليس أكثر. ينزع عدّة الحصان ويمشي به في طريق لليمين فيكتشف، وراء الكايينة وتحت شجرة لا يعرف لها اسماً، مربطين مفتوحين، أحدهما كان يمتلئ بأشكال. حين قاد الحصان سمع خلفه أنين المرأة، لكنه لم يتوقّف ليرى إن كانت استيقظت أو ماتت أو سقطت من المقعد. رأى بالقرب من المربطين أن الأشكال ماهي إلا أحواض، حقائب، خشب ألواح، عجلات، محراث محطّم، خصّاضة زيد، وصندوق معدني؛ هناك وتد كذلك، فربط الحصان إليه. فكّر في الماء. ماء، لأجل الحصان. ماضيه مضخة على البعد كان مقبض فأس لا تزال مغروزة في جذع. وكان هناك انهيار رغم ذلك، تجمع قليل منه كان كافيّاً في حوض غسيل قرب الجذع المقشور. سيرتوي حصانه، لكن أينها الحيوانات الأخرى التي يشمّها ولا يراها أو يسمعها؟ خارج عريش العربة، كان الحصان يشرب بجشع، ومالت الكارتة بدرجة خطيرة مع التوزيع غير المتساوي لصندوقها والمرأة. فتفحص «جولدن جراي» أربطة الصندوق قبل ذهابه للحبل الذي كان يقفل باب المنزل الصغير.

ذلك ما يجعلني أقلق بشأنه. كيف فكّر أولاً في ملابسه، لاني المرأة. كيف تفحص الأربطة، لا تنفّسها. كان من الصعب عليّ ذلك، ولكنه بعدها حكّ الوحل عن نعال «بليتمور» قبل دخوله لأرضية الكايينة القذرة، فلم أكن كارهة له كثيراً حينذاك.

في الداخل، يأتي النور بطيئاً، ومنهكاً، بعد اغتصاب طريقه من خلال ورق زيتي مثبت بمسامير حول قائم نافذة الحائط الخلفي، ويرتاح النور أخيراً على الأرضية القذرة غير قادر على الوصول أعلى من خصر «جولدن جراي». أكبر شيء في الغرفة هو المدفأة. كانت نظيفة، ومعدّة لوضع نار جديدة، مدعومة بأحجار مشطوفة، وبذراعين معدنيين لوضع البرادات على

امتدادهما. بالنسبة للباقي: سرير خفيف نقال، من الخشب، بطانية صوف بلون الصدا مثبتة بإحكام على مرتبة رقيقة السمك كثيرة الحفر. لا قطع حجارة، لا ريش بالتأكيد أو أوراق. هلاهيل. قطع من قماش غير مستعمل فعلاً مقحمة في غطاء وسائل. وكان هذا يذكر «جولدن جراي» بمنحدة «تروبيليه» التي صنعتها لـ «كينج» كي ينام عليها عند قدميها. كانت قطعة من غير شخصية، لكنهما أعطياها اسم كلب ذكر قوي، وذلك كان السبب أن «تروبيليه» أحبها وكانت تريدها لصقها. سريران وكروسي واحد، كما يبدو. الشخص الذي يعيش هنا يجلس بمفرده على المائدة، لكن عنده سريرين: واحد في غرفة ثانية يدخله عن طريق باب أقوى وأفضل صنعا من الذي للبيت نفسه. وفي تلك الغرفة، الثانية، صندوق وثوب أخضر لامرأة مطويا على رأس محتوياته. يبدو ذلك كشيء عارض تماماً، كما تحب. رفع الغطاء ورأى الفستان وكان شيئاً حفره عميقاً، بل ذكره القسيان بما لا بد كان بألويات باله: المرأة التي تتنفس بفمها في الغرفة الأخرى. هل يعتقد أنها ستفيق وتهرب، تريحه من اختياره، لو تركها وحيدة؟ أو ستموت، ويؤدي هذا لنفس الشيء.

كان يتجنبها، أعرف. بعد أن فعل شيئاً كبيراً، شيئاً صعباً، بعودته لرفع الفتاة من العشب الذي لزق بينطلونه، بعدم النظر ليرى ما يمكن أن يراه من مناطقها الخاصة، لكنه صدم يتعرفه على الشعر هناك، كان خشناً، وكان كثيفاً حتى أنه فرق ما بينه بظفر الإصبع. ولم يسع للنظر إلى شعر رأسها أيضاً، ولا للذي بوجهها فقد كان كنصال من العشب. رأى تواء عيون الغزال التي كانت مثبتة عليه خلال المطر، مثبتة عليه وهي تولي الأديار، مثبتة عليه بينما دار جسمها للفرار. لم يكن إحساس غزاة مرهقة فلم تكن تنظر في الاتجاه الذي كانت تنطلق إليه حالاً لترى شجرة القيقب العملاقة فوراً. فوراً. عند عودته إليها لم يدرك أن كانت لا تزال هناك - فربما استطاعت النهوض والهرب - لكنه كان يصدق، ويأمل، في أن تنطبق عيون الغزال. لم يكن فجأة متأكداً من نفسه. ربما كانت مفتحة. امتن أن عيونها لم تكن هكذا ومنحه هذا القوة التي يحتاجها ليرفعها.

بعد أن ترتج مع صندوقه، كان يخطو نحو الفناء. نور الشمس أطبق عينيه بقوة فغطاهما يديه، واختلس الرؤية من خلل أصابعه ليصير بمأمن. وكان التنهد الذي أطلقه عميقاً، استنشاق جائع للقوة والدأب طوال الحياة، ولكنه كان يطلبه على وجه الخصوص. هل يمكنك أن ترى الحقول المترامية، وهي مشققة بتجزيعاتها في الريح؟ مناقير الشحارير تصعد من لا مكان، تلوح ثم تختفي؟ رائحة الحيوانات غير المرئية تبرز في الحر المختلط الآن بنعناع مفلوت وشيء كالفاكهة يحتاج للقطف. لا أحد كان ينظر عليه، لكنه يتصرف كما لو كان موجوداً. تلك هي الطريقة. أحمل نفسك على فعل ماتهوى حتى لو كنت دائماً تحت النظرة الفاحصة لأحد المعارف المعارضين.

هي لم تزل هناك. من الصعب تمييزها عن ظل كبت الكارثة النائمة من تحته. كل ما فيها عتيق، أو يبدو كذلك، وسبب هذا أنها مبدولة تحت ذاك المعطف الطويل، ولا شيء.

هناك سيمنع «جولدن جري» من التصديق بأن امرأة مبدولة ستنفجر في ذراعيه، أو الأسوأ، أن ينفجر هو فيها. لا بد أن تحشر مع قطع الهلاهيل في قماش الوسائد، ويخاط عليها لإخفاء أوصالها المرئية وأجزاءها المتحركة. لكنها هناك وهو ينظر في الظل ليحتر على وجهها، وعيونها الغزلان، أيضاً، لو أراد. عيونها الغزلان منطبقة وشكراً للرب أن لن تفتح بسهولة، لأنها مختومة على دم. طرطوفة جلد معلقة من جبينها والدم غطى نازلاً منها على عينيها وأنفها وأحد خديها قبل أن يستحيل إلى هلام. شفتاها كانتا أعمق من الدم، سميكتين حتى ليتمكنها أن تسخر منه أو تحطم قلبه.

أعرف أنه مُراء ؛ فهو يكون حكاية عن نفسه ليخبرها لواحد ما، ليخبر أباه طبعاً. كيف كان يقود على الطريق، ورأى وأنقذ هذه الفتاة السوداء الوحشية ؛ لا إغماء، لم يحدث لي إغماء. إذن، انظر هنا، كيف أثلفت معطفي ووسخت قميصاً بعد إصلاحه لن ترى واحداً مثله. ولدى قفازات صنعت من باطن جلد بقرة صغيرة للغاية، ولكنني لم أستخدمها في رفعها، أو حملها. كنت أمسكها بيدي عاريتين. من العشب إلى الكارثة ؛ ومن الكارثة إلى هذه الكابينة التي لا تخص أحداً. أي أحد مطلقاً. أرقدها على السرير الخشبي أول الأمر لأنها كانت أثقل مما تبدو عليه، وفي تعجلي نسيت أن أرفع البطانية أولاً لأغطيها. فكرت في الدم، كنت أظنه سيوسخ المرتبة. لكن من يقدر أن يقول بأنها كانت قدرة أم لا ؟ لم أكن أريد رفعها ثانية، ولذا ذهبت إلى الغرفة الأخرى وجلبت الفستان الموجود هناك وثنيته جيداً حتى أتمكن من أن أعطيها به. عندئذ بدت عارية أكثر مما كانته من قبل أن أعطيها، ولكن لم يكن هناك شيء آخر أفعله.

إنه يرقد، المرائي. تمكن من فتح صندوقه الكبير العريض ؛ نزع إحدى الملائتين المطرنتين يدوياً، وحتى الروب ليغطي به الفتاة. كان شاباً. في تمام الشباب. يظن بأن حكاياته عجيبة. ولو حكاها بشكل صحيح، فإن أباه سيتأثر من عزمه، وشرفه. لكنني أعرف أفضل من ذلك. فهو يود المياهاة بمثل هذا اللقاء غير المتوقع، كيفارس هائم يتباهى ببروده أثناء ما كان يفك الرزة عن قلب الوحش فيتنفس الحياة وهي تعود إلى منخره اللاهيين. غير أن هذا الوحش دون موازين أو نفس لاهب بل خطراً أكثر، لأنها فتاة دامية الوجه بمناطق متحركة، ويعيون نيرة، وشفاه لتحطم قلبك.

لماذا لم يسمح وجهها، أتساءل. فهي أكثر وحشية بهذا الشكل. أنقذها لتحمي. لو تنهض وتخمشه فسيرضيه هذا أكثر، ويؤكد تحذير «تروبيليه» عن الرجل الذي أنقذ ثراثاً، طبب الثراث، أطعم الثراث، ليكتشف فحسب بأن آخر معلومة لديه على وجه البسيطة هي أن طبيعة الثراث لا تسخ. أو، لكنه شاب، شاب ويتألم، ولذا فاني أغفر له خديعته لنفسه، وتلميحاته المزورة المضخمة، وحين أراقبه وهو يرشف متعجلاً خسة القصب التي وجدها، قلقاً من شأن معطفه وغير ميال للفتاة، فاني لا أكرهه على الإطلاق. لديه مسدس في صندوقه، وعلبة سيجار فضية، لكنه ولد رغم كل شيء، يجلس إلى المائدة في الكرسي الوحيد ليغير ملابسه بأخرى نظيفة، لأن التي يرتديها، مبلولة من عند الأساور والمرفق، قدرة بالعرق، بالدم والطين. هل لا بد أن يسترد

الهزاة المحطمة من الفناء الأمامي؟ يذهب ليفحص الحصان؟ يفكر في ذلك، حركته التالية، حينها يسمع ببطء، وقع حوافر مكتومة. كان يحملق في الفتاة ليتأكد أن الفستان لم يمسسه دم، يفتح الباب ويحدق في الفناء. كان يطفو باتجاهه بمحازاة السور، ولد أسود منفرج الساقين على يغلي.

كان لابد أن يقول «صباحاً» رغم أن ذلك لم يحدث، لكنه ظن بأن الرجل المترنح الخطي وهو ينزل السلالم رجل أبيض، ولا يمكن الكلام معه بغير استئذان. فكر في أنه سكران أيضاً، لأن ملابسه ليجنتلمان ينام في فئائه الخاص بعد حفلة كبيرة لافي سرير زوجته، وعندما يصحو تجيء كلابه تلحس وجهه. فكر في أن هذا الرجل الأبيض، الجنتلمان السكران، جاء يبحث عن السيد «هنري»، ينتظره، يحتاج ديوكاً رومية بريّة الآن، الآن، اللعنة على ذلك - أو الجلود المسلوخة، أو أي شيء وعده به السيد «هنري» كدين عليه أو مباع.

«هاللو»، قالها الجنتلمان السكران، ولو شكّ الولد الأسود لدقيقة في أنه أبيض، فإن ابتسامته غير المبتسمة والتي جاءت مع التحية، تكون قد أقنعتة.

«سيدي».

«تعيش هنا في المكان؟»

«لا، ياسيدي».

«لا؟ من أين إذن؟»

«من خارج طريق فيينا».

«صحيح؟ على أين طريقك؟»

حين أخذوا يتساءلان معظم الوقت، كان ذلك أفضل. لو قالاً أي شيء سطحي، فذلك مالم يكونا يريدان سماعه. التقط الولد الخيش من شنطته. «أبحث عن الماشية. فقد قال لي السيد هنري أن لابد أن أراها». تراها، راحت الابتسامة. «هنري؟» سأله الرجل. كان لون وجهه بشكل آخر الآن. فيه دم أكثر. «أنت قلت هنري؟»

«نعم، سيدي».

«أين هو؟ هل قريب؟»

«لا أعرف سيدي. قد رحل».

«أين يعيش. في أي منزل؟»

أوه، فكر الولد، هو لا يعرف السيد «هنري» لكنه يبحث عنه «مكانه هنا».

«ماذا؟»

« هذا مكانه ».

« هذا؟ هذا له؟ يعيش هنا؟ » غادر الدم وجهه فأظهر عينيه أفضل. « نعم، سيدي. حين يعود. لن يعود الآن ».

عبس « جولدن جراي ». فكّر أنه لا بد يعرف ذلك، دون أن يخبره أحد، واندھش لهذا، فاستدار من حوله لينظر عليه. « أنت متأكد؟ متأكد أنه يعيش هنا؟ هنري ليستروي »

« نعم، سيدي ».

« متى سيعود؟ »

« في أي يوم قريب ».

أجرى « جولدن جراي » إبهامه على شفته السفلى. رفع عينيه من على وجه الولد، وحملق عبر الحقول التي كانت مجزّعة في الريح. « ماذا قلت قد جاء بك إلى هنا؟ »
« أرى ما شيتة ».

« ماشية ماذا؟ لاشيء هنا غير حصاني ». « خارجة ستعود » أشار بعينيه وإيماءة من يده.
« فهي تجول هنا وهناك. قال السيد « هنري » أنا لا بد أن أنظر لأراها وهي تعود حتى لاتشرد ». لم يسمع « جولدن جراي » الفخر في صوت الولد « قال السيد هنري أنا... »، لأنه كان مفزوعاً لدرجة أنه ضحك. ذلك ما كان، إذن. المكان الذي قصد أن يجيئه الآن وفي أي يوم، فإن أكثر الرجال اسوداداً في العالم لا بد أنه موجود هنا كذلك. « حسناً، إذن. داوم على ذلك ». جرّ الولد بغله - لأجل لاشيء، ظاهرياً، فلا بد أن يخبط جنبى الحيوان بكعبيه القشدين قبل أن يطيع.
« انظروا! » رفع « جولدن جراي » يده. « عندما تنتهي من ذلك، عد هنا. أريدك أن تساعدني في شيء. سامع؟ »
« حاضر، سيدي. أعود ».

دخل « جولدن جراي » الغرفة الثانية ليغيّر ملابسه - اختار هذه المرة شيئاً رسمياً، أنيقاً. كان الوقت مناسباً لذلك. أن يختار قميصاً لطيفاً جداً، ويفك ثنية البنطلون الأزرق الداكن المتماشى معه. في الوقت المناسب والوقت الوحيد لأي واحد كان يعرفه من « فيينا »، ارتدى الملابس التي كان يرتديها هذه اللحظة. حين أخرجها، وضعها بالترتيب على السرير - القميص الأصفر، البنطلون بأزرار العظم في السوستة، والصدريّة بلون الزبدة، ترقد كلها على الفراش، كأنها رجل فارغ بذراع واحدة مطوية لأسفل. جلس على المرتبة الخشنة قرب ثنية البنطلون، وعندما تشكلت بقع غامضة على القماش رأى أنه بيكي.

فقط الآن، فكّر، أعرف الآن أن لديّ أباً، وكم أشعر بغيا به: المكان المفترّض بأن يكون

فيه وليس فيه. من قبل، كنت أظن بأن كل البشر بذراع واحدة، مثلي. أما الآن فأشعر بالجراحة. مضغة العظم التي انفصلت، شريحة اللحم وأنابيب الدم المقطوعة، تصدم مجرى الدم وتزعج الأعصاب. تتدلى وتلتوي. تنشد الألم. توقظني بصوت ذاتها، وتنمّل حين أنام بعمق حتى أنها تخلق أحلامي تماماً. لا شيء من أجل ذلك إلا الرحيل من حيث لا يوجد هو إلي حيثما يعتاد أن يكون وقد يداوم أن يكون. دع التدلي والتلوي يرى ما قد فقد؛ دع الألم ينشد للقدارة التي خطأ عليها في المكان حيثما يعتاد أن يكون وقد يداوم أن يكون. سوف لن أبرأ، أو أجد الذراع التي نزعّت مني. لسوف أتعش الألم، أحده، حتى يعرف كلانا لأي شيء هو.

ولا، لست غضباناً. فأنا غير محتاج للذراع. ولكنني أحتاج بشدة أن أعرف ماذا كانت تشبه لو أنها كانت هناك. هي شبح علي أن أحضنه وبحضني، في أي شق يرقد، تحت أيها غصن. أو ربما يطارد أمكنة خلاء وقفراً، مضاً بشمس زيتية. هذا الجزء مني الذي لا يعرفني، لم يلحسني بتاتاً أو تليّث في جانبي. هذه اليد التي رحلت، لم تساعدني أبداً في عبور السياج، أو أرشدتني أمام التنانين، أو اجتذبتني من خندق حيثما زللت. أو مشطت شعري، أطعمتني طعاماً؛ أخذت الطرف البعيد من الحمولة لتجعل ذلك أسهل لي في الحمل. هذه الذراع التي ما انطوت من ذاتها، ممدودة من بدني، لتهبني التوازن حيث أسير على قضبان أو جذوع، دائرية، وتنزل بخطورة. حين أجدها، هل ستلوح لي؟ توميء، تدعوني لأن آتي بصفها؟ أو حتى ستعرف من أنا أو ما أكون؟ هذا لا يهم. سوف أموقعها بحيث يمكن للجزء الأكثر إيلاماً أن يتذكر الانتزاع، شريحة بثيورها. ربما عندها لن تعود الذراع شبحاً، لكن ستأخذ شكلها الخاص، تنمي عضلتها وعظمتها الخاصة، ولسوف يضخّ دمها بالنشيد الصاخب الذي التقى غرضه بعزف السيرينادا (*) آمين.

من سوف يأخذ دوري؟ يغسل العار تماماً؟ يرغّيه حتى يتساقط القدر كلية عند قدمي لتخطوا بعيداً عنه؟ هل هو؟ يستردني كذاكرة الرهان التي لا تستحق كثيراً في مكان السوق، ومعدومة الثمن بقيمتها الحقيقية المستردة؟ مالون جلده هو الذي أهتم به، أو ما صلته بأمي؟ حين أراه، أو أري ما تبقى منه، سأخبره كل شيء عن الجزء الناقص مني، وأنصت إلى عاره الباكي. لسوف أستبدل إذن، أدعه ليملكني وأملكه كما فعل، وكلانا سوف يتحرر، يداً متدلية وكلاً.

سوف يصدم حين يسمع من وماكنه والده. فيجعله منفتاحاً، ضائعاً. أشار أولاً، ثم مزق بعض ملابس أمه، بعدها جلس في العشب ناظراً على الأشياء مبعثرة في المرح كما هي في باله. أنوار شحيحة تتحرك كديدانٍ تمرح أمام عينيه، ونسيم اليأس كان برائحة كريهة. كانت

(*) serenade: لحن يعزفه عاشق ليلاً تحت شرفة محبوبته. (المترجم)

«ترويليه» هي من ساعدته على النهوض من العشب، صَبَّتْ شعره الميَّاس وأخبرته بما كان لابد أن يفعله.

«قِم» قالت. «سأخبرك كيف تجده، أو تجد ما تبقى منه. لا يهَمُّ إن وجدته أو لا؛ فالرحلة هي التي يعول عليها». لَمَّ ما أخبرته أن يلمه، وحزمه كله، بدأ الرحلة. بأثناء الرحلة، كثيراً ما كان يقلق مما يبدو عليه، أي درع كان يستدعيها. لاشيء إلا صندوقه وجهاز مخلبه. لكنه كان مستعداً، مستعداً للقاء الرجل الأسود المتوحش الذي ضايقه وأساء لذراعه.

بدلاً من ذلك، قابل، قابل صدفة، فتاة سوداء وحشية هُشمت رأسها من الرعب، وهي ترقد الآن في الغرفة الأخرى، بينما يدور ولد أسود بالخارج حول الماشية. ظنَّ بأن هذه المرأة ستكون رمحه والدرع؛ ولكنه الآن سيكون ذاته. ينظر لعيون الغزلان برمادها الغسقي التي تشبهه. يحتاج شجاعة من أجل ذلك، لكنها لديه. لديه الشجاعة ليفعل ما فعلته دوق «مارلبورو» طوال الوقت: يهجر كونه برعماً محبوباً يصافح مستقبله، ويجرؤ على الانفتاح واسعاً، يدع طيات بتلاته تتسطح، يظهر عنقود الأعضاء الذكورية بالنقطة الميتة للجميع لكي يروه.

ما الذي أفكر فيه؟ كيف يمكن أن أتخيله بائساً تماماً؟ لا يلحظ الأذى المرتبط بغير لون جلده، أو بالدم الصاخب من تحتته. لكنه ولشيء آخر تاق إلى التوثيق، لحقيقة أن يكون بهذا المكان، دون إجهاد، دون حاجة لاكتساب وجه مزيف، لتكثيرة غير ضاحكة، لموقف كلام. لقد كنت مهملة وغبية، وهذا ما أحقني، أن أكتشف (ثانية) كم أنا غير موثوق بها. حتى حصانه قد فهم، وحمل «جولدن جراي» على الطريق بمجرد لمسة أو اثنتين من الأسوط. بثبات كان يتهدى، خلال الأودية بدون قضبان، خلال جداول الماء دون جسور أو معديات للعبور. لحظة عين فقط فوق الطريق، لم تذهله الحياة البسيطة التي رمحت تجاه حوافره، تحمل ثقل صدره العريض أماماً، فيعدو ليستمر على قوته ويجمعها أكثر. لم يعرف على أين يذهب ولم يعرف شيئاً عن الطريق، لكنه كان يعرف تماماً طبيعة عمله. أن نصل إلى هناك، قالت حوافره. لو أمكن لنا فقط الوصول هناك.

وعليّ الآن أن أفكر في هذا، بعناية، حتى لو أدتموني بسوء فهم آخر. عليّ أن أفعل هذا ولا أنحطم. أن لا أكرهه ليس كافياً؛ بل الولوع به، فإن عشقه ليس يجدي. عليّ أن أعدّل الأشياء. أن أكون ظلاً يرغبه تماماً، كأنني بسمات الموتى التي رحلت عن حياتهم. أريد أن أحلم حلماً لطيفاً له، وآخر عنه. أريد أن أكون ملاصقة له، بجميعه في الملاعة، وأتملى ألمه، وبفعلي هذا أريسه، أبعله يضعف. أريد أن أكون اللغة التي يرغبه تماماً، تتحدث باسمه، توظفه عندما يحتاج عيناه أن تتفتحاً. أريده أن يقف جنب بئر محفورة كلها في خلاء من الأشجار وبذا فإن الأوراق والتويجات لن تسقط في الماء العميق، وبينما يقف هناك في النور المتشكّل، تكون أطراف صابعه على حافة الصخرة، ونظرتة ليست على شيء واحد، باله منقوع ومخضّل بالأسى، أو جافّ وهشّ من يأسي كان يأتي من أنه يعرف القليل لكن يحسّ بالكثير (هشّ تماماً، جافّ

تماماً حتى أنه خطر في أن ينقلب: لا يحسن شيئاً، ويعرف كل شيء). هناك إذن، لا شيء متاح إلا النقيع أو الهشاشة، لا ينظر حتى إلى البئر، غير واع حتى بطحليته، رائحة لا تسر، أو حياة بسيطة تخوم على حافته، لكنه وقف هناك بالقرب منه ومن قاعه، حيث لا يصل النور، جمع مهتاج من البسمات الراحلات، بضعة من حب قصير كريم يرتقي من العتمة ولا شيء من أجله كي يراه أو يسمع به، ولا سبب هناك كي يبقى ولكنه يبقى. لأجل الأمان في البداية، ثم لأجل الصحبة. ثم لأجل نفسه - بنوع من قوة الوائق، القادر، الهادئ الذي يضرب خفيفاً كموسى ثم يختفي بعدها. قد أحسّ بذلك الآن، وربما يأتيه ثانية. ولا شك أن أشياء أخرى سوف تأتي ثانية: شك سيأتي، وأشياء تبدو غير واضحة بين وقت وآخر. لكن لو ضربت شفرة الموسى خفيفاً - فسوف يتذكّرها، ولو تذكّرها فسيسترجعها. هذا ما يجب أن يقال، وهذا ما كان في تديره.



كان الولد في الثالثة عشرة، وقد رأى أناساً كثيرين يسقطون على محراث، أو يقعون بعد مولد طفل، أو أطفالاً غرقى، حتى يعرف الفرق بوضوح ما بين الأحياء والموتى. فإن ماراً راقداً على السرير تحت فستان أخضر لامع، كان يظنه حياً. لم يرفع الولد وجهه عن وجه الفتاة (إلا عندما قال «جولدن جراي»: «وجدت هذا الفستان الأخضر هناك وقد غطيتها به») حدّق في الغرفة الثانية، وعاد إلى الرجل الذي ظنّ بأنه أبيض. رفع الولد كمّ الفستان، ورأت على الثلم الذي بجبهة الفتاة. كان وجهها ساخناً ناراً. والدم جاف كجلد.

- «ماء» قال، وغادر الكابينة.

بدأ «جولدن جراي» يتتبعه ولكن واقفاً في المدخل غير قادر على التقدم أو التأخر. عاد الولد بسطلي من ماء البئر وكيس خيش فارغ. أغطس فتجاناً في الماء، وقطر بعضاً منه في فمها. لم تنفخ أو تتقلب.

«منذ متى كانت بالخارج؟»

«أقلّ من ساعة»، قال «جولدن جراي».

ركع الولد لينظف وجهها، وفي بطن رفع كل بقع الدم عن خدّها، وأنفها، وأحد العينين، ثم الأخرى. كان «جولدن جراي» يراقبه، وظنّ بأنه على استعداد ليرى عيون الغزلان تلك وهي تتفتح.



إن شيئاً مثل ذلك يمكن أن يضرَّك. بعد ثلاث عشرة سنة منذ صالِب «جولدن جراي» نفسه لكي ينظر على تلك الفتاة، فإن الضرَّ الذي أمكنها أن تؤدِّيه لازال حياً. الفتيات الحوامل هنَّ المشكوك فيهن أكثر، لأن أجدادهن كانوا هكذا. أية فتنة يمكنها أن تميز حديث الولادة: بطيخ، أرانب، نبتة الحلوة، حبل، وأكثر من جلد حية منطرح، وامرأة وحشية أسوأ من كل ذلك. إن التحذيرات التي كانت تلتقها البنات تعتبر جزءاً من مجموعة كاملة من الأشياء للتحذير، خشية أن يأتي الوليد ملحاحاً هنا، أو خادماً لارتباك الأم. من يظن بأن الرجال العجائز محتاجون للاحتراس كذلك؛ يحكى لهم عنها ويتم تحذيرهم من أن يروها، يشموها، أو حتى يسمعوها؟

كانت تعيش بالقرب، قالوا، ليس بعيداً عن العمران في الغابة أو حتى بأسفل قاع النهر، لكن في مكان ما بحقل القصب ذاك - عند حافته، قال البعض، أو ربما تنتقل من حوله. قرية منه. ويصير حصاد القصب مسعوراً أحياناً حين يتملك الشبان إحساسهم أنها هناك فقط تختفي، ولربما تنظر إليهم. يلوح أحدهم بشفرة الحصيد ليتمكن بتر رأسها لو كانت قرية للغاية أو تجرأت عليهم، ويكون ذلك خطؤها هي. حين يحدث ذلك يحصدون بطريقة سيئة - عندها تطير عيدان القصب لتلطم الوجوه، أو ينزلق المنجل ويجرح زميل عمل قريب. مجرد التفكير فيها، أن تكون قرية أم لا، يمكنه أن يجعل صباحية عمل كاملة فوضى.

الأجداد، أمام أرض محروثة، لكنهم لازالوا قادرين على ثني العيدان أو تغذية وعاء تكرير السكر، ومعتادين على التفكير بهدوء. كان ذلك حين جاء الرجل الذي كان يدعوه الأجداد «هنترز هنتز» (*).، يطرق أكتافهم بأطراف أصابع ليست لأي أحد غيرها. حينها قاطعهم الرجل بغلظة، رأى عيدان القصب تهتز ولكنه لم يسمع ولو تشققاً واحداً. لأنه كان معتاداً على حياة الغابة أكثر من الحياة المدجّنة، وعرف ذلك حين لاحظته العيون لما كان بأعلى الشجرة، خلف الهضبة الصغيرة، أو نحو ذلك، في مستوى أرضي. يمكن أن ترى كيف كان متحيراً: أطراف الأصابع على كتفه، والعيون على قدميه. أول ماجاء لباله كانت المرأة التي سماها بنفسه منذ

(*) بمعنى «صياد الصيادين». (المترجم)

ثلاث عشرة سنة مضت، لأنه حين كان يستميلها، فأول كلمة فكّر فيها هي: «وايلد». كان متأكداً أنه يستميل فتاة صغيرة لذيدة، لكنها تجهّمت في البداية، بل إنه حين عضّته قال، أوه، هي وحشية (*)». كان يفكّر في أشياء على هذه الشاكلة. وليس هناك مكسب من ذلك يفهمه أكثر.

رغم ذلك، تذكّر ضحكاتها، كم كانت آمنة في الأيام القليلة الأولى التي تلت العضّة، ولذلك لم ترعبه لمسة أطراف أصابعها، لكنها جعلته حزينا. حزينا حتى أنه أبلغ المشهد لزملاء عمله، رجال عجائز مثله لم يعودوا قادرين على الحصاد طول النهار. وبغير تحذير، حين لمحوها، لم يكونوا مستعدين لكيفية سريان دمهم هكذا، أو لكيفية ارتعاش أرجلهم عند سماع ضحكة الفتاة الطفولية. تميز الفتيات الحوامل صغارهن أولاً يميّزن، لكن الأجداد - بدون تحذير - كانت رؤوسهم تلين، وهم يخرجون من بيوت الشراب، يتركون أسرّتهم عند ساق الليل، يملكون أنفسهم، وينسون أسماء أطفالهم الكبار، وأين يضعون مشاهد أمواسهم.

حين عرفها الرجل الذي كانوا يدعونه «هنترز هنتر» - استمالها - كانت ممسوسة. لو تعامل مع ذلك مباشرة، فلربما قعدت في البيت، ورعت وليدها، وتعلّمت كيف تلبس وتتكلّم مع القوم. بين الحين والآخر، حين كان يفكّر فيها، كان مقتنعاً بأنها ماتت. عندما لا يكون لها أي علامة هناك أو أيها صوت لعدة أشهر، كان يتنهّد، ويستعيد الحياة في ذلك الزمن حين كان منزله يفرغ من الأمومة - وقد كان الفراغ من الأمومة متوفراً أساساً عند «وايلد». كان أهل الحيّ يستخدمون قصتها لتحذير الأطفال والفتيات الحوامل، وقد أحزنه - بدلاً من ذلك - أن يعلم بأنها كانت لاتزال جوعانة. رغم أي شيء، لم يستطع أن يقول، أن لون الشعر كان كاسم الشاب (*) أن تراهما معاً كان صدمة دائمة: رأس الرجل الشاب بشعره الأصفر الطويل كذيل كلب بجوار الصوف الأسود لخصلتها.

هو لم يحك هذا، ولكن الأخبار انتشرت به على أي حال: إن «وايلد» لم تكن قصة فتاة مجنونة منذ زمان طويل، حيث كان يتخيّلها قاطعو رقاب القصب تحت نصالهم، أو في وقفة متعجلة وقريباً من أطفال مستهزئين. كانت لاتزال خارجة هناك - وحقيقية. رأى أحدهم الرجل الذي كانوا يدعونه «هنترز هنتر» يقفز، ويقبض على كتفه، وحين استدار ليحملك في حقل القصب، دمدم صاخباً حتى سمعه واحد يقول «وايلد. طاردوني، إن لم تكن هي وايلد». تحسّرت الفتيات الحوامل على الأنباء، وظللن يكنسن الأفنية القذرة ويرششنها، وكان الشبان يستنون شفراتهم حتى تصفرّ الحواف. لكن العجائز بدأوا يحلمون. تذكّروا حين أتت، ماذا كان شكلها، لماذا مكثت، وذلك الولد الغريب الذي وضعته ابن الشوارع.

لم ير هذا الولد كثير من الناس. لم يكن الأول «هنترز هنتر»، والذي كان يفتش خارج

(*) معنى كلمة «وايلد». (المترجم)

الديار عن ثعلب كي يبيعه. كان الأول ولد «باتي»، «آتر». كان في زيارة قصيرة لبيت «هنري» حين كان هو خارج، وفي أحد الأيام وقف جواره -ليزيل قليلاً من العشب، ربما، وليرى إن كانت لانتزال الدجاجات والخنازير أحياء- وكانت تمطر طول الصباح. صفحات من ماء المطر جعلت الظهيرة أقواس قزح في كل مكان. أخبر أمه فيما بعد بأن الكابينة كلها كانت قوس قزح، وحين خرج الرجل من الباب رأى «آتر» شعره الأصفر المبلول وجلده القشدي. ظن بأن عفرتها استولي على المكان. ثم أدرك أنه كان يرى رجلاً أبيضاً ولم يعتقد أبداً في غير ذلك، حتى حين رأى وجه «هنري» عندما أخبره الرجل الأبيض أنه ابنه.

حينما صار «هنري ليستروي»، رجل الغابات الخبير للغاية، صياد الصيادين (ذلك ما كانوا يدعونه به، حين يتكلمون عنه أو إليه)، عاد فرأى عربة بمقعد واحد وحصان جميل مربوطة بالقرب من حظيرته، فانزعج على التو. مامن أحد يعرفه كان يقود مثل هذه الكارثة؛ ومامن حصان في المقاطعة له مثل هذا العرف المقصوص والممشط على هذا النحو. بعدها شاف ركوبة البغل لولد «باتي» فاطمأن قليلاً. وقف على باب، مر به وقت عصيب حتى تبين ما كان ينظر إليه. كان ولد «باتي»، «آتر»، راکعاً جنب السرير الذي ترقد عليه فتاة حامل، ورجل بشعر ذهبي يدور حولهما من أعلى. لم يأت إلى منزله رجل أبيض. انتفخ «هنتز هنتز». كل الآلام التي كان تلقاها أطلقت للجحيم.

وحين استدار الرجل الأشقر لينظر إليه، اتسعت العينان الرماديتان، ثم أغلقتا، ثم انزلتا بطيئاً من حذاء «هنتز» لأعلى إلى ركبتيه، إلى الصدر إلى الرأس، وكانت حليقة الرجل كلسانه. في وقت أن كانت العينان الرماديتان بمستواه، كان على «هنتز» أن يكف عن الشعور بأنه وقع بفخ -في منزله. حتى أنين الفراش لم يكسر من قفل تخديق الغريب. كل شيء فيه كان شاباً وناعماً -عدا لون عينيه. وكان «آتر» ينظر من أحدهما إلى الآخر. «سعيد بعودتك ياسيد هنري».

«من هذان؟»

«كلاهما كان هنا قبل مجيئي».

«من يكون هذان؟»

«لا أعرف، سيدي. كانت المرأة متوعدة، لكنها بدأت تفيق الآن».

ليس مع الرجل ذهبي الشعر مسدس يمكن لـ «هنتز» أن يراه، كما أن حذاءه الرقيق لم يمش أبداً على طرق ريفية. ملابسه تنطق بهيئة كاهن، وقد عرف «هنتز» من الأيدي شبه النسوية أن الغريب عمره ماضرب بطيخة بسيف يد قوية ليهشمها. سار إلى المائدة ووضع جرابه عليها. بركلة واحدة قذف زوجاً من الدجاج على الأرض إلى الركن. لكنه احتفظ ببندقته في

(★) Golden: جولدن: ابن فيرالويز، امرأته البيضاء. (المترجم)

انعطاف ذراعه. ويقبّعه على رأسه. تتبّع العينان الرماديتان كل حركة منه.

«سقطت هذه المرأة بشكل مريع حسب ما يمكن أن أخبرك. وكان هذا الجنتلمان هنا، حملها إلى هنا. وقد نظّفت الدم قدر استطاعتي». لاحظ «هنتر» الفستان الأخضر الذي يغطّي المرأة، ويقع الدم المسوّدة فوق الكم.

«أدخلت الدجاج ومعظم الخنازير. وكذا ما تسمّيه «سبت بوبا». إنه صغير لكنه يكبر، ياسيد هنري. كبير ومعقول...».

كانت زجاجة خمرة القصب على المائدة، منزوعة الغطاء وكاس صغيرة جنبها. تمنّع «هنتر» في محتوياتها وحرّر السدادة، متعجباً من أيّها بلد جاء هذا الغريب الذي يعرف القليل للغاية عن آداب الضيافة. كان رجال الغابات - بيضاً وسوداً - وكل القرويين أحراراً في دخول الكوخ، كابينه الصيد للصيد. كانوا يأخذون ما يحتاجونه، ويتركون ما يتركون. وكأنهم بمحطات انتقالية، لأي امرئ ولكل واحد يحتاج للمأوى. لكن لا أحد، لا أحد شرب خمرة رجل في منزله مالم يكونا قد تعرّفا على بعضهما بصورة كافية.

«هل نعرف بعضنا الآخر؟» ظنّ «هنتر» بأن «السيد» التي حذفها لابد أنها ستكون لطمة عنيفة. لكن الرجل لم يسمع ذلك، لأنه كانت لديه لطمته الخاصة.

«لا. بابا. لانعرف». لم يتمكن من القول أن ذلك ليس محتملاً. لأنه عندئذ كان يحتاج إلى «داية» أو صورة في قلادة تقنعه. لكن صدمته كانت ثقيلة بهذا.

«لم أكن أعلم بوجودك في هذه الدنيا» هو ما قاله في النهاية، لكن ما كان على الرجل الأشقر أن يقوله، يخطّط في أن يقوله ردّاً، كان لابد أن ينتظر، لأن المرأة صرخت عندئذ، ورفعت نفسها على مرفقيها لتنظر ما بين ركبتيها المرفوعتين.

بدا رجل المدينة شاحباً، لكن «آنر» و«هنتر» لم يكونا قد شاهدا الرجال المولودين في المزرعة العاديين والمعتمد عليهم ينظرون فحسب، بل كانوا يجرون ويجرفون المواليد الجدد من كل أنواع القنوات. هذا الوليد لم يكن سهلاً. كان يتشبّث بالحوائط المزبدة لذلك الكهف، وما كان للأمّ عملياً أي نجدة. حين بزوغ الولد أخيراً، انضحت المشكلة على الفور: إن المرأة لن تحضن الوليد أو تنظر عليه. ولذا، أرسل «هنتر» الولد (*) إلى بيته.

«قل لماما أن تحضر إحدى النساء إلى هنا. تأتي هنا وتأخذ هذا. وإلا فلن يعيش لبعد غد».

«حاضر سيدي!».

«وهات خمرة قصب لو وجدت بعضاً هناك».

«حاضر سيدي!».

(*) ابن «باتي»، الغلام. (المترجم)

وركع «هنتر» عندئذ لينظر على الأم، التي لم تقل شيئاً منذ تلك الصرخة. غطى العرق وجهها، وكانت تتنفس بصعوبة، وقد لحست قطرات من عرقها كانت على شفتها العليا. انحنى أقرب. وحت القدر، الذي زر كيش جلدها الأسود الفحمة، كانت آثار من أشياء رديئة؛ كأنها عصير تبغ، ماء ملح، أو حس بلعبة فنان. حين أدار رأسه لضبط البطانية عليها، نهضت حافرة أسنانها في خده. جفل مبتعداً، ولمس وجهه المخدوش خفيفاً، مقوقاً. «وايلد، هه؟». واستدار

لينظر على الرجل - الولد الشاحب الذي ناداه «بابا».

«من أينما لقطت هذه المرأة الوحشية؟»

«في الغابة. حيث تنمو النسوة الوحشيات».

«قل لي من هي؟» هز الرجل رأسه. «روعتها فجأة. فصدمت رأسها في بلاطة صخرة. ولم أقدر على تركها هناك وحيدة».

«تبدو غير أرعن. فمن أرسلك إلي؟»

«ترويليه».

«آها اه». تبسم «هنتر». «أين هي الآن؟ لم أعرف أبداً على أين كان رحيلها».

«أو مع من؟»

«رحلت مع بنت الكولونيل. كولونيل وردزورث جراي. كل الناس تعرف ذلك. رحلتا في تعجل، أيضاً».

«خمن لماذا؟»

«ليس لي أن أخمن الآن. لم أكن أعلم أبداً بوجودك في الدنيا».

«هل كنت تفكر فيها؟ تتساءل أين تكون؟»

«ترويليه؟»

«لا أثيرا، فيراليز».

«أو، يارجل. ماذا أكون لأسأل عن أينما ذهبت فتاة بيضاء؟»

«أمي!»

«افرض أنني فعلت، هه؟ ماذا ستكون الخطوة التالية؟ الذهاب مباشرة إلى الكولونيل؟

فلنقل، انظر هنا، كولونيل جراي، إنني أسألكم عن المكان الذي راحت إليه ابنتكم. لن نمضي

راكبين في وهلة. أخبرك بماذا تفعل. أخبرها بأني منتظرها وأن عليها اللحاق بي. هل تعرف

المكان الذي نتقابل فيه. وقل لها بأن ترتدي ذلك الفستان الأخضر. فهو الوحيد الذي يجعلني

من الصعب أن أراها في العشب». مرر «هنتر» يده على فكّه. «أنت لم تقل أين هما. من أي بلد أتيت».

«بليتيمور. واسمي جولدن جراي».

«ألا ترى أن ذلك غير مناسب».

«أيناسبك لو كان جولدن ليستروي؟»

«ليس في هذه الأماكن. زلق «هنتر» يده تحت بطانية الوليد ليرى إن كان قلبه لا يزال يدق. «ضعيف هذا الولد الصغير. عليه أن يتولى بعض الرعاية الآن».

«كم هو حساس».

«انظر هنا. ماذا تريد؟ أقصد، الآن؛ ماذا تريد الآن؟ تريد الإقامة هنا؟ مرحباً بك. تريد تأديبي؟ اطرد هذا عن بالك. لن أفوه بكلمة ضدك. لقد أتيت إلى هنا، وشربت خمري، ونكشت هراي، وفكرت أن بإمكانك معارضي في الكلام مجرد أن تناديني بابا؟ لو كانت أخبرتك بأنني أبك، فهي إذن أخبرتك بأكثر مما أخبرتني. على رسلك. إن الابن ليس ماتقوله امرأة. الابن هو ما يصنعه رجل. تريد أن تتصرف وكأنك أنا، افعل هكذا إذن، وأخرج الشيطان عن منزلي!».

«لم آت هنا لكي أحاكمك، بل لأنال تصديقك علي».

«أعرف ما أتيت من أجله. لترى مقدار سوادي. لقد ظننت بأنك أبيض، أليس كذلك؟ يحتمل بأنها جعلتك تعتقد ذلك. أتمنى لو كنت اعتقدت به. وإني لأقسم بأنني اعتقدت ذلك أيضاً».

«لقد قامت بحمايتي! لو أذاعت بأنني «نيجرو»، لكان لابد أن أصير عبداً!»

«لقد أطلقوا سراح الزوج. وكان لديهم دائماً بعض زنوج مُحَرَّرِينَ. وكان يمكن أن تكون واحداً منهم».

«لأريد أن أكون زنجياً مُحَرَّراً؛ أريد أن أكون إنساناً حراً».

«ألا نريد كلنا هذا. انظر. كن ماتريد - أبيض أو أسود. تخير. لكنك لو اخترت الأسود، فإن عليك أن تتصرف كأسود، أقصد أن تصوغ رجولتك - على نحو السرعة، ولا تجلب لي أي ولد أبيض وقح». أفاق «جولدن جراي» الآن، وبدا بأن إفاقته ستطيح برأس الرجل بعيداً. غداً.

لكن لابد أنها الفتاة التي غيرت رأيه.

يمكن للفتيات فعل ذلك. يقدن رجلاً بعيداً عن الموت، أو يسقنه مباشرة إليه. يسحبك من النوم، فتصحو على الأرض تحت شجرة لن تجد موضعها ثانية، لأنك تكون قد وضعت. أو لو قد وجدته، فلن تكون كما هي. لربما تكون تخوخت من الداخل، ملت من حياة زاحفة عليها أن تتخذ طريقها الخاص أيضاً، وقد زحفت فحسب وانتفخت وتاكلت واختبأت حتى تنفرت كلها من خلال الخدمات التي قدمتها لآخرين. أو قد يقطعونها قبل أن تنكفيء للدخول على نفسها. يحيلونها إلى خشب نيران بمدفأة كبيرة ليحرق فيها الأطفال.

«فكثوري» ربما يتذكر. لقد كان أكثر من أخ مختار لـ «جو»، كان أفضل أصحابه، وقد جاسا طريدين، وعملا في معظم أراضي مقاطعة «فسبر». لا يمكن حتى لخريطة العمدة أن

تحدّد شجرة الجوز التي سقط منها «جو»، لكن «فكتورى» يمكنه أن يتذكّرها. يمكنها أن تكون هناك لانزال، في خلفية فناء شخص ما، لكن حقول القطن والجيران الملّونين من حولها قد حركوهم وهوّجوا.

أسبوع واحد إشاعات، يومان للتعبئة، وتسعمائة زنجي، قد حفزوهم بالبنادق والجبال، فغادروا «فيينا»، ركبوا خارجين من البلدة على حافلات، أوسيراً على أقدامهم إلى من عرفوا (أو اهتموا) أين يذهبون. بإنذار في يومين؟ كيف يمكنك أن تخطّط على أين الذهاب، ولو كنت تعرف مكاناً سيرحب بك، فأين المال لكي تصل؟ وقفوا من حول المحطة، عسكروا في حقول على حافة الطريق في تجمّعات حتى روعتهم الآفات التي لحقت بهم - لا بد أنهم شعروا بالغم وكأنه انعكاس لمياه راكدة، ولتذكير الآخرين بالأجور الأنيمة التي دفعت للشغيلة. حقول القصب هناك حيث تخفّت «وايلد»، أو راقبت، أو ضحكت صاخبة، أو ظلت ساكنة تتحرّق لأشهر. تخلّفت رائحة السكر في الدخان - ثقّله. هل ستعرف؟ تسأل هو. هل ستفهم أن النار لم تكن نوراً أو بأن الأزهار تسري نحوها، أو تطير الشعر الذهبي؟ الذي لو جرّبت بأن تلمسه أو تقبله، فسيكنم أنفاسك تماماً؟ الجّانّات الصغيرة، بصلبان يدوية وشاهدة من الصخر أحياناً، تلمس الذكرى بأحرف كبيرة معتنى بها، لاتترك فرصة.

رفض «هنتز» أن يرحل؛ كان يحيا في الغابات أكثر مما يحيا في كابينته على أي حال، وبدا أنه يتطلّع لقضاء أيامه الأخيرة في الأماكن التي كان يحسّ بأنها أكثر راحة. ولذا لم يسحب صندوقه إلى عربة. أو قطع الطريق إلى «بير»، ثم «كروسلاند»، بعدها «جوشن»، بعدها «فلسطين» باحثاً عن مكان عمل مثلما فعل «جو» و«فكتورى». هناك مزرعة ستهب أولاد الثالثة عشرة السود مكاناً للنوم والطعام مقابل تنظيف الغصون. أو معصرة بها مسكن بسيط. سار «جو» و«فكتورى» مع الآخرين على طول الطريق لفترة، ثم تخلّفا. عرفا بأنهما قد غادرا «كروسلاند» بعيداً خلفهما، حين مرّا بشجرة الجوز حيث كانا معتادين على النوم في الليالي، وحيث الصيد، بعيداً عن البيت، ويمكن أن يوجد الهواء الرطب بأعلى أفرعها. وعندما ألّقا بصريهما على الطريق، كانا لا يزالان يريان الدخان مرفوعاً فوق ما خلّفته الحقول والقصب في «فيينا». وجدا عملاً قصير الأمد بما كينة نشر خشب في «بير»، وفيما بعد الظهر يجران جذوعاً في «كروسلاند»، وأخيراً عمل ثابت في «جوشن». بعدها في ذات ربيع، ثار الثلث الجنوبي من المقاطعة بكرات قطنية بيضاء سميكة، وترك «جو» لـ «فكتورى» مساعدة الحدّاد في «جوشن» لكي يجمع المحصول المربح باستمرار خارج «فلسطين»، على بعد خمسة عشر ميلاً. لكن أولاً، كان عليه في البدء أن يعرف مالو كانت المرأة التي صدق أنها أمه لانزال هناك - أو أن النار قد خالطت شعرها وانجست بذلك أنفاسها.

وعلى العموم، قام بثلاث رحلات منفردات كي يجدها. في «فيينا»، عاش أولاً خائفاً منها، ثم كان يمزح معها، وأخيراً الاستحواذ، متبوعاً بالتذكّر لها. لا أحد كان أخير «جو» أنها هي أمه. ليس على الحصر؛ لكن «هنتز هنتز» نظر في عينيه مباشرة بأحد الأماسي وقال «كان

لديها أسبابها. حتى لو كانت مجنونة. فالجانين لديهم أسبابهم.

كانوا ينظفون بعد الأكل بعضاً مما اصطادوه. ظنّ «جو» في النهاية أنه طير، لكنه ربما كان شيئاً ذا فراء. سيتذكر «فكتوري». كان «فكتوري» يمسح اللحم المقدّد في ورق الشجر، بينما «جو» كان يسوي النار.

«لقد علمتكم كلاهما أن لا تقتلا الضعيف أبداً ولا الأثني بقدر الإمكان. ولا أظن أنني بحاجة لتعليمكما شيئاً عن الناس. والآن، اعلموا هذا: هي ليست فريسة. وعليكما إدراك الفرق».

كان «فكتوري» مع «جو» يمزحان، يتأملان مقدار الوقت الذي يأخذانه في قتل «وايلد» لو صادفها، لو أنه كان أثرها الذي رآه ثلاثتهم ذات حين وتبعوه فقادهم مباشرة لمحبتها. كان ذلك حين أبلغ عنه «هنتر». كيف أن الجانين لديهم أسبابهم. ثم نظر إلي «جو» (وليس «فكتوري» مباشرة. أثارت نظرتة النار المستكنة. «هل تعرف، إن هذه المرأة أم شخص ما، وينبغي عليه رعايتها». تبادل «فكتوري» مع «جو» النظرات، لكن لحم «جو» هو الذي ترطب لاحتقه الذي حاول ابتلاع ريقه وفشل.

منذ ذلك الحين صارح هذه الفكرة، أن المرأة الوحشية أم. أحياناً ما كان يخزيه ذلك حتى الدموع. وفي أحيان أخرى يشوش غضبه على هدفه بقتل الوحشية، أو يرمي اللعبة في أماكن غير صائبة ومختلطة. كان ينق معظم الوقت في إنكار ذلك، مقنعاً نفسه أنه أساء قراءة كلمات «هنتر» ومعظم ما كان في كل نظرتة. برغم ذلك، كانت «وايلد» دائماً في باله، ولم يعزم على الذهاب إلى «فلسطين» دون محاولته العثور عليها ولو لمرة أخرى إضافية.

لم تختبئ دائماً في القصب. ولا في الجزء الخلفي من الغابة بمزرعة الرجل الأبيض. لقد شاهد هو و«هنتر» و«فكتوري» آثاراً لها في تلك الغابات: دمّرت أقراص العسل، بقايا ومتروكات المون المسروقة، وفي أحيان كثيرة الإشارة التي كان يعتمد عليها «هنتر» في الأغلب - طيور السمّنة المغردة، الطيور السود المزرقّة بالبقع الحمراء على أجنحتها. شيء ما بشأنها كانوا يحبونه، قال «هنتر»، وإن رؤية أربعة منها أو أكثر كان يعني دوماً أن «وايلد» تحتجب. لقد حدثها «هنتر» هناك، مرتين، قال، لكن «جو» عرف بأن تلك الغابات ليست مكانها الأثير. في أول مرة بحث عنها كان تفتيشه فائراً، بعد صيد درامي لما يقرب من الساعتين. عبر النهر، وراء المكان الذي يتوقّر فيه السمك المرقط وسمك القاروس، بل أمام النهر المنحدر متوجّهاً إلى الطاحونة، حيث تستدير الضفة على مهبّط. في قمته، نحو خمس عشرة قدماً بأعلى النهر، كان تشكيل صخري سيّار، يسدّ مدخله سياج من شجر الهيسكوس العجوز. ذات مرة، بعد أن جرّ عشر سمكات مرقطة بأول ساعات الفجر، سار «جو» أمام ذلك المكان، وسمع ما ظنّه في البدء بعض تجمع لماء جار وريح في أعالي الشجر. الموسيقى التي يؤلفها العالم، والتي كان يألّفها الصيادون والرعيان، ورجال الغابات يسمعونها كذلك. فهي تنيم الثدييات مغناطيسياً. ترفع ذكور الأيائل رؤوسها والسناجب تتجمد. يتسم رجال الغابات المنتبهون لذلك، ويغلقون أعينهم.

ظنّ «جو» بأن هكذا الأمر، فأنصت ببساطة وفي لذة، حتى بدا أن كلمة أو كلمتين تنزلق مع الصوت. كان يعرف أن الموسيقى التي يؤلفها العالم بلا كلمات، فوقف ساكناً كالحجر، وأنعم النظر في الموجودات. خطّ فضي يرقد عبر الضفة الموازية، وتقطع الشمس دابر الأزرق الملكي لليلة. كان الهيبسكوس لأعلى وإلى يساره كثيفاً، متوحشاً، وعجوزاً. أزهاره مقفلة ترتقب النهار. فتات أغان كان قادماً من حلق امرأة. فذرع «جو» طريقه في همّة أعلى المنحدر وعبر السياج، لفيف من كروم العنب المسك، ونباتات «فرجينيا» المعشبة، والهيبسكوس الصديء مع العمر. وجد المدخل في التشكيل الصخري لكنه لم يتمكن من ولوجه من تلك الزاوية. كان عليه أن يتسلق من فوقه وينزل إلى فمه. كان النور شحيحاً للغاية حتى أنه تبين بالكاد موضع قدميه. لكنه رأى أثراً تكفي للتدليل بأنها كانت هناك. نادى. «هل أحد هنا؟»

توقفت الأغنية، وحلّ محلها طقطقة وكأنها تحطيم أغصان.

«هاي! أنت بالدخل هناك!» لأنامة. ولم يتمكن من إقناع نفسه بأن الشذا الذي غمره لم يكن إلا مزيجاً من العسل والخراء. غادر عندئذ، مشمئزاً، دون خوف ولو قليلاً.

المرّة الثانية التي فتش عنها كانت بعد طردهم. مجرد أن رأى الدخان واستطعم الهواء المسكر على لسانه، أجل رحلته إلى «فلسطين» لكي ينطف عائدًا باتجاه «فينا». كان يطوف حوالي الأرض المسفوعة والحقول بعيداتها المتفحمة؛ ناظرًا لبعيد من الكباش التي كانت الآن مجرد طوب قاتظ بينما كانت ذات يوم حوضاً للغسيل. توجه إلى النهر والشجرة التي فيه حيثما السمك المرقط يتكاثر كالذباب. وعند وصوله للمكان مع انحناءة النهر، ضبط حزام البندقية إلى ظهره وأسقطها على عجزته.

بيطء، متنفساً بهدوء من خلال فمه، زحف خلال الصخور الملقاة بعيداً جنب الخضرة التي نمت دون رحمة في الشمس والهواء. مامن علامة تدلّ عليها هناك، ولم يتعرف شيئاً. نجح في تسلق المدخل، لكنه وعند تسلله ودخول المكان، لم ير شيئاً يمكن لامرأة أن تستعمله، كما أن آثار سكنى أي بشري كان بارداً. هل أنها هربت، فرت؟ أو قد بوغت بالدخان، بالنار، بالعرب، بالعجز؟ انتظر «جو» هناك، حتى هداه إنصاته للنعاس، فنام ساعة أو تزيد. حين استيقظ كان النهار قد راح، والهيبسكوس كان منبسّطاً كشكل يده. سحب نفسه أسفل المنحدر، وبينما استدار ليمضي كانت أربعة من طير السمينة المغرد قد أصيبت من أطراف منخفضة لسنديانة بيضاء. كانت ضخمة، معزولة، في تربة غير محتملة - ومضفورة بجذورها. سقط «جو» تواء على يديه وركبتيه، هامساً: «هل أنت؟ فقط ردي. قل لي أي شيء». شخص قريب منه يتنفس. استدار فاحصاً المكان الذي قد خرج منه. كل حركة وكل هفيف بورقة يبدو أنها هي. «أعطني علامة، إذن. لست في حاجة لأن تقول لي شيئاً. دعيني أرى يدك. فقط أبرزها من مكان ما ولسوف أذهب؛ إني أعد بذلك. علامة». كان يرجوها، مناشداً يدها حتى بدا النور شحيحاً أكثر. «أنت أمي؟» نعم. لا. كلا منهما. لا أياً منهما. بل ليس هذا الهراء.

حين كان يهمس لعيدان الهيبسكوس وينصت للتنفس، رأى نفسه فجأة يخوض في الوحل، ليس لمجرد امرأة مجنونة بل امرأة قدرة تصادف أنها كانت أمه السرية، والتي عرفها «هنتر»

ذات يوم، لكنها يَتمت صغيرها بدلاً من رعايته أو تدليله أو البقاء معه في البيت. امرأة كانت ترعب الأطفال، وتجعل الرجال يستنون سكاكينهم، لأجل الطعام الذي تتركه العرائس بالخارج (ربما - والإناث كانت تسرقه). تركت آثاراً عن ذاتها القدرة، غير المروضة خلال كل المقاطعة. كانت تخذله أمام كل الناس عدا «فكتوري»، الذي لم يضحك أو يتغامز عليه حين أبلغه «جو» عن ظنه بما كان يقصده «هنتر» بهذه الكلمات وتلك النظرة على وجه الخصوص. «لابد أنها بريئة» كان ردّ «فكتوري». «فهني تعيش خارج البيوت على هذه الهيئة طوال العام، لابد أنها بريئة».

ربما هكذا، لكن «جو» أحسّ بأنه أحق وعنيد، أكثر جنوناً منها ووحشياً مثلها في انزلاقه بالطين، متعثراً بجذور سوداء، فقد كان يجرد قدميه خلال لطم القدر زاحفاً مع النمل الأبيض. إنه يحب الغابات لأن «هنتر» علمه ذلك. لكن هذه الغابات الآن مفعمة بها، بهذه المرأة بسيطة الطوية التي كانت من السخف بحيث أنها لا ترجى القوت. ضامرة العقل حتى ليصعب عليها أداء ما تنجح فيه أخطأ خنزيرة: رعاية ماقد تلده. ظن الأطفال الصغار بأنها ساحرة، لكنهم كانوا مخطئين. فهذه المخلوقة ليس لديها ذكاء أن تصير ساحرة. لقد كانت عاجزة، غير مرئية، معتوهة بضياح. في كل مكان وبلا مكان.

هناك أولاد لديهم أمهات عواهر، ولا حيلة في ذلك. وهناك أولاد تتهادى أمهاتهم عبر طرق البلدة حين يعلق الملهى الرخيص بابه. وأمهات يرمين بأطفالهن بعيداً، أو يتاجرن فيهم لأجل رزم المال. وقد اختار واحدة منهن عبر هذا الخبل الصموت غير المحتشم المترصد. لم تزجج أي شيء تلك الهيئة التي وجهته عند أطراف السنديانة البيضاء، حيث كانت القواقع في جيبه. قرقع زبد البندقية دون أذى. وكان يصرخ، وهو ينزل، هابطاً، يتسارع عائداً على المنحدر، ومتتبعاً ضيقة النهر خارجاً من هناك.

من ذلك الحين، كان يعمل بشكل مسعور. في طريقه إلى «فلسطين»، تقلّد كل وظيفة سنحت أو كان يسمع بها. قطع أشجار، حصد قصب، حرث حتى يكلّ ذراعه؛ تنظيف دجاج وقطف قطن؛ جرّ سقط متاع، حبوب، صخر مفتت، وكتل خشبية. ظن البعض بأنه جوعان مال، لكن آخرين خمنوا بأن «جو» لا تعجبه فكرة أن يظلّ كسولاً. كان أحياناً ما يعمل طويلاً، ولوقت متأخر، حتى أنه لا يعود إلى الفراش الذي يرتاح فيه. وينام عندئذ بالخارج، ويكون محظوظاً حين ينام أحياناً قرب شجرة الجوز؛ متأرجحاً في الشبكة التي وضعوها هناك لعند الحاجة إليها. بعد «فلسطين»، وعند حزم القطن والإعلان عن بيعه، تزوّج «جو»، واشتغل بجذّ أكثر.

هل لبث «هنتر» قرب «فينا» بعد الحريق؟ هل انزاح راجعاً إلى «وردزورث»؟ هل ثبت نفسه في مكان صغير بأعالي المقاطعة - ككلامه عن الإنجاز - وكان يعمل وكأن العالم ملكه؟ في ١٩٢٦، بعيداً عن كل هذه الأماكن، ربما ظن «جو» أن «هنتر وردزورث» هو الذي انتقل قريباً منه، ولو سأل «فكتوري» فسيذكر تماماً (مؤكداً بأنه حيّ يرزق، وأن السجن لم يبل منه) لأن «فكتوري» كان يتذكر كل شيء، ويمكنه الاحتفاظ بالأشياء واضحة في باله. مثل كم

مرةً اتخذت إناث الطواويس عُشّاً معيناً. ومثل أين مكان الصوفة الحنّاة المغرورز فيها إبر الصنوبر المأخوذة من عمق عظمة الساق. ومثل متى تبرّعت شجرة معينة - تنمو جذورها فوق الجذع - منذ يومين أو أسبوع، وأين هي بالضبط.

كان «جو» يتساءل عن كنه هذا في يوم صقيع من يناير. كان في طريق يبعد كثيراً عن «فرجينيا»، وأبعد طويلاً من «عدن». بينما كان يلبس معطفه ويضع كابه، كان يحسّ بخاصّة أن «فكتوري» جنبه حين يبدأ الرحلة، متسلّحاً، ليجد «دوركا». لم يكن يفكر في إيذائها، أو كما كان يحذّره «هنتر» من قتل شيء ضعيف. إنها أنثى. وهي ليست فريسة. ولذلك فلن يفكر في هذا. وسيصطاد من أجلها رغم ذلك، ولأنه سيصطاد، فإن المسدّس رفيق طبيعيّ مثل «فكتوري».

يطوف خلال المدينة، وهي لن تعترض أو تتدخل. هذا أول يوم من العام. معظم الناس متعبون من الليلة الفائتة. ولا يزال الملّونون، رغم ذلك، يحتفلون باليوم مجتمعين، عيد يمكنه أن يمتدّ حتى الليل. الشوارع زلقة. وتبدو المدينة غير مأهولة، وكأنها بلدة صغيرة.

«أريد فقط أن أراها. أخبرها أنني أعرف هي لم تقصد ماقالتة. هي صغيرة. والصغار منفلتو العيار. ينفجرون لمجرد الجحيم. ومثلي يصوّب بندقيته غير معمرة على أوراق الشجر هذه المرة. مثلي يقول (حسناً، فيولت، سأتزوجك) وذلك أنني لم أقدر أن أرى ما إذا كانت امرأة وحشية قد مدّت إليّ يداً أم لا».

الشوارع التي سار فيها كانت زلقة ومسوّدة. في جيب معطفه مسدس عيار الخمس والأربعين الذي رهن به بندقيته. وضحك حينما أمسك به، المسدّس الصغير السمين والذي لا بد أنه من النوع الصاخب كمدفع. لا شيء معقّد؛ لا بد أن تخارب نفسك كي تخطئ التصويب، لكنه لن يخطئ لأنه غير عازم على التصويب. ليس إلى ذلك الجلد المهان. أهدأ. لا تؤذ الصغار: بيض العش، صغار الأيائل، أفراخ الطير، صغار السمك...

ريحٌ تنشقّ عن فم القناة وتطير بكابه. يجري ليمسكه من القناة التي انجرف إليها. لم يكن يرى حلقة الورق من سيجار «هوايت أول» المملوكة بتاج كابه. ذات مرة كان يعرق بغزارة داخل قطار وخلع معطفه. فارتطمت حافظة الأوراق بالأرض. نظر «جو» تحتها إلى أصابع المسافر التي توصّلت للحافظة وأعادتها إليه. أوماً «جو» بالشكر، وأقحم الحافظة بجيب معطفه. هزّت امرأة زنجية رأسها إليه. ماذا بالحافظة؟ محتوياتها؟ كان وجهه يتقطر بالعرق. تمدّ إليه منديلاً نظيفاً ليمسحه. يرفض؛ يرتدي معطفه ثانية، ثم ينتقل إلى الباب ليحدّق في السرعة والظلام.

يقف القطار فجأة، يلتقي المسافرين أمامه. بصعوبة يتذكر أنها محطته التي ينبغي أن ينزل فيها إن أراد العثور عليها. ثلاث فتيات تجتمعن خارجات من القطار، دبدين على السلالم الثلجية. ثلاثة رجال منتظرون يحيونهن، وصار كل زوجاً. برد قارس. الفتيات بشفاه حمراء وتخرفش أرجلهن خلال جوارب الحرير. الشفاه الحمراء وقوة ضوء الحرير. قوة سيستبدلونها على الشكل الصحيح كي يهزموها، ويتموا ثقبها. الرجال من جانبهم يحبون ذلك، لأنهم -في النهاية- يصلونها داخلين، ويتمددون، يلبسون ماخلف تلك القوة، ينزعونها، ويحتفظون بها ساكنين.

في المرة الثالثة، حين حاول «جو» أن يجدها (كان متزوجاً حينذاك)، وكان يقتش عن جانب التلّ فيه الشجرة - التي كانت جذورها تنمو لأعلى رغم ذلك، فذهب منصاعاً إلى الأرض ووجدتها قاحلة، ارتدت للجذع ولما يحتاجه. وكانت جذورها تتحدى المنطق متسلقة. باتجاه الأوراق، والنور، والريح. تحت تلکم الشجرة، كان النهر الذي دعاه البيض «تريسون»، حيث يتسابق السمك إلى الصنابير، ويسبح ما بينها مشاغباً أوساكناً. لكن، وأن تصل هناك، فأنت تخاطر بغدر الأرض القريبة التي تمشي عليها. ترمي الأوحال، والتلال الخفيفة بنعومة ناحية النهر الذي يبدو فحسب مرحباً؛ كروم مترامية، سجادة العشب، عنب بري، الهيسكوس، وغابة الحميض، والأرض كانت منقوبة كالمنخل. خطوة واحدة ستورم قدمك أو ذاتك بكاملها.

«ما الذي كانت تريده من ديك؟ يتصايح على ركني، ناظراً إلى الدجاجات لينتقي منهن. لا شيء عندهن ولا أتملك خيراً منه. بالإضافة أنني أعرف كيف أعامل امرأة. أنا لم أسئ معاملة واحدة أبداً، ولن يكون. لن أجعل امرأة تعيش مثل كلب في كهف. الديوك تفعلها. وهي اعتادت على قول ذلك أيضاً. كيف أن الشبان لا يفكرون في أي شيء عداهم؛ كيف أن كل أولئك الأولاد في الفناء أو المرقص لا يفكرون عدا في أنفسهم. حين أجدها، أعرف -أرهن حياتي- فلن يخترقها واحد منهم أبداً. لن تتخالط ملابسه كاملة بملابسها. ليس هي. ليست «دوركا». ستكون وحيدة. عنيدة. وحتى، وحشية. لكنها الوحيدة».



ما وراء الشجرة، خلف الهيسكوس، كان جلمود صخر. وراءه مدخل مقرف تماماً حتى أنك تتأكد أنه من فعلة إنسان. لا تلعب أو أيل سريع سيكون مجللاً هكذا. هل كانت تختبئ هناك؟ هل كانت تلك الصغيرة؟ وقد ألقى لينظر على علامة منها، فلم يتعرف شيئاً. وأخيراً، ألصق رأسه به. ظلام دامس. لا رائحة روث أو وبر. لها، بديلاً، رائحة أليفة - زيت، رماد- وهي

التي قادته. كان يزحف، متلويًا خلال مسافة منخفضة تكاد تمسّ شعره. وحين صمّم على الرجوع خارجاً من هناك، أصبح القدر تحت يديه جافاً، وصدمه النور بشدة حتى أنه أجفل. رجع من خلال أطوال كانت الظلمة تجسّد فيها قليلاً، وكان يحذر من الجزء الجنوبي لوجه الصخرة. جحر طبيعي. لم يذهب لمكان. مال عبر المنحدر من منحى إلى آخر. وتلأل نهر «تريسون» من تحته. غير قادر على الدوران للداخل، جذب نفسه طول طريق الخروج، ليسمح لرأسه أولاً. وعلى الفور، في الهواء الطلق، كانت الرائحة الأليفة تزداد حدة. زيت طبخ عبق رائحته تحت نور شمس طاعنة. حينها رأى الشقّ. دلف إليه على ظهره حتى أوقفت زحفه أرض ما. كان ذلك كالسقوط في الشمس. نور الظهيرة يتبعه كالحسم إلى غرفة صخرية حيث كان يطبخ شخص ما بالزيت.

«ليس لها أن توضح. ليس عليها أن تقول كلمة. أعرف كنه ذلك. وربما تظنّ هي بأنها الغيرة، ولكنني رجل معتدل. ليس معنى ذلك أنني لا أحسّ بالأشياء. فقد عرفت بعض الأوقات العصبية. واجتزتها، أيضاً. إنني أحسّ بالأشياء كأني امرئ آخر. ستكون لوجدها تماماً.»

«سوف تنقاد لي.»

«سوف تمدّد يدها، تسير تجاهي في حداثها المهترئة، لكن وجهها نظيف وأنا فيخبر بها. تضايقها خصلاتها المحزومة جيداً، ولذلك ترخيها، فتساب تجاهي. وهي سعيدة أنني وجدتتها. ناعمة ومحنية، تريدني أن أفعل لها هذا، تطلبه مني. أنا فقط. لا أحد غيري.»

أحسّ بسلام في البداية، وبنوع من الأرق، وكأن شيئاً ينتظره. كإحساس ما قبل العشاء، حين يرتقب الناس الأكل. ورغم أنه كان مكاناً خاصاً، بمدخل منغلق على العامة، فإنك لودخلت يمكنك أن تفعل مانشاء: أشياء ممزقة، أشياء مختلطة، لمس وتحرك. تغير ذلك كله بطريقة لم يكن مقصوداً أن تكون. استحال لون حوائط الصخر من الذهبي إلى أزرق شبكات السمك وقت أن غادره. وقد رأى ما كان هناك. فستان أخضر. كرسي من حجر بدون ذراع. دائرة من حجارة للطبخ. أباريق، سلال، أوان، دمية، مغزل، حلقات أذن، صورة، كومة عصي، مجموعة من الفرش الفضية، وعلبة سيجار مفضضة. أيضاً. أيضاً، بنطلون رجل بأزرار من العظم. قميص من حرير، مطويًا بعناية، باهتاً للغاية وبلون القشدة - عدا مكان الثنية. كان هناك، كل من الخيط والقماش جديداً وأصفر مشمساً.

لكن أينها هي؟



هناك هي. لا إخوة يرقصون في هذا المكان، ولا بنات لاهثة الأنفاس ترتقب المصباح الأبيض كي يستبدل بالأزرق. وهذا الحفل للبالغين. إن ما يحدث، يحدث في النور الباهر. الكحول غير القانوني ليس سرى، والأسرار ليست ممنوعة. ادفعي دولاراً أو اثنين عند دخولك، وما تقولينه يكون أليق وأكثر مرحاً مما يمكنك أن تقولينه في مطبخك. أسطح ظرفك تعلو وتعلو، كاندفاع رغوة إلى الحافة. الضحك كجلجلة الأجراس التي لا تحتاج يداً لتجذبها من الحبل، تدوم وتدوم فحسب حتى تصيري ضعيفة معها. يمكن أن تشربي «الجن» المأمون لو أحببت، أو تتعلقي بالبيرة، لكنك لن تحتاجي أياً منهما لأن لمسةً على الركبة، مصادفةً أو عامدة، تخفز الدم كدفعة مما قبل ويسكي «البوربون»، أو كأن إصبعين يقرصان حلمتك. روحك تصعد إلى السقف حيث تطفو قليلاً ناظرةً على ما تحتها من عري متكرر بلذّة. تعرفين بأن شيئاً شريعياً يدور في غرفة بباب مغلق. لكن الانبهار الكافي والأذى هاهنا، حيث يلتصق المشاركون أو يستبدلون عند حفز الغناء الذي يسحق القلب.

«دوركا» راضية، سعيدة. ذراعان يحضنانها، وتقدر أن تريح خدها على كتفها، بينما معصماها ينعدان خلف رقبته. من الأفضل أنهم لا يحتاجون فراغاً كبيراً ليرقصوا فيه حيث لا يوجد. الغرفة محشورة. الرجال يئنون بارتياحهم؛ والنساء يهمهن بالحدس. تنحي الموسيقى، تسقط على ركبتيها لتحضنهم جميعاً، تستحثهم كلهم على أن يحيوا ولو قليلاً، لماذا أنت لا؟ لأن هذا هو الموقف الذي تفتشين عنه.

شريك «دوركا» لا يهمس في أذنها. وعوده واضحة تماماً في الذقن التي يضغطها إلى شعرها، وفي أطراف الأصابع التي هدأت عليها. بينما تتمطط هي لتحيط برقبته. ينحني ليمسكها من هذا يتوافقان في كل شيء، فوق الخصر وتحت: العضلة، الوتر، مفصل العظم، ولحمة مخ العظم. ولو تردّد الراقصون، لحظة شك تتابهم، فإن الموسيقى تحل وتحلل أيها استفهام.

«دوركا» سعيدة. أسعد مما كانت في أي وقت مضى. لا شذرات يياض في شارب رفيقها. إنه فائر ومتنش. صقر العينين، غير مجهد، وعنيف قليلاً. لم يهبها هدية أبداً، ولا فكر في هذا. أحياناً ما يكون حيث يقول بأنه سيكون؛ أحياناً لا. نسوة أخريات كن يردنه - بشدة - لأنه

كان المختار. مايردنه كان هو، والمكافأة هو أن يهب ذاته الفاهمة. ماذا يمكن لزوج من جوارب
الحرير أن تقارن به؟ لاخلاف. «دوركا» محظوظة. تعرف ذلك. وسعيدة كما لم تكن في أي
وقت مضى.



«هوأت لي، أعرف مقصده، لأنني أعرف كم تغيم عيناه فائرتين حين أخبره أن لا.
وكم تركضان فيما بعد. لم أقل ذلك بلطف، رغم قصدي له. لقد تدرّيت على الغايات؛ أمام
المرأة كنت أفحصها واحداً بعد آخر: الانسلال، وزوجته، والجميع. لم أقل أي شيء عن
عمرينا، ولا عن «أكتون». لاشيء عن «أكتون». لكنه جادلني، فقلت، دعني لوحدي. فقط
دعني لوحدي. ابتعد عني. جلبت لي زجاجة كولونيا أخرى، سوف أشربها وأموت، لو لم
تدعني لوحدي.
«قال؛ لن تميتك الكولونيا.
«قلت، أنت تعرف ماذا أقصد.
«قال؛ تريدني أن أهجر زوجتي؟
«قلت، لا! أريدك أن تهجرني أنا. لا أريدك داخلي. لا أريدك جانبي. أكره هذه الغرفة. لا
أريد أن أكون هنا، عليك أن لاتأتي باحثاً عني.
«قال؛ لم؟
«قلت، لأن. لأن. لأن.
«قال؛ لأن ماذا؟
«قلت، لأنك تمرضني.
«أمرضك؟ أنا أمرضك؟
«أمرض من نفسي وأمرض منك.
«أنا لا أقصد ذلك الدور... عن كون المرض. هو لم يفعل. يجعلني مريضة، أقصد. ما
أردته أن يعرفه، أنه كانت لدي هذه الفرصة لامتلاك «أكتون»، وقد أردت ذلك، وأردت
صديقاتي أن يكلمنه في هذا. عن أي مكان ذهبنا إليه، وماذا فعل. عن الحاجات. عن الهراء.
كيف تكون الأسرار نافعة لو لم تتمكن من الكلام مع أي أحد بخصوصها؟ أفرزت هذا التلميح
بشأنني وشأن «جو» مع «فيليس»، والتي ضحككت قبل أن تحلق في وبعدها عبت.
«لم أستطع أن أحكي ذلك كله له، لأنني كنت تدرّبت على الغايات الأخرى، وصرتُ
الآن مشوشة.

«لكنه أت لي. أعرف ذلك. لقد كان يفتش عني طول الوقت. ربما سيجدني غداً. ربما
الليلة. خارج الطريق هنا؛ على طول خارج الطريق هنا.

«حين نزلنا من الترام، أنا و«أكتون» و«فيليس»، ظننتُ بأنه كان هناك، في المدخل التالي لـحل الكراميل، لكنه لم يكن هو. ليس بعد. أظن بأنني أراه في كل مكان. أعرف أنه ينظر، وأعرف أنه أت الآن. لم يكن يهتم حتي بهيئتي. يمكن أن أكون أي شيء، أفعل أي شيء—وهذا ما كان يسره. إن شيئاً بخصوص ذلك جعلني أجبن. لا أعرف.

«الآن يخبرني «أكتون» بأنه لا يحب الطريقة التي أُسوي بها شعري، في أي حين، وعندها يجعله على هيئة ما يحب. لا أرتدي نظارات أبداً حين يكون معي، وأغير من ضحككتي لأخرى يحبها أكثر من أجل خاطره. أظنه يحب. أعرف أنه لم يحب من قبل. وأنا ألعب مع طعمي الآن. كان «جو» يحب مني أن ألتهمه وأطلب المزيد. أما «أكتون» فكان يهيني نظرة هادئة حين أمهله لثوان. كان يقلق لشأني على تلك الطريقة. لم يفعل «جو» ذلك أبداً. «جو» لم يكن يبالي أي نوع من النساء أكون. كان لابد أن يفعل. كنت أهتم. أردت أن يكون لي شخصية، ومع «أكتون» كانت لدي واحدة. أُلقي بنظرة الآن. ما الذي يمكن لحاجبين في نحافة القلم الرصاص أن يفعله بوجهي، كان حلماً. كل أساوري كانت فقط تحت مرفقي. أحياناً أحبك جوربي لتحت، لا فوق، ركبتي. ثلاثة شرائط على مشط قدمي، وفي البيت عندي حذاء جلدي مقطوع يبدو كالمشدد.

«هوات لي. ربما الليلة. ربما هنا.

«لو يريد سينظر ويرى كم أن «أكتون» بقربي يرقص: كيف أريح رأسي على ذراعي الحاضنة له. طوق جونلتي يشنئ لأسفل في الظهر ويلمس ربلتي ساقني بينما تتأرجح خلفاً وللأمام، ثم جنباً لجنب. كل وجهي جسدينا يتلامسان، لا شيء يمكنه أن يمر من بيننا، فنحن لصبيان تماماً. كثير من الفتيات هنا يردن فعلة هذا معه. يمكن أن أراهن حين أفتح عيني لأنظر من خلف رقبته. أحك ظفر إبهامي على مؤخر عنقه، فتعرف الفتيات بأنني أعرف أنهن يردنه. هو لا يحب ذلك، ويستدير برأسه ليجعلني أكف عن لمس رقبته على هذا النحو. فأكف.

«جو لم يكن يهتم. يمكن لي أن أحك أي مكان به. يجعلني أرسم صوراً بالروج في أماكن عنده لجلب مرآة ويرى».

أي شيء يحدث بعد أن تنتهي هذه الحفلة هو لا شيء. كل شيء الآن. هذا شبيه بالحرب. كل امرئ وسيم، متلمع، ويفكر فقط في دم الآخرين. وعلى ذلك، فإن الفيض الأحمر المتطاير من غير عروقهم يكون ما كياجاً لوجه مرخص بلمعانه. إحياء. فائن. بعدها هناك سيكون بعض الهذر واستخلاص لما قد يستمر؛ لا شيء كممثل الفعل نفسه والدقة التي تضخ

القلب. في الحرب أو في حفلة كل امرئ يكون مراوفاً، أسراً؛ الأهداف موضوعة ومُبدلة؛
والأنساب يعاد ترتيبها. المشاركون والمنافسون مخربون؛ أزواج جديدة تنتصر. الاحتمالات
الحاسمة تصدم «دوركا»، لأنه هنا - مع البالغين وكما في حرب - يلعب الناس لأجل الصمود.

«هوأت لي. وعندما يفعل فسوف يرى أنني لن أخصه بعد. أخص «أكتون»، و«أكتون»
هذا هو ما أريده لإسعادي. يتوقع ذلك. مع «جو» أسعدت نفسي، لأنه استحثني على ذلك. مع
«جو» اشتغلت مضرب هذه الدنيا، القوة في يميني».



أوه، الغرفة - الموسيقى - ينحني الناس عند المداخل. الصور المظلمة تقبل بعضها خلف
الستائر؛ أصابع لعب تتفحص وتلاطف. هذا هو المكان الذي تندفع فيه الأشياء. هذا هو السوق
حيث الإيماء هي كل شيء؛ برق من لسان يلحس؛ ظفر إبهام يسحج الخدود المفلوقة من
خوخة أرجوان. أي عاشق منبوذ في حذاء مبكّل مفكوك وسويتزر مزرر لأعلى تحت معطفه،
أجنبي عن هنا. ليس هذا المكان لرجال عجائز؛ هذا مكان للمغامرين.

«إنه هنا. أوه، انظروا. يا إلهي. إنه يبكي. هل أهبط؟ ولماذا أهبط؟ إن «أكتون» يحتضني
عالياً، ولكنني سأهبط على أي حال. تستدير الرؤوس لتتأمل حيشما أهبط. الدنيا ظلام والآن نور.
أرقد فوق فراش. يمسح امرؤ العرق عن جبهتي، لكنني بردانة، بردانة جداً. أرى أفواهاً تتحرك؛
وهي تبوح لي جميعها بشيء لم أتمكن من سماعه. بعيداً هناك عند رجل السرير، أرى
«أكتون». دم فوق چاكت معطفه وهو يمسحه بمنديل أبيض. امرأة تأخذ المعطف الآن عن
كتفيه. يضايقه الدم. هو دمي، أخمن، بقع إلى قميصه من خلال چاكتته. تصرخ المضيفة.
حفلهما فسد. يبدو «أكتون» غاضباً، تجلب المرأة چاكتته ثانية، ولم تكن نظيفة على العهد الذي
كانته من قبل وبالطريقة التي يحبها فيها.
«يمكنني سماعهم الآن.
(من؟ من فعل هذا؟)
يريدون مني البوح باسمه. أن أقوله على ملأ في النهاية.

« خلع » أكتون « قميصه. الخلق يسدون المدخل ؛ يشبّ البعض من خلعهم ليلقي بنظرة أفضل. عزف الحاكي انتهى. شخص كانوا ينتظرونه يعزف البيانو. امرأة تغني كذلك. الموسيقى شاحبة، لكنني أعرف الكلمات عن ظهر قلب.

« تنحني » فيليس « قرية. يدها التي تحضنني مشدودة للغاية. أحاول الكلام بفمي أن تقرب أكثر مني. عيناها أكبر من النور الراسخ على السقف. تسألني إن كان هو.

« يريدون مني البوح باسمه، حتى يمكنهم مطاردته. يسلبونني شِطّة عينته مع «روشيل وبرنادين وفاي» (*) بداخلها. أعرف اسمه، لكن ماما لن تقوله. لقد ضرب العالم من مضربٍ بغير يدي، يا «فيليس». هناك في تلكم الغرفة بأثر الثلج في النافذة. تضع «فيليس» أذنها على شفتي فأصرخ بذلك لها. أظن أني أصرخ لها. أظن أنني أنا.

« الخلق يرحلون.

« الدنيا صفاء الآن. من خلل المدخل أرى النافذة. عليها وعاء من خشب بُنيّ، مُسطّح، بانخفاض كصينية، مملوء حتى الحافة بالبرتقال. أريد أن أنام، لكن الدنيا صفاء الآن. صاف تماماً إلواء الغامق بكومة البرتقال. برتقال فحسب. لامع. أنصتوا. لا أعرف من تكون تلك المرأة التي تغني، ولكنني أعرف الكلمات عن ظهر قلب.»



(*) أسماء عرائس «دوركا» التي احترقت مع أمها في البيت، بعد حادثة مصرع أبيها. (المترجم)

عشق. ذلك ما أُطلقَ على الطقس. طقس عشق، اليوم الأجمل من العام. وذلك حينما ابتداءً هذا. يوم رائق للغاية، يتألق فيه الشجر الراسخ. وأفقاً في وسط بلاطة إسمنتية، يتألق، خائفاً من عمره. كان سخيفاً، نعم، لكنه كان نوع ذلك اليوم. أمكن لي أن أرى طريق «لينوكس» وهو يوسع من نفسه، ويخرج الرجال من محلاتهم لينظروا ماذا يحدث، يقفون بأيديهم تحت مرايلهم أو تلتصق بجيوبهم الخلفية، فقط. ينظرون عبر شارع يفرش نفسه باتساع كي يحتوي النهار. المحاربون القدماء عاجزون في نصف زيّ ونصف أهلية، وقفوا ناظرين بعبوس على الرجال العاملين؛ ذهبوا إلى عربات «فازر دايفين»، وبعد تناولهم طعامهم لفوا سجاثرهم، واستقروا عند منحني كما لو كانوا في «دنكان فيف». وكانت النسوة المطرقات بكعوبهن على الرصيف يسرن على شقوق المفارق، لأنهن كن يتطلعن للأشجار كي يرين من أين يهلّ ذلك النور الصافي، ناعماً لكنه راسخ. دمدمة سيارات «إم ١١» «إم ٢» كانت بعيدة، شاردة، ومثلها «الهاكار». وحتى «الفورد»، تلك الصاخبة، فهي تنهaddy، ولم يحسّ واحد بحاجة لنفخ نفيره أو ليحمّل خارجاً من جانب السائق لمحاولة إخراج شخص متلكىء في عبور الشارع. إن عذوبة النهار تدغدغهم، تجعلهم يترنمون بغنوة زنجية «وهبتك كل ما جنيته! فرجعت معي للبيت!» إلى امرأة تسير في كعبين أسودين لامعين عند المفارق.

غير شبّان على الأسطح من لحنهم؛ ملفوظاً ومزعزوعاً بالشقاء لوهلة، وحين كانوا يرجعون نافخين به وجناتهم كان صافياً وراسخاً ونوعاً من الأنواع، كمثل نور هذا النهار. لا بد أن تظن بأن كل شيء مغفور لهم من طريقة عزفهم. آلات الكلارنت فيها مشكلة، لأن النحاس كان مقطوعاً بنعومة بالغة، وليس بالطريقة الوضيعة التي يحبون أن يفعلوها بها، لكنها عالية وناعمة كحناء شابة جنب غدير، تزجية للفراغ، بينما كاحلاها باردان في الماء. من المحتمل بأن الشبان بآلاتهم النحاسية هذه لم يروا هاتيك الفتاة أبداً، أو مثل هذا الغدير، لكنهم اخترعوها في ذلك النهار. على الأسطح. كان بعضهم في ٢٥٤ حيث لاسور يحميمهم هناك؛ وآخرون في ١٣١، واحد مع خزان الماء يلون خضار التفاح، وشخص مباشرة جنبه، وفي ١٣٣، حيث يحتفظون بالطماطم في العلب المزخرفة، وفراش من القش للنوم ليلاً. نظراً لوجود الرطوبة، وطريقة لتجنب البعوض الذي لا يقدر على الطيران لأعلى بل يلبث في لحم الرقبة الرقيق قرب

مصاييح الشارع. ولذا، فمن شارع «لينوكس» إلى شارع «نيقولا» وعبر الشارع ١٣٥، «لكسنجتون»، ومن «كونفنت» إلى الشارع ٨، أمكنني أن أسمع الرجال وهم يرهقون قلوب أشجار سكر القيقب، ينقرون أشجاراً عمرها أربعمئة عام ويجعلونها تسيل إلى أسفل الجذع، ولأنهم ليس لديهم دلو لحفظ السائل ولا يريدون، فهم يضيعونه أيضاً. يريدون فحسب بأن يجعلوه يسيل طوال النهار، بطيئاً لو شاء، أو سريعاً، فهي هكذا أشجار مدرّة مجاناً، تنفجر لكي تخلي ما فيها.

تلك كانت طريقة عزف الشبان بالأنهم النحاسية في ذلك النهار. كانوا واثقين بأنفسهم، واثقين بأنهم أتقياء، يوقوفهم هناك على الأسطح، مواجهين لبعضهم البعض في البداية، وسين تكون الدنيا صفاء، يدوون بالآت الكلارنت، ثم يديرون ظهورهم إليها، يتركون تلك الأبواق على استقامتها وينضمون للنور الذي كان صافياً فحسب، وراسخاً ونوعاً من الأنواع.

مامن نهار هناك يدمر فوراً هذه الحياة التي تتشظى كلوح نافذة رخيصة، لكن «فيولت» كان عليها أن تعرف من هي «فيولت». لقد ظنت بأن كل ما عليها أن تفعله هو احتساء شعير «د. دي زيرف أند فليش بيلدر»، وأكل الخنزير، ولا بد أن تكسب وزناً كافياً لملء عجيذة فستانها. كانت ترتدي في العادة معطفاً بهذه الأيام الدفيدة لتمنع الرجال جنب المنحني أن يهزوا رؤوسهم بالشفقة عليها عند مرورها بهم. لكن في هذا النوع من النهار، كان يوماً جميلاً، لم تكن تعنى بمن فاتته من خلفها، لأنها خرجت من الباب واستندت بمرفقيها على راحتيها في الشرفة واتزلق جورباها إلى كاحليها. كانت تصيخ سماعاً للموسيقى التي تثقب تنهّات «جو»، والتي كانت أهدأ الآن. وربما لأنها قد أعادت صورة «دوركا» إلى «أليس منفريد». لكن المساحة ظلت حقيقية حيث كانت الصورة. ربما ذلك السبب، في أنها تقف هناك على الشرفة، غافلة عما وراءها، تفكر أن من تصعد السلالم نحوها هي «دوركا» أخرى حقيقية حية، بأربع خصلات شعر متموجة مناسبة، وكل شيء.

كانت تحمل اسطوانة «أوكيه» تحت ذراعها، ونصف أوقية من اللحم ملفوفاً في ورقة جزّار قرفلية في يدها، رغم أن الشمس كانت ملتهبة بحيث تعذر عليها أن تتسكع في الشوارع باللحم. لو لم تسرع - فسينطبخ لوحده، قبل أن تضعه على الموقد. فتاة كسولة. ذراعها ممتلئان، لكن مامن شيء كثير في رأسها. تجعلني عصبية.

تجعلني أتساءل عما إن كان هذا الطقس البديع سيدوم أكثر من هذا النهار. يشوشني فعلاً ذلك الرماد المتساقط من مساحة الأزرق على هذه الشوارع. غشاوة قاتمة تتجمع عليها العتبات، وتغطي ألواح النوافذ. وهامي تشوشني الآن، تجعلني أتشكك في ذات نفسي مجرد النظر إلى سيرها المتدّ خلال أشعة الشمس على هذا النحو. إنها تصعد السلالم الآن، متوجّهة نحو «فيولنت».

« كانت أمي، وأبي أيضاً، يعيشان في «تكسيدو». لم أكن أراهما على التقريب. كنت أحييا مع جدتي التي قالت لي («فيليس»، هما لا يعيشان في «تكسيدو» ؛ بل يعملان هناك، ويعيشان معنا). فقط كلمتا: يعيش، يعمل. كان من الضروري أن أراهما مرة كل ثلاثة أسابيع لمدة يومين ونصف، وكل يوم رأس السنة، وكل نهار عيد الفصح. كنت أحصي ذلك. اثنان وأربعون يوماً لو أحصيت أنصاف الأيام - التي ما كانت تجدي معي، حيث ينفد معظمها في حزم المتاع والوصول للقطار - بالإضافة لإجازتين فيكون الحاصل أربعاً وأربعين، لكنها في الحقيقة أربعاً وثلاثين فقط، لأن أنصاف الأيام لا ينبغي إحصاؤها. أربع وثلاثون يوماً في السنة.

«حين يعودان للبيت، كانا يقبلانني ويهبانني حاجات، كخاتمي الأوبال، لكن حقيقة ما كانا يريدان فعله هو الخروج للرقص بأحد الأماكن (أمي) أو النوم (أبي). وكانا يذهبان للكنيسة يوم الأحد، لكن أمي لاتزال حزينة على ذلك، لأن كل الأشياء التي عليها أن تؤذيها بالكنيسة - العشاءات، الاجتماعات، ترتيب البدرج لحفلات مدارس الأحد، واستقبالات مابعد الجنائز - كانت ترفضها، وذلك بسبب وظيفتها في «تكسيدو». كانت تودّ، أفضل من أي شيء، النسيمة مع النساء في حلقات الجمعية عما يدور ؛ وتبني الرقص قليلاً أو لعب الورق.

«كان أبي يفضل البقاء في روبر حمام، يقرأ أكذاس الجرائد التي خزناها له أنا وجدتي، يترقب تغييراً ما. صحف «المستردام»، «الآدج»، «الكرايسز»، «الميسنجر»، و«الوركر». وكان يأخذ بعضاً معه إلى «تكسيدو» لأنه لم يكن يتحصل عليها هناك. كان يحب أن تطوى على الشكل الصحيح لو كانت جرائد، لا طعام أو بصمات أصابع فوق المجلات، ولذا لم أكن أقرأ فيها كثيراً. جدتي كانت تفعل، وتكون حريصة جداً جداً أن لا تجعلها أو تنسخ. لا شيء كان يجعله أشدّ جنوناً من أن يفتح صحيفة بغير طية سليمة. يئن وينخر في أثناء القراءة وعلى حين غرة يضحك، لكنه ما كان يدع كل تلك القراءة حتى ولو أفلقت دمه، قالت جدتي. كان أفضل شيء له أن يقرأ كل حاجة، ويجادل بخصوص ما قرأه مع أمي وجدتي والصحاب الذين يلعب معهم الورق.

«فكرت ذات مرة لو أنني كنت قرأت الجرائد، لو قرأت جدالي معه. فقد اخترت بشكل مغلوط. قرأت عن الشرطيين البيض الذين قبض عليهم لقتلهم بعض الزنوج، وصرحت بأني سعيدة للقبض عليهم، كان ذلك بالقرب من وقت الحادثة.

«نظر إليّ وصرخ (هذه حكاية مجرد أنها لاءمت الصحيفة، فكل ذلك أخبار، يابنتي، أخباراً) لم أدر كيف أرد عليه، وبدأت أبكي، فقالت جدتي (اذهبي لهنالك واستريحيني)، وقالت أمي (ولتر، كفف عن ذلك كله مع البنت). وقد وضحت لي ما كان يقصده: ذلك أن عمليات قتل الشرطة للزنوج تتم يومياً، ولا يتم القبض على أحد مطلقاً. بعدها أخذتني لتسوق بعض أشياء لرؤسها في «تكسيدو» كانوا يطلبونها، ولمن أسألها لماذا عليها أن تتسوق لهم بأيام عطلتها، لأنها كانت عندئذ لن تأخذني معها لحلات «تيفاني» في الشارع ٣٧ الذي كان هادئاً أكثر مما

لو طلب الكاهن «ريفرند» دقيقة لصلاة صامتة. عندما كان يحدث هذا، كنتُ أسمع أقدام وينفخ بعض الناس بأنوفهم. ولكن في محلات «تيفاني» فلا أحد ينفخ بأنفه ويمنع السجاد ضوضاء الأحذية من أي نوع. مثل «تكسيدو».

«منذ سنين، حين كنتُ صغيرة، وقبل أن أبدأ المدرسة، كان أبوي يأخذاني لهنالك. وكان عليّ أظّل هادئة طوال الوقت. لقد أخذاني مرتين، وظللت هناك كل الأسابيع الثلاثة. توقّف هذا، رغباً. تكلم أبي وأمي عن الذهاب لكنهما لم يفعلاه. جعلنا جدتي تنطوي على نفسها وتشرف عليّ».

«أربع وثلاثون يوماً. أنا في السابعة عشرة الآن. وقد حدث هذا في أقلّ من ستمائة يوم. أقلّ من عامين بعد السابعة عشرة. قالت «دوركا» بأنني محظوظة لمجرد أنهما كانا -على الأقل- هناك، في مكان ما، ولو مرضت فيمكنني استدعاؤهما، أو أركب القطار وأذهب لأراهما. كلاً من أبويها قد مات بطريقة كريهة للغاية، وقد رأتها بعد موتها، وقبل الجنازة حين اتخذ الناس الترتيبات. لديها صورة لهما جالسين تحت شجرة برقوق مرسومة. كانت أمها واقفة بيدها على كتف الأب. كان هو جالساً ويمسك بكتاب. وكانا ينظران بأسى عليك، لكن «دوركا» لم تكن تشفى من المنظر الطيب الذي كانا عليه كلاهما».

«كانت تتكلم دوماً عن كان حسن المنظر ومن ليس كذلك. من روحه ملتبسة، من في أفضل ملابس، من يجيد الرقص، من جريء».

«كانت جدتي تشك في كوننا أصحاباً. لم تقل أبداً لماذا، لكنني حرّرت السبب. لم يكن لديّ أصحاب كثيرون في المدرسة. كانت البنات -لا الأولاد- في مدرستي هن اللاتي يتجمعن طبقاً للون جلودهن. أكره هذا الهواء -«دوركا» أيضاً. كنا أنا وهي مختلفتين بتلك الطريقة. حين كانت تتذمر إحدى المقرفات (هاى، ياذبابة، أين اللين المخضوض؟)، أو (هاى، كنكي) (*، أين كند؟) كنا نلصق ألسنتنا للخارج، ونضع أصابعنا في أنوفنا كي تتممخط. لكن لو لم يجد ذلك كنا نقوم بضربهن. بعض تلك الخناقات أتلفت ملابسي ونظارة «دوركا». لكن يبدو أن خناقات تلکم البنات مع «دوركا» كانت جيدة. فلم تكن تخاف أبداً، وكنا نمضي أفضل الأوقات. كان ذلك كله خلال مدرسة لأحداث العالية (***)، وكل يوم».

«كل تلك الأوقات الطيبة قد راحت، أشهر قليلة ترى الرجل العجوز. عرفت ذلك من البداية، لكنها لم تعرف بأنني عرفت. تركتها تظن بأنه سرّ، لأنها أرادت أن يكون هكذا. في البدء ظننت بأنها كانت تخزى من الشيء، أو منه هو، وأنها فيه لمجرد الهدايا فقط. لكنها أحبّت ذلك

(*) كنكي: سخرية من الشعر المصفور فتائل. (المترجم)

(**) مدرسة تشمل على الصغين السابع والثامن الابتدائيين والأول الثانوي. (المترجم)

السّرّ الهراء. خطّطت وتأمّرت كيف تتخدع مسز «منفريد». كانت ترتدي في منزلي قميص نوم مغفياً لكي تذهب به. تخفي أشياء. تفعل ذلك دائماً وكأنه أسرار. لم تكن تخجل منه هو أيضاً.

«هو عجوز. حقيقةً عجوز. لكنه كان يُقابل من هن حسنات المظهر في مستواها، سأحكي له ذلك. كان لابد لـ «دوركا» أن تكون أجمل مما كانته. كانت فقط ضائعة. كان لديها كل مقومات الجمال أيضاً. شعر طويل، ممّوج، نصف بديع، نصف رديء جلدها لامع. لم تكن تستخدم مليّنات الجلد أبداً. قوام رائع. لكنه ضائع بدرجة ما. لو نظرت فيها على أي شيء، فسيعجبك - الشعر، اللون، القوام. لكن كله سوياً غير متناسب. كان الأولاد ينظرون إليها، يصفّرون وينادون بمعاكسات طازجة حين كنا نسير في الشارع. وفي المدرسة أراد الأولاد بكل أنواعهم أن يكلموها. لكنهم كفوا حينئذ، فلا شيء يجدي. لم يكن ذلك من طبعها، فهي متكاملة حاذقة، تحب المزاح والسخرية. ما من حفيظة لديها. لا أعرف ما كنه ذلك. إلا أن تكون هذه هي الطريقة التي تدفعهم بها. أعني وكأنها كانت تريد أن يفعلوا شيئاً مروعاً طوال الوقت. يسرقون لها أشياء، أو يرجعون إلى المتجر لصنع وجه البائعة البيضاء التي لم تقم بخدمتها، أو يلعنون سلسال شخص كان عاملها بازداراء. تغلبي. كان كل شيء وكأنه صورة عُرِضت عليها، وكأنها الوحيدة على مدفآت سكة الحديد، أو المحجوزة في خيمة الساحر حينما اندلعت بها النيران.

«أظنّ ذلك ما جعلها تحبّ الرجل العجوز كثيراً جداً في البداية. التكتّم وأن كانت له زوجة. لابد أنه فعل شيئاً خطيراً معها حين قابلته لأول مرة، وإلا لم تكن استمرت في الانسلاال معه. على أي حال، هي التي كانت تظنّ بأنها تسنل. لكن اثنتين من مصفقات الشعر رأياها في ذلك الملهى الليلي، بالمكسيك، معه. قضيت ساعتين هناك أسمع لما كانتا تقولانه عنها وعنه وعن كل الآخرين الذين يخونون. كانتا سعيدتين بالكلام عن «دوركا» وعنه، في الغالب، لأنهما لم تكونا تحبان زوجته. كانت تغضب منهما الزبائن، ولذا لم يكن عندهما ما هو طيب للكلام عنها، عدا أنها مجنونة، لكن نقص الشعر جيداً، ولو لم تكن عندهما ما هو طيب للكلام عنها، عدا أنها مجنونة، لكن نقص الشعر جيداً، ولو لم تكن مجنونة تماماً، لكانت حصلت على رخصة صحيحة بدلاً من أن تغضب منهما الزبائن.

«كانتا مخطّعتين بشأنها. فقد رحت أبحث عن خاتمي، ولم أجد شيئاً مجنوناً لديها على الإطلاق.

«أعرف أن أمي قد سرقت الخاتم. قالت بأن رئيستها أعطته لها، لكنني أذكره ذلك اليوم في محلات «تيفاني». خاتم فضيّ بحجر أسود أملس يدعى الأوبال. ذهبت البائعة لإحضار اللفة التي أتت أمي لاستلامها، أرت الفتاة الورقة من رئيستها ليعطوها إياه (وأظهرتها حتى عند البوابة، ليمسحوا لها بالدخول). حين ذهبت البائعة، نظرنا إلى صينية الخواتم المخملية، التقطنا بعضها وحاولنا أن نجربه، لكن أتى رجل في بذلة جميلة إلينا وهز رأسه. بخفة بالغة. (إنني أنتظر

طردها لمسز نيكلسون) قالت أمي.

«ابتسم الرجل عندئذ وقال (طبعاً. فقط الشرطة. علينا أن تكون حريصين) عند رحيلنا قالت أمي (من ماذا؟ ما الذي عليه أن يكون حريصاً بشأنه؟ لقد أخرجوا الصينية حتى يتمكن الناس من النظر إلى الحاجات، أليس كذلك؟ إذن فما الذي عليه أن يكون حريصاً بشأنه؟)

«عبرت وتبرمت، وانتظرنا وقتاً طويلاً حتى يأخذنا التاكسي إلى البيت، وتحدثت أبي بأن يقول شيئاً يخص هذا. الصباح التالي، حزما أمرهما واستعداً لأخذ القطار عائدين إلى محطة «تكسيدو». نادى عليّ مراراً، ووهبني الخاتم الذي قالت بأن رئيسها أعطاها إياه. ربما كان لديهم الكثير منه، لكنني أعلم بأن أمي قد أخذته من الصينية لمخملية. أفترض ذلك، بعداً عن الضغينة، لكنها وهبته لي وأنا أحببته، وقد أقرضته لـ «دوركا» فحسب، لأنها ترجّعتني لأجله بالحاح شديد، ولأن قضيته كانت تلائم كثيراً أساور مرفقها.

«كانت تؤدّ التأثير على «أكتون». وهو عمل صعب، فقد كان ينتقد كل شيء. لم يكن وهبها قط أي هدايا كما كان يفعل الرجل العجوز. أعرف أنها أخذت هراء كثيراً منه، لأن مسز «منفريد» كان يمكن أن تموت قبل أن تشتري ملابس النوم المنزلة أو جوارب الحرير لـ «دوركا». وهي أشياء لم تقدر على ارتداؤها بالبيت أو في الطريق إلى الكنيسة.

«بعد أن علّقت «دوركا» بـ «أكتون» كنا نرى بعضنا البعض كالسابق، لكنها اختلفت. كانت تفعل مع «أكتون» ما كان يفعله العجوز معها - تهبه الهدايا الصغيرة التي تشتريها من المال الذي نالته بتملّق العجوز ومن مسز «منفريد». لم يلحظ أحد «دوركا» تفتّش عن عمل، ولكنها كانت تكذّب لتدبير مال بالمكيدة كي تهب الحاجات لـ «أكتون». حاجات لم تعجبه، على أي حال، لأنها كانت رخيصة، ولم يلبس أبدا ديوس الكرافة القبيح ولا كذلك منديل لحير بسبب لونه. إني أخمّن أن العجوز علمها كيف تكون لطيفة، وقد أنفقت هذا الدرس على «أكتون»، والذي ناله كمنحة، كما نالها هي أيضاً كمنحة مثل أي فتاة أحبته. لا أعرف مالو كانت قد هجرت العجوز أو كانت تحتفظ به مع «أكتون» في ذات الوقت. قالت جدتي بأنها هي التي جلبته لنفسها. وقالت: عش هذه الحياة، تدفع الثمن.

«عليّ أن أصل البيت. لو جلست هنا طويلاً، فإن رجلاً ما سيظنّ بأنني أفتش عن قضاء وقت طيب. ليس أكثر. بعدما حدث مع «دوركا» فإن كل ما أودّه هو استعادة خاتمي. أن تعمل بعد في «تكسيدو»، وصار لأبي وظيفة في فندق البرلمان. وهو أسعد مما قد رأيته ذات يوم. عند قراءته الصحف والمجلات، فهو لا زال ينخر ويكلّم الكلمات المطبوعة مرة أخرى، لكنه صبار يحصل عليها في يومها ومطوية على أصلها، ولم تعد مجادلاته عالية الصوت. (لقد رأيت العالم الآن) يقول.

« كان يعني «تكسيدو» بينما يقف القطار في «بنسلفانيا» و«أوهايو» و«إنديانا» و«ألينوا» .
(وكل أنواع البيض هناك، نوعان) يقول. (البعض يأسي عليك والبعض لا. وكلاً على نفس
المستوى. لا مكانة بينهما تحترم). وهو مجادل كما في السابق، لكنه أسعد بسبب ركوب
القطارات التي يأخذها ليرى الزوج تلعب البيسبول (بالجسم والخط، اللعنة على ذلك). يدغذه
أن البيض خائفون من منافسة الزوج بعدل وإنصاف.

«جدي أشد بطئاً الآن، وأمي مريضة، ولذا أقوم بمعظم الطبخ. تريد لي أمي أن أجد رجلاً
طيباً أتزوجه. أريد في الأول وظيفة طيبة. أوفر من مالي الخاص. مثلاً فعلت هي. مثل مسز
«تريس». ومثلما اعتادت مسز «منفريد» أن تفعل قبل أن تدع «دوركا» نفسها تموت.

«توقفتُ هناك لأرى مالو كان خاتمي عنده، لأن أمي ظلت تسألني عنه، ولأنني لم أجده
حين نَقَبْتُ عنه في منزل مسز «منفريد» بعد الجنازة. وكان عندي سبب آخر كذلك. قالت
مصطفة الشعر بأن العجوز تحطم تماماً. يبكي طول النهار وكل الليل. ترك وظيفته ولم يعد صالحاً
لشيء. افترضت بأنه يقتقد «دوركا»، ويفكر في كيفية أنه هو قاتلها. ولكن لا بد أنه لم يعرفها.
كيف كانت تحب أن تدفع الناس، الرجال. كلهم عدا «أكتون» ولا بد بأنها كانت ستدفعه أيضاً
لوعاشت مدة أطول أو ظلّ هو حولها مدة أطول. كان ذلك فحسب لفرط الاهتمام أو الإثارة.
لقد كنت هناك في الحفلة، وكنت الوحيدة التي كلمتها وهي فوق الفراش.

«فكرت في ذلك ثلاثة أشهر، وحين عرفت بأنه لا زال هكذا، البكاء والخ، اتخذت قراراً
لأحكي له. عما قد قالته لي. وفي طريقي عودتي من السوق، توقفت جنب محل «فيلتون» لكي
أحضر الاسطوانة التي طلبتها أمي. سرت جنب العمارة على طريق «لينوكس» حيث اعتادت
«دوركا» أن تقابله، وهناك على الشرفة كانت المرأة التي ينادونها «قيولنت» مما فعلته في جنازة
«دوركا».

«لم أذهب إلى الجنازة. لقد رأيته تموت كحمقاء، وكنت أجنّ لو أنني ذهبت إلى
جنازتها. لم أر المشهد أيضاً. كرهتها بعدها. أي امرئ لا بد يفعل ذلك. فهي صديقة ظهرت
على حقيقتها.

«كل ما أريده خاتمي، وأن أدلّ العجوز على أن يكفّ هياجه على هذا النحو. لم أكن
خائفة من زوجه لأن مسز «منفريد» كانت تدعوها للزيارة، وبدا أنهما على ما يرام. أعرف مسز
«منفريد» كم هي حازمة، قالت الناس كلها أنها لن تدعها أبداً تدخل منزلها ولن تتكلم عن
«دوركا» أبداً، فتصوّرت أن «قيولنت» طيبة للغاية حتى تدعها للزيارة، وكانت طيبة فعلاً حتى أنني
لم أخف منها.

«يمكن أن أتخيّل لماذا دعتها مسز «منفريد» للزيارة. مسز «تريس» لا تكذب. لا تقول أي
كذبة كما هي الحال مع معظم كبار السن. أول شيء قالته تقريباً عن «دوركا» أنها (كانت

قبيحة. في الظاهر والباطن).

«كانت «دوركا» صديقتي. لكنني عرفت أنها على حق بدرجة ما. كل تلك المقومات من الجمال والقبول لم تجدد نفعاً. كنت أظن بأن مسز «تريس» ما هي إلا غيورة. وهي ذاتها مظلمة جداً جداً، ما سحة أحذية، الفتيات بالمدرسة يقلن هذا. ولم أتوقع أن تكون جميلة، لكنها كانت. لن يرهقك أبداً أن تنظري إلى وجهها. هي ما تقول جدتي عنه نحيل القوام، وتعمل شعرها مفروداً وأملس، ينزلق إلى الوراء كشعر الرجال، وقد صار هذا الطراز هو البدعة الآن. كان منسدلاً بلطافة على أذنيها ومن عند الفم أيضاً. لا بد أن زوجها قد رَوَّق لها جزء الفم. من أيضاً؟ فهي لم تخط قدماً إلى صالون تجميل، أو هكذا قالت مصففتا الشعر. أتصور أن زوجها يخفف لها أسفل الرقبة. بالمحزات، وربما حتى بالموسى، ثم البودرة فيما بعد. كان من ذلك النوع، وقد تبينت ما كانت تتكلم عنه «دوركا» وهي تنزف على طول فراش تلك المرأة في الحفلة.

«كانت «دوركا» حمقاء، ولكنني حين قابلت العجوز صَنَفْتُ فهمي. كانت له طريقة بشأن نفسه. وكان وسيماً. أعني، بالنسبة لعجوز. لم يكن فيه شيء مترهل. رأس شكلها بديع، تحمل ذاته وكأنها لشخص آخر. مثل والذي بواب البرلمان الفخور بأنه قد رأى العالم، والبسبول، ولم يعد محبوباً بمحطة «تكسيدو». لكن عينيه لم تصبحا باردتين كعيني والذي. ينظر السيد «تريس» عليك. لديه عينان مزدوجتان. كل واحدة بلون مختلف. واحدة حزينة تجعلك تنظرين بداخله، وأخرى صافية لتتظري داخلك أنت. أحببت أن ينظر إليّ. أشعر، لا أعرف، بالشوق. ينظر إليّ وأحسّ بذلك عميقاً - كما لو أن الأشياء التي أحسها وأفكر فيها هامة ومختلفة و... شائقة.

«أظنه يحب النساء، ولم أعرف أي واحد عليّ شاكلته. لا أعني أنه يغارلهن، أعني أنه يحبهن دون فعله ذلك، و، وهذا ما لا بد أنه أزعج مصففتي الشعر، لكنني أظن بأنه يحب زوجته حقاً.

«بدايةً، حين ذهبتُ إلى هناك، كان جالساً جنب النافذة يُحدق أسفلها في الزقاق، ولا يقول أي شيء. فيما بعد، حين جلبت له مسز «تريس» طبقاً مليئاً بطعام عجائز: هراء من خضار مع أرز وخبز ذرة فوقه تماماً. قال (أشكرك، حبيبتي. خذي نصفه لنفسك). كان هناك شيء بخصوص الطريقة التي قالها بها. على رغم تقديره لذلك. حين يقول أبي شكراً، فهي مجرد كلمة. أما السيد «تريس» فيتصرف وكأنه يعني هذا. وعندما كان يترك الغرفة ويسير أمام زوجته، كان يلمسها. أحياناً على الرأس. وأحياناً مجرد تربيت على كتفها.

«لقد رأيته يتسم مرتين الآن، ويضحك عالياً مرة. حينها لا يعرف أحد ما عمره. حين يضحك فهو شبيه بولد صغير. ولكنني كنت قد زرتهم ثلاث أو أربع مرات قبل أن أراه في مرة يتسم. كان هذا حين قلت بأن الحيوانات في حديقة الحيوان لا بد أنها أسعد مما لو تركها طليقة لأنها في مأمن هناك من الصيادين. لم يعلق؛ ابتسم فقط وكأن ما قلته كان جديداً أو مضحكاً

حقاً.

« كان ذلك سبب ما جعلني أعود. أول مرة لأرى ما لو كان خاتمي عنده، أو يعرف بمكانه، ولكي أخبره بأن يكفّ عن مواصلة هياجه بخصوص «دوركا» فربما كانت لاستحقّ هذا منه. المرة التالية، حين دعيتي مسر «تريس» على العشاء، كان من الأفضل أن أشاهده كما هو، وأنصت لمسز «تريس» تتكلّم على الطريقة التي تألفها. والطريقة التي تجلب إليها المتاعب دوماً. (لقد أفسدت حياتي) أخبرتني هي. (قبل أن آتي شمالاً، كان يفعمني الحس بالعالم وكذا العالم كان. لم نجن أي شيء كما أننا لم نخسره). من سمع بذلك مرة؟ إن الحياة في المدينة كانت أفضل شيء في الدنيا. ما الذي يمكن أن يحرمه منك الريف؟ عندما زرت «تكسيدو»، زمان حين كنت صغيرة، كنت متبرمة آنذاك. كم عدد الأشجار التي يمكنك أن تنظري إليها؟ ذلك ما قلته لها. (كم عدد الأشجار التي يمكنك أن تنظري إليها؟ ولتي؟ وماذا بعد؟)

« قالت بأن الأمر ليس كذلك، متطلّعة إلى باقة من شجر. قالت لي أن أذهب إلى الشارع ١٤٣، وأنظر إلى شيء كبير في الركن، وأرى إن كان رجلاً أو امرأة أو غلاماً.

« ضحكت، ولكن قبل أنفق مع مصفّفتي الشعر بأنها مجنونة، قالت لي (ما الذي يعنيه لك العالم لو لم تخلقيه على الطريقة التي تريدينه بها؟)
« (الطريقة التي أريده بها؟)

« (بـه. الطريقة التي تريدينه بها. ألا تريدينه أفضل مما هو عليه؟)

« (ما المسألة؟ فأنا لا أستطيع تغييره.)

« (تلك هي المسألة. لو لم تغيّره، فسيغيرك أنت، ويكون خطوك أنك أرخيت له الزمام. أنا بنفسني أرخيت له الزمام. وأفسدت حياتي.)
« (أفسدتها كيف؟)

« (أنسي ذلك.)

« (أنسي؟)

« (أنسي أن كانت لي حياة. فقط كنت أعدو في الشوارع جيئة وذهاباً أودّ لو كنت شخصاً آخر).

« (من؟ تريدين أن تكوني من؟)

« (ليس من بقدر ما هي ماذا. بيضاء. لامعة. شابة مرة أخرى.)

« (والآن لا تقدرين؟)

« (الآن أودّ لو أكون المرأة التي لم تمكث أُمّي طويلاً حتى تراها. تلك المرأة. المرأة التي لا بد أنها أحبّتها، والتي اعتدت حبّها أنا أيضاً من قبل... لقد غدّتي جدتي بحكايا عن طفل

أشقر صغير. كان ولدًا، ولكنني كنتُ أفكر فيه كبنْتٍ أحيانًا، وكأخٍ، ورفيقٍ أحيانًا أخرى. كان يحيا بداخل روحي. هادئًا كبغلٍ. لكنني لم أعرفه حتى وصلت هنا. كلانا الاثنين. فهل عليّ أن أتخلّص منه.)

«كانت تتكلّم على هذه الشاكلة. لكنني كنتُ أفهمُ ما تقصده. عن تملكها آخر بداخلها وهي ليست مثله. اعتدنا، أنا و «دوركا»، على تمثّل مشاهد غرام ونصفها لبعضنا البعض. كان ذلك مرحاً وفاحشاً قليلاً. شيء ما بشأن هذا ضابقتني، رغمًا. ليس هراء الغرام، بل صورة نفسي وهي تفعل مثل ذلك. لا شبيه لي. شفت نفسي كشخص كنتُ رأيته في عرض سينما أو مجلة. بعدها يتمّ به الفعل. لو تخيلت نفسي على ما هي عليه تختلط الصورة. (كيف تخلّصت من ذلك؟)

«قتلتها. ثم قتلتُ الأنا التي قتلت هي.)

«ومن تبقى؟)

«أنا.)

«لم أقل أي شيء. بدأتُ ثانيةً أظنّ بأن مصفّفة الشعر ربما كانت على حقٍ، بسبب الطريقة التي بدت عليها وهي تقول (أنا). وكأنها أول ما لفظته من الكلام. «عاد السيد» تريس» عندئذ، قال بأنه ذاهب للجلوس بالخارج فترة. قالت له (لا، يا «جو»). ابق معنا. فهي لن تعضّك).

«كانت تقصدي، وتقصد شيئاً آخر لم أحبه. أوماً وجلس جوار النافذة يقول (لفترة وجيزة).

«كانت مسز «تريس» تنظر عليه، ولكنني عرفتُ بأنها كانت تكلمني حين سمعتها تقول (صاحبك القبيحة، تلك الصغيرة، قد آذته، وأنتِ تذكّرينه بها). وجدتُ بالكاد لساني. (أنا لستُ بمثلها!).

«لم أقصدُ أن أقول هذا بصوت عالٍ. فتحوّل كل منهما للنظر إليّ. قلتُ ذلك دون أن أكون قد خطّطت له. أخبرتهما به حتّى قبل أن أطلب الخاتم. (لقد تركتُ «دوركا» نفسها لتموت. فالرصاصة خرقت كنفها، من هنا). أشرت.

«لم تدع أيّ امرئٍ يحركها؛ قالت بأنها تريدُ أن تنام وستكون على ما يرام. وقالت بأنها ستروح للمستشفى صبحاً. (لاتدعيهم يستدعون أحداً) قالت. (لا إسعاف، ولا شرطة، ولا أي أحد). ظننت أنها لا تريد خالتها، مسز «منفريد»، أن تعرف. أين تكون ولا أي شيء. والمرأة التي أقامت الحفلة قالت ما شيء، لأنها كانت خائفة من استدعاء الشرطة. كلهم يكانوا خائفين. وقف الخلق حولها يتكلّمون فقط وينتظرون. أراد بعضهم أن يحملوها إلى الدور السفلي، لوضعها في

سيارة وإلى عنبر الاستقبال. رفضت «دوركا». قالت أنها تمام خالص. من فضلكم اتركوني لوحدي وخلوني أستريح. لكنني فعلتها. أقصد، استدعيت الإسعاف؛ ولكنها لم تهل قبل الصباح، بعد أن استدعيتها مرتين. ثلج الطريق، قالوا، بل الحقيقة في أن الاستدعاء جاء من ملوتين. نرفت كلها حتى الموت خلال ملاءات فراش تلكم المرأة والموضوعة فوق المرتبة، ويمكنني أن أقول بأن ذلك لم يعجب المرأة ولو قليلا. فقد كان كل ما تكلمت عنه. هي ورفيقي «دوركا». الدم. باللفظي التي أحدثتها. هذا كل ما كانوا يتكلمون به. «كان عليّ أن أكف عندئذ لأنني كنت لاهثة الأنفاس وأبكي. «كرهت البكاء من كل أعماق نفسي على ذلك. «لم يجعلاني أكف أيضاً. سلمني السيد «تريس» منديل جييه، وقد كان منقوعاً وقت أن نفخت بأنفي فيه.

«(أهذه هي المرة الأولى؟) سألتني. (المرة الأولى التي بكيتها فيها؟) «لم أكن أفكرت في ذلك، لكنه كان صحيحاً. «قالت مسز «تريس» (أوه، خراء)

«بعدها كان كلاهما ينظر لي فقط. لم أكن أظن بأنهما سيقولان كلمة أخرى حتى قالت مسز «تريس» (تعالى على العشاء، لماذا لا تأتين. الجمعة مساءً. هل تحبين سمك السلور؟) «أجبت بالتأكيد، لكنني لم أكن عازمة على المجيء. الجحيم مع الخاتم. ولكنني في الخميس السابق، كنت أفكر في الطريقة التي ينظر بها السيد «تريس» إليّ، وطريقة زوجته في قول (أنا).

«الطريقة التي قالتها بها. ليست مثل (أنا) شخص جليّف، أو كالتّي يُقدّم بها شخص عريضاً. لكنها مثل، مثل شخص قدّم له خدمة ويمكن أن تعول عليه. شخص باطني ليس من الضروري أن تحسّ بالأسى عليه أو تقاتل من أجله. شخص ليس من الضروري أن يسرق خاتماً من البيض وبعدها يكذب ويقول بأنه كان هديةً منهم. كنت أريد استرجاع الخاتم، ليس فقط لأن أمي تسألني دوماً إن كنت وجدته بعد. فهو جميل. ورغم أنه يخصني، فهو ليس لي. أحبه، ولكن كانت به خديعة، ويجب أن أتفق مع هذه الخديعة فأقول بأنه لي. يذكّرني بالصغير الأشقر المخادع الذي يحيا بداخل رأس مسز «تريس». هدية مأخوذة من قوم بيض، موهوبة لي من وقت أن كنت صغيرة، حتى تعذّر معي أن أقول لا شكراً.

«لقد دفن معها. ذلك ما كشفته حين رجعت لعشاء سمك السلور. كانت مسز «تريس» قد رآته في يد «دوركا» حين حاولت طعنها في الكفن.

«جاءني شعور بالمرح في معدتي، وحلقتي جفّ حتى صعبَ عليه أن ينتفخ، ولكن كان يجب أن أسألها نفس السؤال - لماذا أتلقت الجنازة على ذلك النحو. نظر السيد «تريس» إليها. كما لو أنه هو سائل السؤال.

«كنتُ فقدتُ المرأة» قالت. «أنزلتها في مكانٍ ما ونسيتُ أين» .
 «وكيف وجدتها؟»
 «كنتُ أنظر» .
 «جلسنا هناك لفترة، ولا أحد يقول أي شيء. عندها نهضت مسرعة «تريس» لترد على طرقة الباب. سمعت أصواتاً. (فقط من هنا ومن هنا. لن يأخذ منك سوى دقيقتين).
 «أنا لا أعلم عمل دقيقتين» .
 «رجاءً، «فيولت»، فأنا لا أطلبك إلا حين يكون ضرورياً تماماً، تعرفين ذلك» .
 «جاءنا إلى غرفة الطعام، مسرعة «تريس» وامرأة تدافع عن خصلاتها القليلة (فقط هنا وهنا. ممكن أن تغلفي لأعلى هنا، لا معقوصاً، بل ملفوفاً، تعرفين ما أقصد؟)
 «(يمكنكما الذهاب للغرفة، فلن أمكث طويلاً). قالت للسيد «تريس» ولي، بعد أن قلنا (يسعد مساءك) للزبونة المتعجلة، ولكن لم يقدم أحدنا نفسه للآخر» .
 «لم يجلس السيد «تريس» إلى النافذة هذه المرة. جلس جنبي على الكنب» .
 «فيليس. وجودك يسعدني. وأنت؟»
 «طبعاً. ولم لا» .
 «(لم تكن «دوركا» قبيحة. لا باطناً أو ظاهراً).
 «استهجنك. (كانت تستخدم الناس لصالحها).
 «(فقط لو أرادوا منها ذلك» .
 «(وهل أردت منها أن تستخدمك؟)
 «(لا بد» .
 «(حسناً، أنا لم أفعل. حمداً للرب أنه ليس بمقدورها بعد» .
 «تمنيت لو لم أكن خلعتُ جاكيتي. كان فستاني ممطوطاً من عند قمتيه غير عابىء بما أفعله. نظر على وجهي، لاجسمي، فلم أدر لماذا أتوتر من كوني بمفردي في الغرفة معه» .
 «عندها قال (لقد أجنتك موتها. وأنا أيضاً» .
 «(أنت سبب كونها هكذا» .
 «(أعرف. أعرف» .
 «(حتى لو أنك لم تقتلها على الإجمال، حتى لو أنها تركت نفسها لتموت، فأنت المثلوم» .
 «(كنتُ أنا، ولباقي عمري، سأكون أنا. هل أخبرك بشيء. لم أر أبداً مخلوقاً أشد احتياجاً لي منها في حياتي» .
 «(«دوركا»؟ تقصد أنك لا تزال متعلقاً بها؟)
 «(متعلق؟ نعم، لو تقصدين أنني أحب ما كنتُ أشعر به نحوها. أخمن عندئذ أنني لازلتُ

متعلقاً بها).

«وماذا عن مسز «تريس» ؟ ماذا عنها؟»

«نعمل باستمرار. وسنسرع الآن، منذ أن وقفت معنا وأخبرتنا ما فعلته».

«كانت «دوركا» باردة» قلت. (طوال عمرها وحتى النهاية كانت عصبية الدمع. لم أرها أبداً تظلل أي دمعة من شأن أيها شيء).

«قال (أنا فعلت. تعرفين جانبها القاسي ؛ رأيت منها الضعيف. حظي كان أن ملتُ لذلك).

«(دوركا؟ ضعيفة؟»

«(دوركا». ضعيفة. هي الفتاة التي عرفتُها. أن كان لديها موازين لم يكن يعني أنها لا تخجل. لم يعرفها أحد هكذا عداي. فلا أحد جرّب أن يحبها قبلي أنا).

«(لو كنتُ تحبها، فلماذا كان ضرورياً أن تطلق عليها النار؟»

«(كنتُ أخاف. ألا تعرفين كيف الحبّ مع أي واحد).

«(هل تعرفه أنت الآن؟»

«(لا. هل تعرفينه أنت، يا فيليس؟»

«(لدي أشياء أخرى أشغل بها وقتي).

«(لم يسخر مني فقلت (إني لم أخبرك بكل شيء).

«(أهناك المزيد؟»

«(لا بد من المفترض. كان آخر شيء قالت. قبل أن... راحت في النوم. كل امرئ كان يصرخ (من أطلق عليك النار، من فعلها؟)، قالت (اتركوني لوحدي. سأخبركم غداً). لا بد أنها ظنت ستبراً غداً، وقد جعلتني أظن ذلك أيضاً. بعدها نادى باسمي رغم أنني كنت أركع جنبها تماماً. (فيليس. فيليس. اقتربي، اقرب). وضعت وجهي مباشرة هناك. أمكنني أن أشم خمرة الكوكيتيل في أنفاسها. كانت تعرق، وتهمس لنفسها. لم تتمكن من فتح عينيها. وفجأة فتحتهما على اتساع وقالت، بعلو صوت حقيقي: (هناك فقط تفاحة واحدة). نطقت ما يشبه الـ(تفاحة). (واحدة فقط: قلولي لـ«جو»).

«(أرأيت؟ كنت آخر شيء على بالها. أنا كنتُ هناك، هناك فعلاً. كنتُ أظن بأنني أعزّ صواحبها، ولكن معزّتي لم تكن كافية عندها حتى تجعلني آخذها إلى عنبر الاستقبال وتبقى حيّة. تركت نفسها لثموت مباشرة، تحت يدي، بخاتمي وكل شيء، ولم أكن حتى على بالها. هكذا. هذا ما كان. وكما أخبرتك).

«تلك كانت المرة الثانية التي رأيته يتسم فيها، ولكنها كانت بسمة حزينة أكثر منها بهيجة. قال (فيليس). وظل يقولها. (فيليس. فيليس). بمقطعين لا بمقطع واحد كما يفعل معظم الناس، وضمنهم أبي.

«مرّت المرأة المعقوصة الشّر أمامهما في طريقها للخروج من الباب، مزققة، تقول، شكراً

جزيلاً أراك يا «جو» آسفة لإزعاجك باي حبيبي لم أذكر اسمك بسوء لديك المباركة «ثيولت» المباركة حقاً باي.

«قلت بأنه يجب أن أذهب أيضاً. غطست مسز «تريس» في كرسيّ برأسها مرمية للخلف ويدرّاعيهما محومتين. (إن الناس هم الوضاعة) قالت (محض وضاعة). قال السيد «تريس» (لا. فهم كوميديون بما هم عليه). ضحك قليلاً عند ذاك، ليثبت نظريته، وكذلك فعلت هي. وضحكت أنا أيضاً، لكن ضحكتي لم تكن على الوجه الصحيح، لأنني لم أكن أظن هذه المرأة بكل هذه المرح.

«وضع شخصٌ في المنزل أو عبر الزقاق اسطوانة، طفت الموسيقى من خلال النافذة المفتوحة داخلنا. حرك السيد «تريس» رأسه على الإيقاع وكانت زوجته تعضّ أصابعها في ذات الوقت. قامت بخطوة صغيرة للرقص أمامه وهو ابتسم. خطوة بخطوة كانا يرقصان. بمرح، كما يفعل العجائز، وضحكت أنا بحق. ليس بسبب ما بدا عليهما من مرح. كان شيء ما في ذلك يجعلني أشعر بأنني لا يجب أن أظل هناك. لا ينبغي أن أنظر عليهما وهما يفعلان هذا.

«قال السيد «تريس» (تعال، يا فيليس. دعينا نرى ما الذي يمكنك أن تفعليه). ومدّ يده.

«قالت مسز «تريس» (بيه. تعالي. بالعجل، فهي توشك على النهاية).

«هزّزت برأسي، ولكنني كنت أريد.

«عندما انتهيا، طلبتُ چاكتتي، قالت مسز «تريس» (عودي في أي وقت. فأنا أود أن أعمل لك شعرك على أي حال. مجاناً. نهايات شعرك تحتاج للجز).

«جلس السيد «تريس» وتمدّد. (هذا المكان يحتاج لطيبور).

«(وحاكي «فكترولا»).

«(أمسكي عليك لسانك، يافاة).

«(لو أتيتم بالحاكي، سأتي ببعض اسطوانات. حين أجيء لقصّ شعري).

«(سامع، يا «جو»؟ ستأتي ببعض اسطوانات).

«(إذن من الأفضل أن أجد وظيفةً أخرى) دار جزئياً، وتلامس مع مرفقي بينما كنت أمشي إلى الباب. (فيليس. اسمك على مسمي*) . تذكرني هذا)

(*) فيليس: تعني هواء. (المترجم)

«سأحكي لأمي الحقيقة. أعرف أنها تفتخر بسرقة خاتم الأوبال ؛ بجرأتها على فعل شيء كهذا. كان الرجل الأبيض يظن بأنها تسرق في حين أنها كانت أتمت الفعلة. أُمي شريفة جداً حتى أن الناس تضحك منها لذلك. فقد ردت زواجاً من القفازات للمتجر حين أعطوها زوجين بديلاً عن واحد كانت دفعت حقّه ؛ وكانت تعطي للمحصلين ما يجده على المقعد في التروولي من أرباع الدولار. وكأنها لا تعيش في مدينة كبيرة. حين تفعل هراء كهذا، يضع أبي جبهته على يده، وينظر عليها ناس المتجر والمحصلون كأنها مختلة العقل بالتأكيد. ولذا أعرف بأن أخذها الخاتم كان يعني لديها الكثير. كم تفتخر بأنها حطمت قوانينها ولو مرة. لكنني سأقول لها بأنني أعرف، أنها هي التي فعلت ذلك، رغم أن الخاتم كنت أحبه حقاً.

«أنا سعيدة أن «دوركا» أخذته. كان يلائم إيسورتها ويلبم المنزل الذي به الحفلة. فقد كانت الحوائط بيضاء مع ستائر من فضة وفيروز على النوافذ. وكان قماش الأثاث من الفيروز أيضاً، كما كانت السجاجيد المترامية التي تلقىها المضيفة وتخزنها في حجرة النوم الإضافية، بيضاء. فقط حجرة مائدتها كانت معتمة، وغير مرتبة كالجزء الأمامي. ربما لم تكن تتجنب ألوانها المفضلة على هذا النحو، فقد تركت وعاءاً من برتقال رأس السنة ليكون الزينة الوحيدة. وكانت حجرة نومها الخاصة بيضاء ومذهبة، لكن الحجرة التي وضعت بها «دوركا» كانت للنوم إضافية وتبعد عن حجرة المائدة المعتمة، وبدون لون.

«لم يكن لدي رفيق للحفلة. فذهبتُ مع كل من «دوركا» و«أكتون». كانت «دوركا» تبغي عذراً وقد كنته. كنا استعدنا صداقتنا للتو، بعد أن كُفّت عن رؤية السيد «تريس» في حين كانت تدور مع «صيدها». والذي أرادته فتيات كثيرات أكبر منا ولنله أيضاً. كانت «دوركا» تحب ذلك الدور - تجعل الآخرين غيورات ؛ فقد اختارها من بينهن ؛ وهذا يعني أنها انتصرت. ذلك ما قالت به. انتصرت! يا إلهي. لقد ظننت أنها في معركة.

«ماذا بحق الجحيم يعني أنها انتصرت ؟ كان يسومها العذاب ولم تكن تدري. كانت تقضي وقتها تتخيل كيف تحافظ عليه مهماً بها. تتأمر بما يمكن أن تفعله مع أي فتاة تحاول أن تسعى إليه. تلك هي الطريقة التي تفكر بها كل البنات: كيف تصل، ثم تعلق، ولذا، ومعظمهن لهن صاحبات يردنهن أن تناله، وعدوات لا يردن هذا. أظن أنها طريقة تفكيرك في ذلك. لكن ماذا لولم أرغب ؟

«الدنيا دفيئة هذه الليلة. ربما لن يهّل الربيع ونزلق إلى الصيف مباشرة. أُمي تحب ذلك - فهي لا تستطيع تحمّل البرد. وأبي سيكون سعيداً أيضاً، حيث كان يطارِد الأماكِرِ باحثاً عن لاعبي البيسبول الملونين (بالجسم والحظ) متذمراً، كان يقفز لأعلى وأسفل حين يعدّ اللعاب لأصحابه. لا أزهار على الشجر بعد، لكن الدنيا دفيئة بدرجة معقولة. لسوف تبرعم الأزهار قريباً. تلك العالية هناك تتوجع من أجل هذا. ليست الشجرة لرجل ؛ أظن بأنها لطفل. حسناً، قد

تكون لامرأة، على ما أفترض.

«كان سمك السلور لديها طيباً للغاية. ليس طيباً كما اعتادت جدتي أن تفعله، أو كما اعتادت أمي قبل أن يلقى صدرها. فلفل حارّ كثير جداً في الدقيق المرشوش الذي ألصقت به مسز «تريس» السمك. شربت كثيراً من الماء كي لا أؤذي مشاعرها. ذلك خفّف الألم».



ألم. يبدو أنني التقطت عدوى، نوع من حبّ الحلويات سبّب ذلك. سهام من البرق، جداول رفيعة من الرعد. وأنا عین العاصفة. الحداد الذي يشطر الشجر، دجاجات يمتن جوعاً في أعالي السطوح. أتصوّر ما الذي يمكن فعله لإنقاذها لأنها لا تقدر على إنقاذ أنفسها بدوني. لأنه - حسناً، إنها عاصفتي، أليس كذلك؟ أجطم الحيات لأثبت أنه بإمكانني جبرها ثانية. ورغم أن الألم لهم، فإنني أشاركهم فيه، ألسن كذلك؟ طبعاً. طبعاً. فلن أحصل عليه بأي طريقة أخرى. لكن هذا شأن آخر. لست مرتاحة الآن. أشعر بالزيف قليلاً. ماذا؟ إنني أتساءل، ما الذي يجب أن أكونه بغير بقع الدماء اللامعة القليلة حتى أتأمل؟ بدون تمثّل الكلمات التي تضع العلامة، ثم تفقدها؟

ينبغي أن أغادر هذا المكان. أجنّب النافذة؛ أترك الثقب الذي اخترعته خلال الباب للدخول في حيوات بديلاً عن معاشة حياتي الخاصة. كان ذلك هو عشق المدينة التي أذهلتني وأوهبتني أفكاراً. جعلتني أظن بأن في إمكاني الحديث بصوتها العالي وأن أجعل ذلك الصوت صوتاً بشرياً. افتقدت الناس كلهم.

ظننت بأنني عرفتهم ولم أقلق بخصوص أنهم لا يعرفونني حقاً. ويتضح الآن لماذا ينكرونني عند كل منحني: لقد عرفوني كلهم. من خارج زوايا عيونهم راقبوني. وعندما كنت أشعر بأنني غير مرئية تماماً، بشفتين مزومتين، صامتة ولا أراقب، كانوا يتهايمسون بشأني لبعضهم البعض. عرفوا القدر القليل الذي يمكنهم أن يعولوه علي؛ وكم أحسّ باليأس والهشاشة من أن نفسي التي أعرفها قد تغطّت بالعجز. وذلك حين اخترعت الحكايا عنهم - وجعلتها تبدو ملائمة تماماً - كأنني كنت في أيديهم، وساسوني دون رحمة. ظننت بأنني قد أخفيت نفسي كليّة حين راقبتهم من خلال النوافذ والأبواب، انتهزت كل فرصة سنحت لي لكي أتتبعهم، أنمنم عنهم وأملاً حيواتهم، وذلك بطول الفترة التي كانوا يراقبونني فيها. تأسّوا علي أحياناً وفكروا فحسب في شفقتهم التي أودّ لها الفناء.

افتقدت هذا كله. إنني متأكدة من إمكان أن يهتل أحدهم الآخر. ترقيبت ذلك حتى يمكن لي وصفه. كنت موقنة من أنه سوف يحدث. إن الماضي كان اسطوانة خربة بدون خيار إلا لتكرار نفسه في الأخاديد وما من قوة يمكنها أن ترفع الذراع الذي أمسك الإبرة. كنت أوقن

بذلك، فقد رقصوا وساوروا من خلالي. كانوا مشغولين، مشغولين بكونهم أصلاء، ومعتدين، وهوائيين - فهم بشر، أحسن ما تقوله، في حين أنني قابلة للنبوء، أتحير في عزلي نحو غطرسة، أعتبر كونها مساحتي، وأرى أنها الوحيدة التي كانت أو حدثت. صبرت أنفعل للغاية أثناء تطفلي، أثناء تشكّل إصبعي، ولذا احتلت وفاتني الوضوح. كنت أقرب الشوارع، مهززة تخترقني المباني الضاغطة والمضغوطة بالحجر؛ يسعدني تماماً أنني أطلّ على الأشياء خارجها وداخلها والتي رفضت أن تداوم حياتها في جيوب قلبي الحميمة.

رأيت ثلاثتهم «فيليس وجو وفيولت»، بدوا لي كأنهم انعكاس مرآة لـ «دوركا وجو وفيولت». ظننت بأنني رأيت كل شيء مهم فعلوه، واعتمدت على ما رأيت وعلى ما أتصور أنني لم أره: كم كانوا دخلاء ومنساقين. كأنهم أطفال أشقياء. ذلك ما أردت أن أعقده. لم يخطر ببالني أبداً أنهم فكروا أفكاراً أخرى، أو شعروا بمشاعر أخرى، أو وضعوا حيواتهم سوياً في طرقٍ لم أحلم بها أبداً. مثل «جو» حتى هذه اللحظة فأنا لست متأكدة حقاً بشأن دموعه من أجل ماذا، لكنني أعلم في يقين بأنها كانت لما يزيد عن «دوركا». في كل الفترة التي كان يجري فيها عبر الشوارع في طقس رديء، كنت أظنّ بأنه يفتش عنها، لا عن تجويف «وايلد» الذهبي. ذلك البيت في الجبل؛ ذلك المكان الذي يدخله نور الشمس معظم النهار. فهو لا شيء حتى يتمّ التباهي به، لنظيره لأي امرئ أو نريد أن نكون فيه. لكنني سأفعل. أريد أن أكون في مكان جاهزٍ ومعدّ لي، أنيق ومفتوح على اتساع معاً. بمدخلي لا يحتاج بتاتاً لإغلاق، برؤية تنحدر للنور، وبأوراق خريف لامعة ولكن دون مطر. أين يمكن لنور القمر بأن يعولّ عليه لو لم تكن السماء صافيةً والنجوم على سجايها. وتحتها، هنالك نهر فحسب، يدعى «تريسون»، كي تعتمد عليه.

أحبّ أن أغلق على نفسي في الهدوء الذي تركته المرأة التي عاشت هناك وقد أخافت الجميع. كانت غير مرئية لأنها تعرف ذلك أفضل من أن تكون مرئية. بعد ذلك، من سيراه، المرأة اللعوب التي كانت تعيش بجوف صخرة؟ من يمكنه ذلك، دون رعب؟ هل من عينيها الناظرتين وهي تكرر النظر؟ لن أبالي. ماذا يتوجب عليّ إذن؟ لقد رأيتني ولم تكن خائفة مني. تشبّث بي. فهمتني. أوهبتني يدها. جسّتي. فتحرّرت سراً.

الآن أعرف.



تنقّلت «أليس منفريد» بعيداً عن الشارع المصفوف بالشجر عائدة إلى سبرنجفيلد. كانت امرأة تهوى الفساتين الملونة اللامعة ومحتمل بأن نثديها كانا بطريّان أكياس النقود الجلدية الآن، وربما هي تحتاج للقليل: ستائر، معطف ببطانة جيدة تتحمّل فيه الشتاء. رفقة شخص مبهجة

بإمكانها أن تمتد بحاجات الليل.

لاتزال «فيليس» تشتري اسطوانات «أوكيه» من محلات فيلتون، وتمشي ببطء عائدة من محل الجزارة فيفسد اللحم قبل ارتطامه بالوعاء. تفكر على تلك الطريقة، ويمكنها خداعي مرة أخرى - حركة الناس ببطء جنبها يبدو أنها ركض. أيمن أن تجعلني حمقاء: ربما تكون سرعتها بطيئة لكن درجة نشاطها تنبئ بعام جديد. لورفت يديها لتحية رفاقها أو فتحتهما لمصافحة، فإنها في الأمرين ليست هزواً أو لعبة لأي واحد.

وجد «جو» عملاً في «باي درت»، وظيفة ليلية بحانة غير مرخصة تجعله يرى سماء المدينة غير المعقولة بينما كان يلم بـ «فيولت» في نور النهار بعد الظهيرة. في طريق عودته للبيت، بعد الشروق بالضبط، سينزل سلالم «إلفايد»، ولو كانت عربة الحليب تركن عند المنحنى، فلربما يشتري جالوناً من تموين اليوم الجديد يربط به خبز القمح في عشاء المساء. عند وصوله عمارة السكنى، يلتقط قطع نفاية الليل التي ألقتها قاطنو الشرفات، فيسقطها في وعاء الزبالا، ويجمع لعب الأطفال ليضعها في بئر السلم. ولو وجد دمية تعرف عليها من بين اللعب، فهو يتركها تقف بارتياح إلى الكومة. يصعد السلالم وقبل أن يصل إلى بابها يمكنه أن يشم لحم فخذة الخنزير الذي لا تتركه «فيولت» ليجمر في دهنه حتى تتبل الفتة التي كانت انتفخت في الوعاء. ينادي عليها بصوت عالٍ حين يغلق خلفه الباب وهي ترد النداء: «في؟»، «جو؟» كما لو أنه شخص آخر، كما لو أنه جار جريء أو شبح صغير بجلدٍ وسخ هناك بدلاً عنه. بعدها يتناولان الإفطار، وعلى الأغلب أكثر مما سبق، يروحان في النوم. بسبب عمل «جو» - و«فيولت» أيضاً - وأشياء أخرى كذلك، كفأ عن نومة الليل - أبداً مضية الوقت تلك بغفلات نوم قصار حين يصبر البدن، ولم يدهشهما شعورهما بأن هذا أطيب. وكانا يمضيان باقي النهار على كيفما يريدان. بعد حلاقة شعر واحدة، على المثال، يقابلها في الصيدلية المتجر لتتناول هي شعير الثاينيليا وهو خمر الكريز.

كانا يسيران في الشارع ١٢٥ وعبر الطريق السابع وعندما يتعبان، يجلسان ويستريحان بأي رواق يريدانه ويتكلمان عن الطقس وسوء السلوك عند الشباب وذلك مع المرأة المحنية على عتبة نافذة الدور الأول. أو ربما يسيران الهوينى إلى «كورنر» لينضمّا إلى الحشد الذي ينصت للرجال ذوي عيون البصيرة. (كانا يحبان هؤلاء الرجال، رغم أن «فيولت» كانت تضطرب من دق أحدهم على صندوقه الخشبي أو الكرسي المكسور الذي يقف عليه، أو تضطرب من ذلك الذي وسط الحشد ويفوه بكلمة تؤذي مشاعر الرجل. كان «جو» هو عاشق عيون البصيرة، وهو حمل دائماً، ويقاطع مستحسناً في لحظات مناسبة بكلمات تشجيعية).

حدث ذات مرة أن أخذنا قطاراً على طول الطريق إلى الشارع ٤٢ ليستمتعا بما دعاه «جو» درج الأسود. أو كانا يتسكعان بالشارع ٧٢ ليروا رجالاً يحفرون حفائر في الأرض من أجل مبنى جديد. كانت الحفائر العميقة ترعب «فيولت»، بينما تفتن «جو». ويظن كلاهما بأنها عار.

كانا يقضيان كثيراً من الوقت، رغم ذلك، في البيت يكتشفان أشياء، ويحكيان لبعضهما البعض تلك الحكايا الشخصية القليلة والتي يجبان سماعها مرة تلو مرة، أو يتشاجران مع الطائر الذي اشتريته «فيولت». لقد اشتريته رخيصاً لأنه لم يكن على مايرام. كان يتمكن بمشقة من النقر. يشرب الماء لكنه لا يستطيع أن يطعم. لم تجد نفعاً كذلك خلطة الطائر المخصوصة التي كانت تعدّها له «فيولت». كان ينظر فقط على وجهها ولا يدير رأسه حين تسقى له وتخرش من خلال قضبان القفص الصغير. لكنني، وكما قلت فيما تلى من زمن، فإن «فيولت» لم تكن إلا مثابرة. لقد خمنت أن الطائر ليس مستوحداً لأنه كان حزيناً بالفعل حين اشتريته من بين حشد آخرين منه. ولذا فإن الطعام أو الصحبة أو مأواه الخاص لم تكن بمهمة لديه، فقررت «فيولت»، ووافقها «جو»، بأنه لاشيء باقٍ مع الحب أو الاحتياج غير الموسيقى. فأخذنا القفص إلى السطح أحد أيام السبت، حيث كانت ترجع الريح ما يفعله العازفون بقمصانهم المنفوخة من خلفهم. ومن حينها استجلب الطائر اللذة لنفسه ولهما أيضاً.

ولأن «جو» كان ينبغي أن يكون بعمله عند منتصف الليل، فقد كانا يتناغيان بعد وقت العشاء. لو لم يلعب الورق مع «جستان» و«ستوك» وزوجة «ستوك» الجديدة «فاي»، أو يراعيان أطفال أحد ما، أو يسمحان لـ «ملقون» بالدخول للقبيل والقال، حيث كانت لا تشعر بالأسى حين تتظاهر بالوفاء وتخدعهما كليهما؛ فهما يلعبان البوكر اثناهما فقط حتى يأتي وقت الذهاب للنوم تحت لحاف خططا لتمزيقه إلى قصاصاته الأصلية لكي يشتريا بطانية صوف لطيفة لها حاشية من الساتان. ربما يرغبانها باللون الأزرق الفاتح، رغم أنه سيكون سيئاً بالقياس مع السناج الهائم وكل شيء، لكن «جو» كان يميل قليلاً إلى الأزرق. كانت رغبته أن ينزل تحت اللحاف ويتعلق بها. يأخذونها ويضعها على صدره، وعليه معدته. كان يريد أن يتخيل، بينما هو راقدها في الظلام، كل الأشكال التي يكونها هذا الهراء الأزرق لأجسادهما. لم تكن «فيولت» تهتم على أي لون تكون، فقط تكون طويلة تصل إلى ما تحت أذقانهما دونما أي استفسار عدا أن يربط الساتان حرارتهمما للأبد.

راقداً جنبها، كان يدير رأسه ناحية النافذة، يرى العتمة من خلال الزجاج وهي تأخذ شكل كتفٍ بخيطٍ رفيع من الدم. وبطيئاً، وبطيئاً، كان الكتف يصوغ نفسه إلى طائر بشرفة حمراء على الجناح. بهذه الأثناء تكون «فيولت» قد أراحت يدها على صدره كما لو كان حافة بئر مشمسة منيرة وبأسفله هناك واحد ما يجمع هدايا (أقلام رصاص، ثور الدورام قصير القرون، صابون جاب روز) ليوزعها كلاً عليهما.

وذات مساءً، بالعودة إلى ١٩٠٦، قبل ذهاب «جو» و«فيولت» إلى المدينة، حين تركت «فيولت» المحراث وسارت إلى منزلها القسري الصغير، كان حرّ النهار لازال صاعقاً. كانت ترتدي مئزرًا بكمّين وقميصاً باهتاً دون أكمام، نزعتهما ببطء مع قميص النوم من رأسها. وعلى المائدة بقرب موقد المطبخ كان وعاء صقيل - مزين بالأزرق والأبيض ومقشور من دوران حافته كلها. وتحت حامل المناشف، كان حوض مليء بماء راكد لطرد الحشرات، موضوعاً هناك. بينما راحتها لأعلى، وأصابها هادية، كانت «فيولت» تزلق يديها إلى الماء وتشطف وجهها. غرفت منه مرات عديدة وحتى رششت، فاختلط الماء برشح العرق، وترطب خذاها وجبهتها. ثم، غطّست المنشفة في الماء، وتحمّمت في عناية. من عتبة النافذة تناولت قميص نوم أبيض، كانت قد غسلته ذلك الصباح، فأسقطته على رأسها وإلى كتفها. في النهاية جلست على السرير لكي تفكّ شعرها. من تحت غطاء رأسها أرسلت معظم العقد التي ثبّتها ذلك الصباح، وصار شعرها الآن كأكوّاب من صوف ناعم تتخلله أناملها. كانت تجلس هناك، يداها تتعمقان بشعرها في لذة ممنوعة، وقد لاحظت أنها لم تخلع حذاء عملها الثقيل. وضعت إصبع قدمها اليسرى في كعب اليمنى، وشدّت الحذاء لتخلعه. بدأ ذلك كجهد إضافي بينما كانت الدهشة معتدلة من مقدار التعب الذي شعرت به. وأعاققتها قبعة واسعة ناعمة، بالية ومعتمة، كالغرفة التي تجلس فيها، فكان أن انزلت عليها. لم تشعر «فيولت» بكتفها وهو يلاص المرتبة. طريق طويل حتى دخلت في سكونة النوم. كان عميقاً، جديراً بالثقة، ومريشاً بأحلام ملونة. وكان الحرّ لا يلين، متسللاً. كأصوات النساء في المنازل القريبة وهي تنشد «اهبط، اهبط، اهبط طريقاً إلى أرض مصر...» يجاوبن بعضهم من فناء إلى فناء بيت من الشعر أو نحو ذلك.

كان «جو» متغيباً لمدة شهرين في «كروسلاند»، وعند عودته وقف في المدخل، رأى جسم «فيولت» الأسود رخواً على السرير. بدت له ضعيفة، قابلة للإختراق بكل موضع عدا قدم واحدة، حيث لازال باقياً فيها حذاء العمل الخاص برجلها. خلع قبّعة القش، مبتسماً. وجلس عند أسفل السرير. أحد يديها كان يحضن وجهها، وارتاحت الأخرى على فخذاها. نظر إلى أظافر أصابعها المتصلبة كجلد راحتها، ولاحظ للمرة الأولى كيف كان شكل يديها. الذراع التي احدودبت خارجه من كمّ القميص الأبيض كانت عضلية من عمل الحقول، رفيعة للغاية لكنها ناعمة كذراع طفل. حلّ أربطة حذاءها وأراحها منه. لا بد أن ذلك أفاد شيئاً في حلمها، لأنها ضحكت عندئذ، ضحكة سعيدة خفيفة لم يسمعها من قبل أبداً، لكن بدا بأنها تخصها.

عند رؤيتي لهما الآن لا أراهما كهلام، فلازالا يفقدان حدودهما بنور ظهيرة لغد. لقد لحقا منتصف الطريق بين ما كان وما لا بد أن يكون. بالنسبة لي فهما حقيقيان. الصورة محدودة في البؤرة وتتكثك. إنني أتساءل، هل يعرفان بأن ذلك صوت الأصابع الملقطة تحت شجر

الجميز الذي يحدّ الشوارع؟ حين تنجذب القطارات الصاخبة إلى محطاتها وتسكن المحركات، يمكن للمنصتين المتنبهين سماع ذلك. وحتى حينما لا يكونان هناك، حين تزدحم مدينة بأكملها من وسطها وأحيائها المجاورة المخضرة في «ساج هاربر» لا يمكن أن تراهما، التكتكة هناك. في الأحذية بشرط حرف «تي» لفتيات «لونغ ايلند» المائسات، بأطراف جونلاتهن القصار الجريئة المهفهفة التي تنزلق على موسيقى تسكرهن بأشدّ من الشمبانيا. في عيون الرجال العجائز الذين يراقبون هؤلاء الفتيات، والرجال الأصغر الذين يعلقونهن. في مشية الرجال المترهلة المجيدة والذين يزلقون أيديهم في جيوب بنطلوناتهم التكسيدية. (*) أسنانهم لامعة؛ وشعرهم أملس ومفروق عند المنتصف. حين يأخذون الفتيات ذوات الأحذية بشرائط حرف «تي» ويقودونهن بعيداً عن الحشد والأنوار شديدة اللمعان، تأتي التكتكة التي تجعلهم يترنحون على الشرفات غير المضاءة بينما يعزف حاكي «الفيكترولا» في الردهات. إن قرعة الظلام والأصابع المقطقة تقودهم نحو ملاهي «روز لاند»، «بوني»، والمماسي الخشبية جنب البحر. إلى أماكن قد حذرهم آباؤهم منها، وارتجفت أمهاتهم من التفكير فيها. إن كلاً من التحذير والارتجاف يأتي من الأصابع المقطقة، والتكتكة. والظلّ. يدفعهم لبعيد في شوارع معينة، تتحدّد من بين شوارع أخرى، تجعل من الممكن لساكنيها بأن يتهدّوا ويناموا في ارتياح، يتمدد الظلّ - فقط هنالك - عند حافة الحلم، أو ينزلق مع انهيارات ضحكة خافتة. تخرج من السياج هناك نبتة الرباط التي تحدّ الطريق. وتنزلق خلال الحجرات كما لو رتبت لهذا، ومدّت ذاك. تتضمّ على حجارة الطريق، السواعد متقاطعة، وتخفي هي ابتسامتها تحت قبة بحافة واسعة. الظلّ. حام، ومجتمّل. ولا يكون أحياناً هكذا؛ يبدو حينها أنه يترصد فضلاً عن الرفرفة الحانية. وتمديداته لا تغفر فاهاً بل تنفسح لتستعيد هزيمته بعضاً. قبل أن تتكتك، يدقّ برفق، أو يطقطق أنامله.

بعضهم يعرف ذلك. المحظوظون. كل مكان يروحون فيه كمثّل ساعة من صنع ساحر بأيدي لها نفس الحجم، فلا يمكنك أن تتصور كم الوقت الآن، لكن يمكنك سماع التكتكة، الدقّ برفق، الطقطقة.

بدأت أظن بأن الحياة قد صنّعت لتدع العالم يفكر بطريقة ما في نفسه، لكن ذلك قد راح منحرفاً مع البشر لأن الجسد، مكبلاً بالبؤس، كان يتعلق في الحياة بلذة. يتعلق بآبار وولد ذهبي الشعر؛ يشهق على الفور من نار لذينة سببتها فتاة سوداء تمدّ يداً ربما بنعم، ربما بلا. لم أعد أصدّق ذلك بعد. إن شيئاً يضيع هناك. شيئاً وغداً. شيئاً آخر عليك أن تتخيله بالداخل قبل إمكانك أن تتخيله بالخارج.

(*) نسبة إلى بلدة «تكسيدو». (المترجم)

شيء لطيف أن يتهامس الكبار لبعضهم البعض تحت الأغطية. إن نشوتهم لهفة رقيقة أكثر مما هي صوت منكر، والجسم مركبة ولاهدف. يتوصل الكبار لشيء ما في الورا، وراء خلف الورا، وراء ما تحت النسيج الأسفل. يتذكرون بينما يهمسون لعرائس الكرنفال التي فازوا بها، ويتذكرون قوارب «بلتيمور» التي لم يبحروا أبداً عليها. يتذكرون الكمشري التي تركوها معلقة هناك على الفرع، لأنهم لو قطفوها يرحلون، ومن كان سيرى أيضاً ينوعها لو أنهم سلبوها لأنفسهم؟ كيف يمكن لأي عابر أن يراها ويتخيل على أي وجه تكون النكهة؟ يتنفس كل منهم ويدمدم تحت الأغطية بعد أن يغتسل ويعلق خط الهاتف، في سرير تخيروه معاً، وظلوا هكذا غير مباليين أي قدم قد استندت على قاموس ١٩١٦، بينما المرتبة محنية كراحه يد الكاهن طالب الشهادة باسم الرب، تضمهم جميعاً وكل ليلة وتلفع همساتهم، كحب زمان قديم. إنهم تحت الأغطية لأنهم ماعادوا يرغبون في النظر لأنفسهم بعد؛ لا عين فرس هناك، ليس من لحة سنويزو تحللهم. فهم منسحبون تجاه الآخر، موثقين ومرتبطين بعرائس الكرنفال وبالباوخر التي تمخر موانئ لم يروها أبداً. ذلك ما كان وراء همساتهم تحت الأغطية.

لكن دوراً آخر هنالك، ليس سرياً تماماً. الدور الذي يلمس الأصابع عندما يمر أحدهم الفنجان وطيقه إلى آخر. الدور الذي ينهي طرقة امرأة لآخر رقيبها في انتظار الترولي؛ ويجعله هو يفرك النسالة عن بذلته ذات النسيج الأزرق حين يخرج من دار السينما إلى نور الشمس.

أحسدهم، أحسد حبه العلي. عرفت ذلك بنفسي، فقط سراً، شاركت به سراً وبشغف، أه بشغف لأظهره - كي أتمكن من البوح بصوت عالٍ بما ليسوا هم في حاجة إليه على الإطلاق:

‘ ذلك أنني أحببتكم فحسب، أسلمت ذاتي كاملة طائشة لكم لا لأي واحد غيركم. أردتكم أن تردوا لي الحب وتظهره لي. أحب الطريقة التي تحضنونني بها، كم القرب الذي تسمحون به أن أكون لكم. أحب أنا ملكم أكثر وأكثر، وهي ترفعني، تديرني. لقد راقبت وجهكم الآن لمدة طويلة، وافتقدت عيونكم حينما فارقتموني. أن أكلكم وأسمع منكم رداً - ذاك هدفي.

لكنني لا يمكنني أن أبوح بهذا عالياً؛ لا يمكن أن أخبر أحداً أنني كنت أقرب هذا كل عمري، وقد اختير لي أن أنتظر مبرر أن أكون. لو كنت قادرة لبحث به. أقول أنشؤني، أعيدوا نشأتي. أنتم أحرار في فعل ذلك وأنا حرة في أن أسمع لكم به، فانظروا، انظروا. انظروا حيث تكون أيديكم. الآن.



طائر في يدي، حي هو أم ميت؟

«كان ياما كان هناك امرأة عجوز. عمياء لكن حكيمة». أو أنه كان رجلاً عجوزاً؟ هادياً، ربما. أو عصبة أطفال متعلمين بهدوء. قد سمعت هذه الحكاية، أو أخرى مثلها بالضبط، في سياق ثقافات عديدة.

«كان ياما كان هناك امرأة عجوز. عمياء. حكيمة».

في الرواية عرفت امرأة كانت ابنة لعبيد، سوداء، أميركية، ونحيا بمفردها في منزل صغير خارج البلدة. وكانت مكانتها كحكيمة بدون نظير ولا خلاف عليها. ما بين ناسها كانت، هي القانون وأنتها كنه معاً. كان التكريم الذي أولوها به والرعب الذي أقاموه من حولها يصل ما وراء الحي المجاور إلى أماكن جد بعيدة؛ إلى المدينة حيث نباهة المتنبيين الريفيين تكون مصدر تسلية كبيرة.

ذات يوم زار المرأة بعض شباب كان يبدو أنهم يميلون إلى دحض استبصارها وفضح دجلها الذي يعتقده فيها. وكانت خططهم بسيطة: يدخلون منزلها ويسألونها السؤال الوحيد الذي سيهدي بجوابه فحسب إلى اختلافها عنهم، الاختلاف الذي سيثبتونه مثل عماها: انعدام أهلية تاماً. يقفون أمامها، ويقول أحدهم «أنتها العجوز، إني أمسك في يدي طائراً. فقول لي إن هو حي أم ميت».

لم ترد، فتكرّر السؤال. «هل الطائر الذي أمسكه حي أم ميت؟»

لم ترد حتى الآن. فهي عمياء وغير قادرة على أن ترى زوارها، ناهيك عن هذا الذي في أيديهم. إنها لا تعرف لونهم، جنسهم أو موطنهم. تعرف فقط حافزهم.

صمت المرأة العجوز يطول جداً، وقد تعب الشباب من حبة الضحك.

تحدث أخيراً بصوت رفيع ولكنه صارم. «لا أعرف»، تقول. «لا أعرف إن كان الطائر الذي تمسكونه حياً أم ميتاً، لكن ما أعرفه بالتأكيد هو أنه في أيديكم. هو في أيديكم».

يمكن لجوابها أن يؤخذ على محمل: إن كان ميتاً، فقد وحدتموه هكذا، أو أنكم قتلتموه. وإن كان حياً، قتله سوف يأتي من بعد أن يكون على قيد الحياة، فهذا قراركم. ومهما تكون القضية، فهي مسؤوليتكم.

ولا استعراض قوتهم مقابل عجزها، أثبت زوارها الشباب، أخبرتهم أنهم مسئولون ليس فحسب عن فعلة الاستهزاء بل أيضاً عن حزمة الحياة القليلة التي منحوا بها في سبيل إنجاز مقاصدهم. فكان أن أبدلت المرأة العمياء اهتمامهم بعيداً عن ادعاءات القرة إلى الآلة التي تمارس القوة من خلالها.

(*) نص الحكاية التي ألقتها توماس مورفي - دون في - غفل - لها - جائزة نوبل في الآداب ١٩٩٣

إن تأمل ما قد يُشير له الطائر في اليد (فضلاً عن هيكله الهش) هو ما يصير لذيّ جذّاباً على الدوام، بل إنه خصوصاً الآن، يستدعي تفكيري عما أؤدبه من عمل جلبيني إلى هذه الصبح. ولذلك آثرت بأن أدلّ على اللغة بهذا الطائر، وعلى الكاتبة المتمرسّة بهذه المرأة. فهي قلقة بشأن اللغة التي تحلم فيها، والممنوحة لها عند الميلاد، الملموسة، والمطروحة للخدمة، حتى التي تمسك عنها لأغراضٍ محددة شائبة. ولكونها كاتبة فهي تفكر جزئياً في اللغة كنظام، وجزئياً كشئٍ حيّ قد سيطر عليه المرء، ولكن في الأغلب كوسيط - كفعلٍ بنتائجه. ولذلك كان السؤال الذي وضعه الأطفال للمرأة: «هل هو حي أم ميت؟» غير مصطنع لأنها تفكر في اللغة كشيء قابلٍ للموت، للانمحاء؛ منذر للخطر بالتأكيد ويمكن تعويضه بجهود الإرادة فحسب. وهي تعتقد بأنه لو كان الطائر الذي في أيدي زوّارها ميتاً، فإن القيمين عليه هم المسؤولون عن الجثّة. وبالنسبة لها، فإن لغةً ميتة ليست ما لم يعد يتحدث به المرء أو يكتبه، بل بسبب من محوها الصلّد حتى ليعجزها ركوها الخاص. مثل اللغة الرسميّة، فهي مراقية ومراقبة. متحصّرة في واجباتها الحاكمة، ليس بها رغبة أو غرض غير الحفاظ على المجال الحرّ لترجيستها المخدّرة، لاحتكاريّتها ولهيمنتها. وعموماً، فهي مخضّرة، ليس لانعدام تأثيرها، بل لأنها تحيط العقل بشكلٍ فعال، وتؤخر الوعي، وتقمع الممكن البشريّ. غير منفتحة على الفضول، ليس لها أن تصبغ أو تجيز أفكاراً جديدة، أو تشكل مقاصد أخرى، أو تحكي حكاية أخرى، أو تملاً نسياناً مرتبكة. إن اللغة الرسميّة تندكّ بجعل مصدّق عليه وبامتياز محفوظ، فهي كنمط من درع، ملتصع بهارج صادمة، كمحارة غادرها الفارس منذ زمان طويل. ولا يزال الأمر هكذا: فهي بكاء، ضاربة، ووجدانية. بمهابة مثيرة لدى أطفال المدارس، وتمدّ الطغاة بالحماية، وتستدعي الذكريات الزائفة للاستقرار والانسجام ما بين المجموع.

وهي تقتنع بأنه حين تموت اللغة، بدافع من الإهمال وسوء الاستعمال وغيبة المهابة واللامبالاة؛ أو تقتل بكلمة «ليكن»، فليست هي فقط، ولكن كل مستخدميها وصنّاعها مسئولون عن زوالها. ففي بلادها، قد يعضّ الأطفال ألسنتهم وهم يضعون كرات صغيرة بدلاً من أن يردّدوا صوت لغة بكاء، مضعفة ومستضعفة، لغة قد يهجرها البالغون كليةً كجهاز إيصالٍ لمعنى، يمدّهم باسترشاد، أو يعبرون به عن الحبّ. لكنها تعرف أن «انتحار - الكلام» لا يوجد في صوت الأطفال فحسب. فهو شائع ما بين الأدمغة الصببانية لتجار القرّة والطبقة، حيث لاتدع لهم لغتهم المفرغة مدخلاً لما يتبقى من مواهبهم البشرية، لأنهم يتحدثون فقط إلى من يطع، أو لكي يفرضوا طاعةً.

ويمكن التعرف على النهب المنظم للغة من خلال ميل مستخدميها للامتناع عن استعمال خصائصها الدقيقة والمعقّدة والمولّدة، كأنها خطر واستعباد. إن اللغة المستبدّة تفعل أكثر من تمثّل العنف، فهي العنف ذاته؛ وتفعل أكثر من تمثّل حدود المعرفة، فهي تحدّد المعرفة. ومهما كانت اللغة رفيعة غامضة أو لغة - مبتذلة لإعلام غبيّ؛ ومهما كانت اللغة أكاديميّة متكبرة بل ومتكلّسة أو لغة علم تساق كسلعة؛ ومهما كانت اللغة ضاربة لقانون - بلا - أخلاق أو لغة مفصّلة لإقصاء الأقليات فتخفي غنيمتها العنصريّة في جانبٍ أدبيّ - فلايد أن تنبذ، وتعدّل، فتتكشف. إنها اللغة التي تشرب دماً، وتنطوي في قابلية الانجرار، وترمم أحذيتها الفاشيّة من تحت أودية الاحترام والوطنية بينما هي تسعى في غير ما شفقة نحو الحد الأدنى والمزاج عويص الفهم. لغة جنسيّة، لغة عنصريّة، لغة قدسية - كلها نماذج للغات السيطرة الحاكمة، ولا تستطيع، لا تسمح بمعرفة جديدة أو تحثّ على تبادلٍ مشتركٍ لأفكار.

إن المرأة العجوز تعي بعنفٍ أنه ما من مرزقة فكريّة، ولا مستبدّ نهم، ولا سياسي أو ديماجوجي مدفوع الأجر؛ ولا صحفي زائف، يمكن له الاقتناع بأفكارها. هناك إذن وستكون، لغة محرّصة لتجمل المواطنين

مُسْلِحِينَ وَمُسْلَحِينَ ؛ مَجْزُورِينَ وَجَازِرِينَ فِي الْمُنْتَهَاهَاتِ، دِيَارِ الْقَضَاءِ، مَكَاتِبِ الْبَرِيدِ، الْمَلَاعِبِ، غُرْفِ النُّومِ،
وَالشُّوَارِعِ الْمَشْجَرَةِ ؛ لُغَةً مُنْشَطَةً وَمُسْتَظْهِرَةً. لَتَقْنَعُ الشَّفَقَةُ وَتَبْدُدَ الْمَوْتَ بِغَيْرِ لُزُومٍ. سَوْفَ تَوْجَدُ لُغَةً أَكْثَرَ لِيَاقَةِ لَتَقْرِ
الْاِغْتِصَابِ، وَالتَّعْذِيبِ، وَالاِغْتِيَالِ. هُنَاكَ إِذَنْ وَاسْتَكُونُ، لُغَةً مَتَحَوَّرَةً وَمَغْزُوبَةً أَكْثَرُ، فَصَلَّتْ لِخُنُقِ النِّسَاءِ، لِحَزْمِ
حُلُوقِهِنَّ مِثْلَ إِوْزٍ مَعْجُونٍ، بِكَلِمَاتِهِنَّ غَيْرِ الْمُنْطَوِقَةِ وَالْمُنْتَهَكَةِ ؛ سَوْفَ تَوْجَدُ لُغَةً مُرَاقِبَةً أَكْثَرَ بِمُظْهِرِ بَحْثٍ عِلْمِيٍّ
؛ عَنْ مَيُولِ السِّيَاسَةِ وَالتَّارِيخِ الْمُبْرَمَجِ لاسْتِدْعَاءِ مَعَانَاةِ مِلَاطِينَ خُرْسَاءِ ؛ لُغَةً فَائِتَةً تُثِيرُ الْمُسْتَأْثِنِينَ وَالْمُحَرِّمِينَ
لِلْاِنْتِقَاضِ عَلَى جِيرَانِهِمْ ؛ لُغَةً تَجْرِيْبٍ - زَائِفٍ مُتَعَجِّرَةٍ تَمْتَهِنُ لِهَجْمِ الْمُبْدَعِينَ فِي أَقْفَاصٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالْعَجَازِ.
مَا تَحْتَ الْفَصَاحَةِ وَالسَّحَرِ وَالتَّوَدَاعِيَّاتِ الْمُثَقَّفَةِ عَمُومًا، مُنْشَطًا أَوْ مُغْرِيًا ؛ فَإِنْ قَلَبَ مِثْلَ هَذِهِ اللُّغَةِ وَاهِنًا،
أَوْ رُبَّمَا لَا يَدِقُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ - لَوْ كَانَ الطَّائِرُ مَيِّتًا فَعَلًا.

لَقَدْ فَكَّرْتُ هِيَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ التَّارِيخُ الْفِكْرِيُّ لِأَيِّ نِظَامٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُصَرًّا عَلَى؛ أَوْ يَدْفُوعًا
إِلَى، فَاقْدِ الْوَقْتَ وَالْحَيَاةَ الَّذِي يَتَطَلَّبُ تَسْوِيقَاتٍ وَتَمَثُّلَاتٍ لِلْسِّيَاطَةِ - فَإِنْ أَكْثَرَ مِنْ خُطَابٍ لِلْإِقْصَاءِ مَهْلِكٍ يَسُدُّ
الْمُدْخَلَ عَلَى إِدْرَاكِ كُلِّ مِنَ النَّابِذِ وَالْمُنْبُذِ.

إِنَّ الْحِكْمَةَ الْمَأْلُوفَةَ مِنْ حِكَايَةِ «بَرَج بَابِل» هُوَ أَنَّ الْاِنْهِيَارَ كَانَ يَلِيَّةً. ذَلِكَ كَانَ النِّزَاعُ، أَوْ هُوَ ثَقُلُ اللُّغَاتِ
الْعَدِيدَةِ الَّتِي طَوَّحَتْ بِعِمَارَةِ الْبَرَجِ الْوَاهِنَةِ. لُغَةُ الْوَحْدَةِ وَالتَّنَاقُصِ تِلْكَ قَدْ عَجَلَتْ بِالْمَبْنَى أَوْ أَنَّ السَّمَاءَ قَدْ وَصَلَتْ
إِلَيْهِ. سَمَاءٌ مِنْ، إِنِّهَا تَسْأَلُ؟ وَمِنْ أَيِّ نَوْعٍ؟ رُبَّمَا كَانَ مَأْتَرَةُ الْجَنَّةِ فِي أَنَّهَا مَبْتَسِرَةٌ، وَطَائِفَةٌ قَلِيلًا لَوْ لَمْ يُمْكِنُ
الْمَرَّةَ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ الْوَقْتَ فِي سَبْرِ لُغَاتٍ أُخْرَى، وَأَرَاءَ أُخْرَى، وَحِكَايَا أُخْرَى. لَوْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَإِنَّ السَّمَاءَ الَّتِي
تَخَيَّلُوهَا رُبَّمَا كَانَتْ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ. مَرَكَّبَةٌ، وَمُتَطَلِّبَةٌ نَعَمْ، لَكِنَّهَا سَمَاءٌ مَشْهُودَةٌ كَحَيَاةٍ ؛ لِأَسْمَاءِ كَحَيَاةٍ -
سَابِقَةٍ.

لَمْ تَكُنْ تَرِيدُ أَنْ تَدْعَ زَوَارِهَا الشَّبَابَ لِانْطِبَاحِ أَنْ اللُّغَةَ يَنْبَغِي قَسْرُهَا لِتُظَلَّ حَيَّةٌ عَلَى قَيْدِ الْوُجُودِ لَيْسَ غَيْرِ.
إِنَّ حَيَوِيَّةَ اللُّغَةِ تَنْصَبُّ فِي قَابِلِيَّتِهَا عَلَى تَرْسِيمِ حَيَوَاتٍ مُتَحَدِّثِيهَا، وَقَرَأَتِهَا، وَكُتِبَتِهَا ؛ الْمُمْكِنَةُ وَالْمُتَخَيَّلَةُ وَالْفَعْلِيَّةُ.
رَغْمَ أَنْ اِتِّزَانَهَا يَكُونُ أحيانًا فِي إِزَاحَةِ الْخَبْرَةِ الَّتِي لَا يَدِيلُ عَنْهَا. فَهِيَ تَتَخَذُ مَسَارَهَا نَحْوَ الْمُمْكِنِ حَيْثُ يَرْتَدُّ الْمَعْنَى.
حِينَ فَكَّرَ رَئِيسُ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فِي بِلَادِهِ الَّتِي صَارَتْ كَجِبَانَةٍ، وَقَالَ (إِنَّ الْعَالَمَ لَنْ يَلْحَظَ قَلِيلًا أَوْ يَتَذَكَّرَ طَوِيلًا
مَا نَقُولُهُ هُنَا. لَكِنَّهُ لَنْ يَنْسَى أَبَدًا مَا فَعَلُوهُ هُنَا). فَإِنَّ كَلِمَاتِهِ الْبَسِيطَةَ كَانَتْ مَبْهَجَةً فِي خُصَائِصِهَا الَّتِي تَوَازَرُ الْحَيَاةَ
لَأَنَّهُمْ رَفَضُوا تَغْلِيْفَ حَقِيقَةِ أَنَّ سِتْمَائَةَ أَلْفِ رَجُلٍ مَاتَ فِي حَرْبٍ عُنْصَرِيَّةٍ عَنِيْفَةٍ وَمُفَاجِئَةٍ. كَانَ يَرْفُضُ تَخْلِيدَ
ذِكْرِي، أَنْفَأَ مِنْ «كَلِمَةِ آخِرَةٍ»، حَرْيَصًا عَلَى «تَبْلِيغِ حُكْمٍ»، عَارِفًا بِأَنَّ «قُوَّتَهُمُ الْبَائِسَةَ فِي أَنْ يَضِيفُوا أَوْ
يَنْقُصُوا»، وَلِذَلِكَ كَانَتْ كَلِمَاتُهُ تُشِيرُ فِي إِذْعَانٍ لِانْعِدَامِ قَابِلِيَّةِ أَسْرِ الْحَيَاةِ الَّتِي يَتَفَجَّعُونَ عَلَيْهَا. هُوَ الْإِذْعَانُ الَّذِي
يُحَرِّكُهَا، التَّسْلِيمُ بِأَنَّ اللُّغَةَ لَا يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَسْتَعِيدَ الْحَيَاةَ مَرَّةً أُخْرَى وَلِلْأَبَدِ. وَلَا يَنْبَغِي لَهَا. لَيْسَ لِلُّغَةِ أَنْ «تَصْبِرَ»
الْعُبُودِيَّةَ، الْإِبَادَةَ الْجَمَاعِيَّةَ، الْحَرْبَ. وَلَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَرْتِي غَطْرَةَ لَكِي تَكُونُ قَادِرَةً عَلَى فَعْلٍ هَذَا. إِنَّ قُوَّتَهَا،
لِيَاقَتَهَا، هِيَ فِي وَصُولِهَا صَوْبَ مَا لَا يَوْصَفُ.

أَنْ تَكُونَ رَفِيعَةً أَوْ هَزِيلَةً، مُتَعَجِّرَةً، مُنْفَجِرَةً، أَوْ تَرْفُضُ التَّقْدِيسَ ؛ مَا لَوْ تَضَحَّكَ بِصَحْبٍ أَوْ تُطْلِقَ صَرِيخَةً
مِنْ دُونَ حُرُوفِ الْهَجَاءِ، الْكَلِمَةِ الْمُخْتَارَةِ، الصَّيْمَتِ الْمُخْتَارِ، لُغَةً مُسَالِمَةً تَنْدَفِقُ نِجَاهَ الْمَعْرِفَةِ، لِانْتِجَاهِ دِمَارِهَا. لَكِنْ، مِنْ
لَا يَعْرِفُ إِدَانَةَ الْأَدَبِ لِأَنَّهُ اسْتَفْهَمَهَا ؛ الشُّكُّ فِيهِ لِأَنَّهُ نَقَدِيٌّ ؛ مَحْوُهُ لِأَنَّهُ بَدِيلٌ ؟ وَكَمْ مَرَّةً يَنْتَهَكُ بِدَعْوَى
اللِّسَانِ الَّذِي يَخْرُبُ ذَاتَهُ ؟

وهي تفكر، في أن عمل - الكلمة سأم، لأنه مؤكد ؛ فهو يكوّن المعنى الذي يصون تمايزنا، تمايزنا البشري - الطريقة التي لا تشبه فيها أي حياة أخرى.

نحن نموت. ربما ذلك هو معنى الحياة. لكننا ننجز لعة. ذلك قد يكون كنز حياتنا.

«كان ياما كان...» يستفهم زوّار من امرأة عجوز. من يكونون، هؤلاء الأطفال ؟ ماذا يقصدون من تلك المناوشة ؟ ما الذي سمعوه من تلك الكلمات الأخيرة: «الطائر في أيديكم» ؟ كلمة تلمّح لإمكانية أو كلمة لتسقط المزلاج ؟ ربما كان ما سمعه الأطفال هو «هي ليست مشكلتي. فأنا عجوز، وأنتي، سوداء، وعمياء. قدر الحكمة الذي لدي الآن هو في معرفتي أنني لا يمكنني مساعدتكم. فمستقبل اللغة يخصكم».

يقفون هناك. افرضي أنه لا شيء كان في أيديهم ؟ افرض بأن الزيارة كانت مجرد حيلة، خدعة، ليتمّ معهم كلام، ويؤخذوا مأخذ الجدّ كما لم يكونوا من قبل ؟ وهي فرصة لتأويل، لتدريس عالم بالغ، عطن خطابه بخصوصهم، من أجلهم، لكنه أبدأ ليس لهم ؟ إن الأسئلة العاجلة في رهان، من ضمنها السؤال الذي سألوه: «هل الطائر الذي نمسك به حي أم ميت ؟» ربما كان يعني: «هل يمكن لأحد أن يقول لنا ما الحياة ؟ ما الموت ؟» فلا خدعة على الإطلاق ؛ لا سخر. سؤال صريح يستحق الاهتمام من امرئ حكيم. عجوز. ولو لم يتسنّ للمعجّز والحكماء الذين عاشوا الحياة وواجهوا الموت أن يوصفوه، فأنتي لغيرهم ؟

لكنها لم تفعل ؛ فهي تحفظ سرّها ؛ جميل رأيها لذاتها ؛ أقوالها المأثورة ؛ فنّها من دون ارتكاب. تحتفظ بمسافتها، لتدعمها وتسحبها إلى انفراد عزلة، في فضاء محكّ بامتياز.

لا شيء، لا كلمة تتبع ما صرّحت به من تحوّل. ذلك الصمت عميق، وأعمق من المعنى المتاح في الكلمات التي تحدّثت بها. هذا الصمت، يشظي، والأطفال، منزعجون، فيملاؤونه بلغة قد اخترعت للتو.

«أما من كلام هناك» يسألونها «لا كلمات يمكنك أن تمنحنا فسادنا في اختراق ملف إخفاقاتك ؟ يجتاز التعاليم التي قد منحنا إياها منذ قليل بأنه لا تعاليم على الإطلاق، لأننا نستعري اهتماماً دقيقاً لما قد فعلت ٣ بنفس القدر لما قد قلت ؟ لذلك العائق الذي قد أقمته ما بين السماحة والحكمة ؟

«ليس لدينا أي طائر في أيدينا، حياً أو ميتاً. لدينا أنت فقط وسؤالنا الهام. فهل يكون العدم الذي بأيدينا شيئاً لا يمكنك تحمّل أن تتأملي فيه، أو حتى تخمينيه ؟ ألا تذكرين وأنت صغيرة حينما كانت اللغة سحراً بلا معنى ؟ حينما كان يمكنك القول، فلا يعني شيئاً ؟ حينما كان اللامرئي هو ما يجاهد الخيال في أن يراه ؟ حينما كانت الأسئلة ومطالب الأجوبة تحترق في سطوع وأنت ترجفين بالغضب لعدم المعرفة ؟

«هل علينا أن نبدأ الوعي بأبطال وبطلات معركة مثل التي خضيتها فعلاً وخسرت فتركتنا بالعدم في أيدينا عدا ما قد تخيلته فيها هناك ؟ جوابك بارع، لكن براعته تورطنا وهي حتماً تورطك. جوابك غير محتشم في شكره لنفسه. مصنوع لأجل شريط تلفزة لا يعي حاسة إن كان العدم هناك في أيدينا

«لماذا لم تبسطي يديك، فتلمسينا بأصابعك اللينة، تؤجّلين عضّة الصوت، الدرس، حتى تعرفي من نكون ؟ هل ازدريت تماماً خديعتنا، طريقة فعلتنا التي لم تريها، ذلك أننا كنّا نسعى بلا طائلي من أجل كيفية لفت انتباهك ؟ نحن شباب. غير ناضج. قد سمعنا طوال حياتنا القصيرة بأننا لا بد أن نكون مسئولين. ماذا يمكن

أن يعنيه ذلك، بأية حال، فيما قد يليق بهذه الكلمة في محتواها الأخير؛ حيث يكون الأمر، كما قال شاعر «العدم» يحتاج أن ينكشف لأنه سافر بالفعل». إرثنا مهين. تريد من أن نأخذ عينيك المعجزين الأيبضين ونرى فحسب الاعتياد والوحشية. هل تظنين بأننا أغبياء حتى لنجث بأنفسنا مرةً ومرة في رواية عشرينات؟ كيف تجرؤين أن تكلمينا عن الواجب في حين أننا نقف خصوصاً نغطف في مادة من سم ما ضيكت؟

«تستهوين بأمرنا وأمر الطائر الذي ليس بأبدنا. ألا من سياق لحياتنا؟ لا أغنية، لا أدب، لا قصيدة مفعمة بقيتامين، لا تاريخ مرتبط بخبرة يمكنك اجتيازه لنجدتنا فبدأ أقوىاء؟ أنت راشدة. العجوز، الحكيمة. كفي عن التفكير بشأن إنقاذ وجهك. فكري في حياتنا واحكي لنا عن دنياك المخصوصة. ألفت قصّة. يسرد فطري، يدعنا بنفس لحظة أن يتدع. فلن نلومك لو يبرز لسانك عما في قبضتك؛ لو يشعل الحب تماماً كلماتك حتى تغرق في اللهب ولا شيء يبقى عداه الحريق. أو لو، كما في صمت يدي جراح، تخط كلماتك الأماكن فحسب بحيث ربما يفيض دم. نعرف أنك لن تستطيعي فعل ذلك في شكله الصحيح - مرةً ولأبد. الولوع ليس كافياً؛ ولا البراعة. لكن جري. من أجل خاطرتنا وخاطرك انسي اسمك في الشارع؛ واحكي لنا ماذا يكون العالم عندك في أماكن العتمة وفي النور. لا تحكي عما تعتقدين، عما تخافين. أرينا كساء معتقدك الواسع والفتق الذي ينحل عن غشاء خوفك منه. أنت، يا امرأة عجوز، مبارك عماك، بإمكانك أن تتحدثي اللغة التي تحكي لنا ما بوسع اللغة أن تحكيه؛ كيف ترى دون صور. إن اللغة وحدها تخميناً أن نرتاع من أشياء بلا أسماء. وحدها اللغة تفكر.

«احكي لنا ما ينبغي أن تكونه امرأة فلربما نعرف ما ينبغي أن يكونه الرجل. ما يسري على الهامش. ما الذي يعنيه أن تكون في العراء بهذا المكان. أن تكون على غير هدى مع الشخص الذي قد عرفته. ما الذي يعنيه أن نحيا على طرف المدن والتي لا تحتل عشتك.

«احكي لنا عن مراكب ترحل عن حد الشواطئ في عيد فصيح، ومشيمة مرمية في جمل. احكي لنا عن حمل حافلة من عبيد، كيف كانوا يغنون بنعومة بالغة حتى أن نسيهم كان يصعب تمييزه من بين تلح ساقط. كيف كانوا يعرفون من حدية أقرب كتف أن المحطة القادمة ستكون الأخيرة لهم. كيف أنهم، بأيديهم الضاربة في غريزتهم، كانوا يفكرون في الحر، بعدها الشمس. رافعين أوجهم، وكأنهم في لحظة الأمر هناك. ملتفتين كالحظة الأسر هناك. يوقف بهم عند خان. يدلف السائق وتابعه مع القنديل يخلونهم ليهمهموا في الظلام. زفير الحصان يتبخّر في الجليل تحت حوافره وهسيه، بينما الذوبان هو موضع حسد العبيد المتجمدين.

«يفتح باب الخان: فتاة وغلّام يخطوان بعيداً عن نوره. يصعدان إلى سرير الحافلة. سيكون لدى الغلام بندقيّة في خلال أعوام ثلاثة، لكنه الآن يحمل قنديلاً وإبريقاً من عصير دافئ. يمررانه من فم لغم. تعرض الفتاة خبزاً، وقطعاً من اللحم، وشياً إضافياً؛ لحة لعبون الذي تخدمه. حصّة من طعام لكل رجل، حصّة لكل امرأة. ونظرة. يردون النظر. المحطة القادمة ستكون الأخيرة لهم. لكن ليست هذه. هذه المحطة داخلة.

بهذا الحال ثانية حينما ينتهي الأطفال من الحديث، حتى تقتحم المرأة الصمت.

«أخيراً» تقول «فأنا أتى بكم الآن. أتى بكم مع الطائر الذي ليس في أيديكم، لأنكم حقاً اصطدتموه. فانظروا. كم هو فاتن، هذا الشيء الذي أدبناه - معاً. ❖

رقم الايداع ١٦٩٧ / ٩٥

الترقيم الدولي ٩٧٧-٥٤٠٦-٢٥-٠ I S B N

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

♦ عبدة الصفر

ألان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

♦ مدام بوقاري

جوستاف فلوبر

ترجمة : محمد مندور

♦ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

♦ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

♦ المكان

آني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد

وسيد البعراوي

♦ الآثار الشعرية الكاملة

إديث سودرجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر

ومحمد عيد إبراهيم

♦ چاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم



دار شرقيات للنشر والتوزيع

